صخرة الحب

رواية صخرة الحب تجمع بين صفحاتها المشاعر الإنسانية المتضاربة والصراع الرهيب بين الحب والواجب والكرامة الإنسانية.

كما ترينا صوراً من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وعواقب الظلم الوخيمة.

إن الصراع بين هذه المشاعر كلها كثيراً ما يؤدي إلى مصائب وويلات لم تخطر على بال بشر، خاصة إذا كان الضحايا لا حول لهم ولا قوة في ردِّ ما رسمه لهم القدر من مصير.

لكن الحب بلسم كل الجراح ودواء القلوب المعذبة،وحده يبقى العلاج الناجع لمسح آثار هذه الآلام.

عند صخرة الحب بدأت الرواية وعندها تكون النهاية السعيدة بعد طول انتظار.

دار البحار

الفصل الأول

قصر الحب

ليست الحكايات أو الحوادث المؤثرة من مبتكرات القرائح والادمغة ومخترعات الكتاب بل هي مستخرجة من اقلام المجتمع الانساني على اختلاف انواعه فلا ندعي اننا استنبطنا حوادث هذه القصة فانما هي مأخوذة من سفر الحياة ومأساتها .

وهي تبدأ في بريتانيا الفرنسية تلك البقعة الطيبة التي زخرفتها يد الطبيعة فشوهتها يد التمدن الحديث ، وكانت بلاد النزهة ومسارح الابصار فاصبحت بلاد مجد ومطامح الافكار ورجال المكر والسياسة .

في آخر الحدود الفرنسية لسان يمتد في البحر على مسافة ثلاثين كيلو متراًوقد شيد في آخر هذا اللسان قصرشاهق يشرف على المحيط المعظم فهو يشبه في الليل المنارة تهدي السفن بل هو شبه حارس على ذلك البحر الخضم يرد صدمات امواجه ويدفع غاراتها على الارض ،هذا القصر اسمه « صخرة مورجابت وهو قد بني منذ ثمانين عاماً ولا يزال ثابتاً راسخاً لفخامة بنائه ومتانة دعائمه ،فهو غريب في بنائه غريب في عزلته غريب

في اختلاف المناظر المحدقه به من جميع جهاته فهي تجمع بين الانقباض والرهبة والارتياح والجلال ، فانك إذا نظرت إلى الامام لا ترى غير امواج هائلة ماتفتأتلاطم الصخور وترتد عنها بزبد المغضب وانين المدحور وإذا التفت إلى اليمين رأيت قفراً سبسباً اجرد لا ينتهي إلى آخره مدى الابصار وإذا تطلعت إلى اليسار تجلت لك صخور شاهقة تمتد إلى مدى بعيد على الشاطيء كانها قلاع شيدتها الطبيعة لرد كيد المعتدين . وإذا تطلعت الى الوراء انبسطت لك الارض بأجمل مناظرها فظهرت لك الاشجار الباسقة والحقول النامية تخترقها مياه النهر فتثبت فيها الحياة وفي نفس الناظر اليها حب الحياة .

هذا هو قصر صخرة مورجابت وهذه هي المناظر المحدقة به ولا شك أن بانية انما كان من قرصان البحر فاختار له هذا الموضع أو انه من الاغنياء اهل الشذوذ وهو الارجح فقد ذكرو عن تاريخه انه كان يقيم فيه في أواخر القرن الماضي اسرة نبيلة تدعى اسرة فيتراي لم يكن قد بقي منها غير اخوين تزوج احدهما فلاحة من تلك البلاد وبقي الآخر عازباً فكانا يعيشان على اتم وفاق وقد انقطعا عن الناس فأصبحا شبه النساك الى أن ثارت الحرب بين فرنسا وانكلترا فهاج في صدريهما حب الوطنية فاشتريا عدة سفن بما كسباه من بيع اراضيهما وجمعا لها افريقا من اهل الحماسة فجعلوا يغيرون بتلك السفن على السفن التجارية الانكليزية ويسلبون كل ما يجدونه فيها فلبثا على ذلك منذ بدء الحرب الى سقوط الامبراطورية الاولى بحيث نالا شهرة واسعة في

البحرية الفرنسية وثروة عظيمة مما كانا يغنمان من الاسلاب ولكنهما لم يظفرا بتلك الثروة عفواً فان احد الاخوين قطعت يده في تلك الغارات وفجع الآخر بفقد احدى عينيه .

وفي سنة ١٨٦٩ كان الاخوان قد ناما نومة الابد من عهد طويل ولكن نسلهما لم ينقطع بموتهما فقد ولد لاحدهما غلام وهو الآن الكونت مالونيان فيتراي صاحب صخرة مورجابت ووريث تلك الاسرة الشهيرة .

وكان هذا الكونت في بدء حوادث هذه الرواية شاباً جميلا يبلغ السابع والثلاثين من العمر وهو قائد دارعة في البحرية الفرنسية وقد نال وسام الشرف مكافأة له عن خدماته في حملة المكسيك .

وكان من كبار الاغنياء يبلغ مقدار ايراده السنوي نحو نصف مليون فرنك ولكنه رغم ثراءه كان شديد التعلق بخدمة بلاده بحيث لم يخطر له مرة أن يقتدى بامثاله من الاغنياء وينصرف إلى عيش الترف والتنعم بما ورثه من الآباء .

ولكن للغرام سلطاناً جائراً على القلوب ولا سيما الشريفة فانه لقي مرة في منزل مجاور لمنزله فتاة ادهشته بجمالها وفتن بها لاول نظرة وكانت هذه الفتاة تدعى هيلانة دي فيلد وهي ابنة ضابط في فرقة الفرسان مات عنها وهو في عنفوان الشباب دون أن يخلف لها ثروة بحيث اضطرت أن تعيش بصفة فتاة شرف في قصر المركيزة جانيت ابان قريبة الكونت مالونيان .

وكان عمرها سبعة عشر عاماً حين دخلت إلى قصر المركيزة

كي يرى الكونت تلك الحسناء التي أخذت بمجامع قلبه .

اما الفتاة فلم تكن تقابله بشيء من هذا الحب ولكنه لم ينتبه إلى عدم اكتراثها فان الحب اعمى بصيرته .

ولم تكن غير ايام حتى تداخلت المركيزة في امرها وحملتها على الاذعان والرضى بزواج الكونت غيرة عليها واية فتاة يحق لها أن ترفض ثروة تهبط اليها من السماء هي تبحث عنها منذ عهد الرشاد فبدأت بالرضى ثم بالميل ثم بالحب فعقد القران ودعيت الكونتس وتمتع العاشقان باهنأ ملذات الحب الصادق دون أن يلد لهما مولود يفسر معنى الزواج .

إلى أن صدر الامر إلى الكونت أن يسافر بدارعته فودع امرأته ارق وداع وسافر وهو لا يعلم متى يعود وطال غيابه خمسة عشر شهراً .

ففي آخر نوفمبر من سنة ١٨٦٩ كان رجل ملتفاً برداء عسكري يركب القطار المسافر من مرسيليا إلى باريس وكان وحده ليس معه غير حقيبة سفر تحمل باليد حتى إذا وصل إلى باريس ركب مركبة وامر سائقها أن يذهب به إلى شارع هوكمان نمرة ١٧٠ وكان هذا الرجل الكونت مانوليان .

•

وكان يود أن تطير به المركبة لشدة شوقه إلى امرأته ومع ذلك فانه لم يخبرها بقدومه ، ليس لأنه يريد أن يباغتها بقدومه الفجائي فقد كان واثقاً من حبها لا يخامر قلبه شيء من الريب

بل لأنه كان يريد أن يزيد سرورها بمفاجأة اللقاء فانه كان يقرأ رسائلها اليه فيجد الحب مائلا بين سطورها بل أنه كان يجد الامتنان بادياً في عباراتها فانها كانت تبسط له ما تلقاه من الغبطة والنعيم والرفاه وتنسب الفضل اليه في كل ذلك الهناء .

اما هو فقد كان يضع صورتها امامه ويكتب لها في كل يوم رسالة مسهبة يضمنها كل ما يكنه قلبه من الحب الذي خرج به عن طور الغرام إلى طور العبادة وكان صادقاً في كل ما يقوله فانه لم يحب امرأة سواها من قبل ولا من بعد حتى إذا وصل إلى منزله طرق بابه بيد ترتجف ففتحت له خادمة تبلغ الاربعين من العمر وقد تراجعت حين رأته وقالت : سيدي الكونت ؟!

قال : نعم أنا هو فما يدعوك إلى الانذهال ؟

— لا شيء .. انما .. — انما لم يكن احد ينتظرني .

— هو ذاك يا سيدي — والكونتس ..؟

وقد كانت هذه الخادمة دخلت في خدمته منذ زواجه فلم تكن تكترث لشيء مما يجري حواليها ولا تبالي إلا بمصلحتها الشخصية .

فلما دخل الكونت إلى المنزل ورأى السكون سائداً فيه وسأل الخادمة عن الكونتس اجابته بلسان يضطرب قائلة :

لو ابلغها سيدي الكونت خبر قدومه من قبل لكان احسن عمـــلا ..

فقطب الكونت حاجبيه وقال : لماذا ؟

— لأن سيدتي مسافرة — مسافرة منذ متى ؟

– منذ ثلاثة اسابيع – اسافرت وحدها ؟

– كلا بل مع وصيفتها حنة ، وصيفتها المختارة .

وقد قالت هذا القول بلهجة تدل على انها تريد بها شريكتها فتجهم وجه الكونت وبدأت تظهر عليه علائم قرب الغضب فقال .

– واين بقية الخدم ؟

– أنهم لا يزالون في الخدمة يا سيدي غير أنهم متفرقون الآن لعدم وجود الاسياد في المنزل .

– إذن لا يوجد غيرك الآن ؟

– هو ذاك – حسناً فاتبعيني .

وقد دخل إلى القاعة الكبرى ووقف هنيهة يتأمل امرأته وقد رسمها مصور حاذق بالحجم الطبيعي فكانت تبتسم بذلك الرسم ابتسام سوداء كأنه ابتسام مغتصب .

وبعد أن تمعن الكونت بها هنيهة وهو مضطرب القلب لهذا السفر الذي لم يدرك سره نظر إلى الخادمة فجأة فباغتها وهي تبتسم ابتسام الهازئين فكان ذلك كافياً لاثارة الهواجس والظنون في قلبه وقال لها :

– انك تعلمين دون شك ماذا يحدث هنا فاخبريني بما جرى فبسطت الخادمة يديها وقلبت شفتها اشارة الى انها لا تعلم شيئاً فقال لها، إني أخجل أن اسألك ولكني لم اعد املك نفسي لشدة اضطرابي فان لسفر الكونتس سر خفي وقد يكون سراً شائناً ولكن لا بد لي من الوقوف عليه .

قالت ، أن سيدتي الكونتس قد سألت في الوزارة قبل سفرها عن سيدي الكونت فعلمت انه لا يعود قريباً ولا سبيل إلى الظنون فقد تكون كتبت لك عن سفرها ولم تصل اليك رسالتها .

– كلا لا اريد مثل هذه الاعذار بل أريد أن تقولي الحقيقة مهما كانت ، ولما رآها سكتت ووقفت وقفة المتردد قال لها :

اني اشتري منك هذا شراء ولاني احب الايجاز فهل يكفيك عشرة آلاف فرنك ؟

فاحمر وجه الخادمة احمرار فرح لا خجل فانها تبيع امها وأباها بهذا الثمن ولكنها ابتسمت وقالت :

أن سيدي الكونت يحاول اغرائي والذي اراه أنه خير له أن ينتظر و ..

– وماذا ؟ – وأن يجهل .

فشعر الكونت كأن خنجراً قد أغمد في صدره فقال لها بلهجة القانطين ، أتمي اعترافك فلم يبق سبيل إلى التردد لأني فهمت .

والحقيقة أنه لم يكن احد يعلم تفصيل ما جرى فكانت الخادمة تقول اقوالاً لا تدل على امر جلي ولكنها مبنية على الظنون والدلائل بحيث يستدل السامع من اقوالها انه لا بد أن تكون الكونتس ناهجة غير المنهج القويم من ذلك قولها أن الكونتس ظهرت عليها علائم الكآبة فجأة منذ بضعة اشهر فحبست نفسها في المنزل لا تزور ولا تزار حتى أنها تمتنع من دعوة

المركيزة وهي الحسنة اليها المشهورة بحنوها عليها . وإذا الطبيب عادها مرة في البدء ثم امتنعت عن استشارته ولم تكن تخلو الا مع وصيفتها حنه .

فقال لها الكونت وهو يرتجف غضباً ، أذن أنت تعتقدين أن الكونتس عشيقاً ؟

فلم تجبه الخادمة فقال :

ثم تعتقدين أنها سافرت لاخفاء نتيجة زلتها ؟

قالت : لا اعلم شيئاً اكيداً يا سيدي .

— من هو هذا العشيق ؟

— لا أعرف اسمه هذا على افتراض انه موجود .

— بل أنت تكذبين .

— ما الذي يدعوني إلى الكذب فقد دفعت لي ثمناً غالياً كي لا اكتمك شيئاً مما اعلم .

— اذن قولي من هذا العشيق ؟

— ثق يا سيدي انه لا يوجد هنا من يعرف اسمه .

— حتى أنت . — حتى انا .

— حسناً فسأعطيك ما وعدتك به فقولي اين هي الكونتس الآن .

— لا أعلم بالتدقيق .

— إلى أين ترسل رسائلها ؟

— لقد عهدت إلى البواب بإرسالها إليها .

فنظر الكونت اليها محدقاً وقال لها أن هذا البواب من

اصحابك وهو الذي ادخلك في خدمتنا ولا بد أن يكون اخبرك بكل الامر .

فأطرقت الخادمة برأسها الى الارض وقد ايقنت أن اقوالها ستكون السبب في حدوث نكبة ولكنها لم تعد تستطيع الكتمان بعد اندفاعها فقالت له : أن رسائل سيدتي تذهب الى برست المجاورة لقصر الغرام وسيدتي مقيمة في هذا القصر .

قال : حسناً فان القطار يسافر بعد ساعة ولا يزال الوقت متسعاً فاعلمي الآن انك أنت وحدك التي رأيتني واني مسافر فاعتمدي على وعدي بل خذي .

وقد اعطاها حوالة بقيمة عشرة آلاف فرنك وقال لها :

احذري أن تذكري كلمة واحدة لاحد .

ثم التف بردائه العسكري ونظر نظرة قنوط إلى صورة امرأته وانصرف .

●

الم يتضح لك من الاختبار ومن درس هذا الحيوان الناطق الذي يدعونه بالانسان أن الانسان مطبوع على الشر وأن أهل السلامة والخير يكونون من قبيل الندور فان هذه الخادمة قد لمحت عن سر الزوجة تلميحاً يغني عن التصريح ولولا خوفها من بوادر غضبه لهتكت سترها وباحت له بكل ما تعلمه من سرها غير انها اكتفت بما اشارت اليه اذ كان به كل الكفاية وتركته وقد خرج خروج المجانين فهزت كتفيها وهي تقول :

ليفعل بها ما يشاء فقد قبضت المال .

غير أنها كانت صادقة حين قالت له انها تجهل اسم العشيق اذ لم يكن في القصر من يعرفه ولكنها كانت واثقة من ان الكونتس قد سافرت لاخفاء زلتها .

وكانت صادقة في هذا الظن ايضاً فان الكونتس لم تذهب إلى قصر الغرام الا لهذا الغرض ولم تصحب معها غير خادمتها لانها هي وحدها التي كانت واقفة على حقيقة سرها فعزمت على أن تقيم هناك بعيدة عن الناس إلى أن تلد وتعهد بالمولود إلى من يربيه ثم تعود إلى باريس .

وقد سألت في الوزارة البحرية عن ميعاد عودة زوجها فقيل لها انه لا يعود قبل شهر وهذا الوقت يكفيها فسافرت إلى مورجابت وهناك وضعت طفلة فلم يساعدها في ولادتها غير خادمتها ثم عهدت الخادمة بالطفلة إلى مرضع في قرية مجاورة واقامت الكونتس تنتظر انتهاء مدة النفاس كي تعود .

ففي اليوم السابع من ولادتها وهو اليوم الثاني لقدوم زوجها ارسلت خادمتها إلى برست كي تأتيها بالرسائل واقامت وحدها في ذلك القصر المعتزل تنتظر بسلام عودة الخادمة .

وفيما هي على ذلك سمعت وقع خطوات في الردهة فقالت :

— اهذا أنت يا حنة ؟

فلم يجبها احد .

وبعد هنيهة قرع الباب قرعاً خفيفاً ثم فتح فصاحت الكونتس قائلة : اهذا انت ؟

وقد دخل شاب رشيق وعانقها فلم تدافع بل انبته قائلة : انك وعدتني أن تسافر فلم تفعل الم يكفيك ما اورثتني من العناء الملك تريد فضيحتي ؟

فكان جوابه على هذا التعنيف انه اخذ يدها وجعل يقبلها

وكان هذا الفتى في الخامسة والعشرين من عمره رشيق القوام رخيم المنطق براق العينين وقد كان لابساً ملابس العامة وهو في الحقيقة من الضباط وفي صدره علامة وسام الشرف وهو يدعى أودي دي فيلد .

اني اردت أن أراك مرة ايضاً قبل سفري مع فرقتي إلى بلاد السنغال وقد اتيت ليلة امس فطردتني .

— طردتك ؟

— نعم وقد وجبت علي طاعتك فامتثلت وبرحت القصر دون أن يراني احد وعولت على ان اطيعك الطاعة التامة غير اني لم استطع أن اسافر هذا السفر البعيد دون أن اودعك فمن يعلم متى نلتقي ؟

— كلا اننا لا نلتقي بعد الآن .

— اهكذا تريدين ؟ — بل هكذا يجب .

— سأكره نفسي على الامتثال ولكن ذلك لا يكون سهلا كما تتوهمين فاني حين افتكر انك زوجة هذا الرجل ..

فقاطعته قائلة : اني كنت ضعيفة حين تزوجته ولكن كنت اشد ضعفاً حين خنته .

— وانا طالما خطر لي ان اخاصمه تذرعا لمبارزته فاني لا

افتكر انك له حتى يغلي دمي في عروقي فقد عشنا عدة اعوام في منزل واحد وامي التي ربتك ورأيتك تنمين امام عيني نمو الزهرة وأنت اجمل أترابك فهمت بك كاتعلمين و كنا كلانا فقيرين فانخرطت في سلك الجندية على رجاء أن اتقدم فيها وأن اعدلك خير مستقبل فلما بلغت ما اردت بعد ان خاطرت بحياتي مائة مرة عزمت على الرجوع اليك والرجاء ملء قلبي فاذا بك قد تزوجت بل انهم باعوك بيعاً من رجل غنى .

– أودي ؟!

– نعم وقد حل اليأس في قلبي محل الرجاء وعولت على الانتحار ثم عدت إلى فرنسا فعلمت انك وحدك وكتبت اليك كي اراك وأي امر لا اقدم عليه في سبيل الحصول عليك .

– حتى النذالة ؟

– اتحسبين اني لم اكن صادقاً حـين انذرتك باني اقتل نفسي واقتلك ومن انبأك لا اقـدم غـداً على تنفيذ نصف هذا الوعد .

– جنون !

– كلا ما هو بجنون اتحسبين اني استطيع فراقك ولا سيا بعد ولادة هذه الطفلة التي وصلتنا بصلة لا تزول .

فوضعت يدها على كتف عشيقها وقالت اصغ الي يا أودي فأنا قد احببتك ايضاً كما احببتني ولكن حبي وحبك كانا مختلفين فاني ما احببتك غير حب اخاء وأنا مدينة لأمك بجميل التربية فلما توعدتني بالانتحار ذكرت امك واشفقت عليها فكان

ما كان وأنت تذكر لي الموت والانتحار على اني طالما اشتهيت الموت بعد أن دنست شرفي واقمت على صميم يشيب له الولدان وإذا كنت اريد الحياة الآن فلاجل هذه الطفلة التي احبها بملء جوارحي نعم اني ما نجوت من الفضيحة إلا باعجوبة وقد اسأت الي اساءة لا تغتفر فلماذا تريد أن تسيء الي ايضاً ! اذهب إلى حيث تدعوك واجبات الوطن ونل بحسامك ما يجب ان تناله من المجد اما انا فدعني اعيش لهذا الرجل الذي خنته وهو من المحسنين الي وكفاني عذاباً اني سأعيش بقية عمري بالكذب وتقريع الضمير وكل ذلك من اجلك . على اني لا احقد عليك يا وديع واحبك حب اخ ولكن بشرط ان يكون لك نفس شجاعتي فاذا قدر لي الله النجاة من هذا الخطر الذي يتهددني فكل ما اطلبه اليك ان ترجع عن رجائك العقيم فقد كفاني زلة واحدة في حياتي وسيكون آخر زلاتي باذن الله

– انك ان لم تحبينني لما كنت تقولين مثل هذه الاقوال .

– إذا كنت قد احببتك ساعة فقد قتل الهم هذا الحب ولم يبق لك في قلبي غير العطف وحب الاخاء . اما ان تتوعدني بالانتحار فليس هذا شجاعة بل هو كل الجبن و كفى ان تذكر ان لك بنتاً قد تحتاج اليك في مستقبل الحياة فاذهب يا أودي وانظر إلى مستقبلك الزاهر فاني سأكتب اليك بالسر عن بنتنا وآخر ما اسألك اياه هو ان تشفق علي وعلى نفسك وعلى بنتنا فمن يعلم ما خبأته لنا الايام .

ثم غطت وجهها بيدها وقد انهمرت الدموع من عينيها فمسح

الفتى دموعها بشفتيه وقال : لا شك انك ملاك بصورة انسان

– اتطيعني ؟ – نعم .

– اتقسم ؟ – اقسم بالشرف .

ثم ركع امامها وجعل ينظر اليها نظرة العاشق المفتون .

وفيما هما على ذلك دفعته الكونتس بعنف ووقفت تنظر إلى الباب نظرات ملؤها الذعر وقد فتح فجأة .

العاشق والزوج

عندما فتح الباب ظهر على عتبته الكونت مالونيان زوج تلك المنكودة ونظر نظرة مريبة إلى امرأته وعشيقها فابتسم ابتسامة احتقار وقال للفتى : اظنك تدعى أودي دي فيلد .

قال : هو ذاك .

– وقد رأيتك مرة في بلاد المكسيك وسافرت مرة في دارعتي .

– هذا اكيد ايضاً .

– ولكني لم اكن ارجو أن تكون هنا .

– اني رهين امرك ولكن إذا شئت اوضحت لك .

– اية فائدة من ان توضح لي امراً اعلمه ؟

ثم مشى إلى الباب فاقفله وعاد إلى امرأته فقال لها :

اذن لقد خنتني ؟

فاطرقت براسها إلى الارض إذ لم تطق تحمل نظراته

فقال لها :

– ما شأن هذا الرجل عندك في هذه الساعة ؟

– مالونيان ، لا تكثر الظنون فسأخبرك بكل امري .

– اية فائدة من قول اكاذيب لا يجدر بك قولها وماذا عساك تختلقين بل اية فائدة من الاعتراف بالجريمة وهي ماثلة كالنور بوجود هذا الفتى . نعم انى حين عدت إلى باريس ولم اجدك فيها علمت من احدى الخادمات اين انت وعرفت ما كان .

ثم التفت إلى أودي وقال له : تفضل يا سيدي بالجلوس فان امرنا سيطول فاني ساخبرك بحكاية هذه المرأة ثم اقص عليك حكايتي فاني حين علمت خيانتها قلت في نفسي عجباً كيف أن هذه الفتاة اليتيمة التي لقبتها باسمي تهبط من مقامها السامي إلى اسفل دركات الخيانة والهوان حتى اذا رايتك عرفت السبب فذكرت انك قريبها وانها ما رضيت بي زوجاً إلا بعد العناء .

نعم اني ذكرت ذلك ثم ذكرت انه ليس لي من الصفات ما يرضي النساء فـان اسرة فيتراي التي اورثتني هـذا القصر وأورثتني معه عنف الاخلاق وفوق ذلك فان التباين شديد بيني وبينك فإنك لدن الشباب غض الاهاب جميل الوجه حلو اللسان وما انا على شيء من هذا فاغتنمت فرصة غيابي واتيت اليها بحيث كان مرآك وحده كافياً للفوز وقد فزت :

فقال له أودي : انك مخطىء يا سيدي .

– وأنا يا سيدي يسرني أن تبين لي وجه خطأي .

– ذلك اني أتيت لها كما تقول ، وقد اخطأت بهذا المجيء غير أن بلانش ربيت وأياي فهي لاتحبني حب غرام كما توهمت اما انا ولا اكتمك امري فاني كنت هائماً بحبها وقد تلقيت خبر زواجها وأنا في المستعمرات فوقع عليَّ وقع الصاعقة . اني اكلمك بملء الجلاء وانا لا اعلم ما يكون بيننا الآن ولكني متأهب لكل امر فاني اقرأ سور الحقد في عينيك فاعلم ، اني عدت قبلك إلى فرنسا فكان أول ما خطر لي أن انتقم من هذا الرجل الذي سلبني خطيبتي وتزوجها وآليت على نفسي أن استرد هذه المرأة التي اسفك دمائي في سبيلها وارتكب كل الذنوب .

نعم وقد ارتكبت ذلك الذنب فكتبت اليها وهل يمكن أن تمتنع عن مقابلة رجل تعده بمثابة اخيها فجاءت إلى المكان الذي عينته لها وهناك توسلت اليها وانطرحت على قدميها وذكرت لها ما اعانيه من اليأس بعد زواجها ولكن كل ذلك كان عبثاً إلى أن توعدتها بالقتل والانتحار وبعدها علمت أني صادق بوعدي فاخذت هي عند ذلك تتوسل الي وتستحلفني بامي وشرفي وقالت لي كل ما يمكن أن تقوله امرأة شريفة لرجل قانط لا يريد أن يصغي إلا لصوت شهواته وبعد فانها رقيقة الشعور وقد اعتمدت بنذاله على حنو قلبها فاستسلمت وهي تؤثر الموت وكنت انا المذنب لا هي .

فابتسم الزوج وقال : لقد احسنت في اختلاق هذا الحديث

– بل اني لم اقل غير الحق .

– ليكن ما تقول وقد وعدتك بان اقص عليك امري فاسمع اني كنت غنياً وكنت فتى يحق لي أن أحب ايضاً كما احببت وقد لقيت في منزل احد الاصدقاء فتاة فقيرة قضى عليها شقاء الفقر أن تلجأ إلى هذا المنزل فراق لي جمالها وذكرت لها ذلك فسمعت اقوالي فرحة مسرورة وهي مطلقة اليد مثلي فقد كان بوسعها أن ترفض زواجي ولكنها رضيت بي زوجاً امام الله والشرع والناس فباتت لي . وانا في الزواج يا سيدي على مبدأ الشرقيين فلا احفل بعادات هذا التمدن الحديث ولا بشرائعنا الموضوعه فان امرأتي لي وانا الحاكم بامرها وسيكون لي ولها شان

اما الآن فلننظر في امرك فانك سرقت امرأتي وهي لي كما قلت لك فماذا يصنعون بسارق يدخل في ظلام الليل إلى المنزل أن بعضهم يدفعونه إلى القضاء وذلك خطأ فان الحاكم قد تخطيء وقد تصيب بل أنها تكيل بمكيالين وفوق ذلك فان محاكمة مثل هذا السارق تكون علنية وما بعد المحاكمة غير الفضيحة وانا لا أريد الافتضاح فلا استحسن هذه الطريقة . على أن بعضهم يقتلون مثل هذا اللص سارق الاعراض وهي خير الطرق وأفضلها إذ يدفن العار بدفنه ولذلك سأقتلك .

فرعبت بلانش وصاحت مالونيان ماذا تصنع ؟

ثم دنت منه تحاول امساك يده فرفعها عنه بعنف وقال ابعدي عني أو تحمليني على الاعتقاد بانه كان كاذباً حين قال انه لم يفز

عليك الا بحيلة دنيئة وأنا احب أن ابقى على هذا الاعتقاد إذ لا اكتمك اني لا ازال احبك ولا استطيع التخلص من هذا الحب الذي قيدتني به البلاهة إذن فاعلمي انه لا بد لي أن اموت أو اقتله

ثم التفت إلى أودي وقال : لقد قلت لك اني سأقتلك ولكني لست سفاكا فدافع عن نفسك .

فهز أودي رأسه وقال : كلا اني لا ادافع .

فاجابه بلهجة المحتقر قائلا :

– بل تدافع بملء الشدة بغية قتلي .

– كلا .

– لماذا لا تدافع ألعل ذلك لانك لا تزال في مقتبل الشباب والحياة طيبة لديك ام لأنك تأنف من قتل زوج في منزله بعد أن دنست زوجته فاذا كنت تعشقها على ما وصفت فقد وجب أن يكون صوت حبك ارفع من صوت شرفك على أن الحقيقة انك تريد أن تعيش لسبب ثالث .

– وما هو ؟ – هو ذلك المولود .

فارتعش أودي وتبدل اصفرار وجهه باحمرار وقال : المولود

– نعم ذلك المولود الذي سيحتاج اليك .

– يحتاج الي ؟

– دون شك اذ لا يخطر لك اني سأحن عليه حنو الاباء بل أني اتقي له الخيانة التي وصمت اسمي .

– ماذا تصنع به ؟

– ذلك سر لا يتجاوز صدري فلنقتتل في البدء وإذا كنت

تحبه فاسأل الله أن أكون انا المقتول بهذه المبارزة .

فوضع وديع رأسه بين يديه وقد تمثل له موقفه الخطير بافظع حالاته ثم التفت إلى الكونت وقال له : الا يكفيك ترضية أن اقتل نفسي ؟ قال : كلا

فجثت بلانش عند قدمي زوجها وقالت له بلهجة المتوسل مالونيان اني لا اسألك أن تعفو عني فاطردني ولنفترق وعاقبني بما تشاء ولكني استحلفك بالله أن لا تعرض حياتك للخطر وأن لا تسفك دماً وأن لا تهدد الطفل البريء احتقرني واقذف بي إلى هوة الشقاء التي نشلتني منها واصنع بي ما أنت صانع ولكن لا تفعل ما تقوله الآن .

ففتح الكونت باب الغرفة وقال لها : ان النساء لا دخل لهن بهذه الشؤون فادخلي إلى هذه الغرفة وسأعود اليك قريباً .

ثم دفعها بعنف إلى الغرفة وأقفل عليها الباب .

وكان أودي قد اسرع يريد المداخلة ولكن الكونت وثب عليه بعد أن اقفل الباب وقال له : إذا خطوت خطوة اقتلك.

فهاج أودي هياج المجانين وارتجفت شفتاه من الغضب فصاح به ما هي شروطك ؟

فاراه الكونت مسدسا كان بيده واخرج مسدسا آخر كان في جيبه وقال له : خذ هذا المسدس فان فيه خمس رصاصات كمسدسي وقف في آخر الغرفة أما انا فابقى في موقفي .

– وبعد ذلك ؟

– تشير الي حين تغدو متأهباً للقتال فيمشي كل منا إلى

خصمه كما يريد ويطلق مسدسه حين يريد إلى أن يقتل أو يموت افهمت ؟

– نعم :

– وبعد هنيهة ينتقل واحد منا إلى الدار الاخرى ومـا زال الله عادلا فانت الذي ستموت .

فلم يجبه أودي وفحص مسدسه فحصاً دقيقاً ثم تراجع إلى آخر الغرفة وقد تحمس لصياح الكونتس من الداخل وقال له : لتبدأ

لم تكن هذه الحادثة التي جرت للكونت غريبة في بابها بين رجال البحار اذ كانت هذه الفضائح تحدث كل يوم فان الجندي أو الضابط يسافر بأمر حكومته في دارعة فيغيب عن زوجته عامين أو ثلاثة بحيث يخلو لها الجو وتمل الوحدة ويرود الغازون حولها فيدفعها الضعف الانساني إلى السقوط في احد الفخاخ المنصوبة لها .

غير أن الكونت لم يكن من اولئك الازواج الذين يصبرون على الذل وقد كبرت عليه تلك الخيانة فأيقن أنه لا يشفي فؤاده غير الانتقام الشديد .

فلما قال ودبع لتبدأ أودي الرصاص فارتجت له جوانب الغرفة ولم يكن في هذه الغرفة المتسعة غير شمعتين كان نورهما يضطرب كأنه يرتجف من هول هذا المشهد الفظيع وكانت الامواج تصدم الصخور في الخارج فيصل صوتها إلى الغرفة شبه الانين .

وكان الاثنان في اشد حالات الهياج وقد بدأ أودي باطلاق الرصاص وخيل له انه اصاب خصمه ولكن الكونت وثب وثبة

النمر ومال عن الرصاص إلى موقف آخر فاطلق عليه الرصاصة الثانية والثالثة فوثب الكونت ايضاً إلى وراء السرير ولم يكن اطلق عليه مسدسه بعد .

ثم ظهر رأسه من جانب السرير فاطلق أودي الرصاصة الرابعة وكانت الاخيرة ولكن الكونت انقض عليه انقضاض الصاعقة دامي الجبين معرضاً لان يصاب برصاصة في صدره .

وقد ذعر أودي لهذه الوثبة الفجائية الهائلة وشعر أن الكونت قد ضرب يده ضربة عنيفة فسقط المسدس من يده إلى الارض وبات من غير سلاح .

وعند ذلك رفس الكونت المسدس برجله واشهر مسدسه على أودي وهو يقول بصوت اجش :

– لقد شككت لحظة بعدل الله فكنت من الكافرين وعرضت نفسي لرصاصك اربع مرات فكان ذلك كافياً لراحة ضميري فاعلم أن ساعتك قد دنت واني قاتلك .

قال : افعل — اليس لك وصية توصي بها ؟

– كلا — اليس لك ما تقوله للكونتس ؟

– نعم فاني اسألها الصفح عني .

– سأبلغها قولك اما ابنك فاعلم قبل أن تموت أنه سيعيش شقياً طريداً سأعذبه بقدر ما عذبتني .

– إذن أنت من الجناة — ذلك شأني مع الله .

– ولكنك قلت أن الله عادل ولكل ذنب عقاب اما انا فقد عوقبت لذنبي وستعاقب أنت .

– الم يراك احد في هذه الجهات – كلا .

– إذن لا يعلم احد مصيرك فانظر آخر نظرة إلى هذا البحر الذي تناديك امواجه فهو سيكون قبرك وستأكلك الاسماك .

فكتف وديع يديه وقال : اهذا كل ما تريد قوله .

قال : نعم ولم يبق غير أن يتكلم القضاء بصوت الرصاص .

فالتفت العاشق إلى الغرفة التي كانت بها الكونتس كأنه ينظر اليها نظره الوداع وأطلق الكونت عليه رصاصة واحدة اخترقت صدره وسقط يتخبط بدمائه وعندذلك دقت الساعة عشر دقات كانت تشبه اصوات الحزن وركع الكونت امام القتيل ففحص قلبه حتى إذا ايقن من موته اخذ ملاءة من السرير فلفه بها ثم حمله والقاه من النافذة إلى البحر وهو يقول :

– نم مستريحاً الآن إلى أن أوافيك في العالم الاخير فانتقم منك مرة ثانية .

وقد برقت عيناه بأشعة الحقد الهائل فان انتقامه لم يتم بعد وذهب إلى الغرفة التي حبس بها زوجته وفتح بابها فوجدها على الارض مغمياً عليها فعالجها بكل مايعرفه من الوسائل حتى استفاقت فلما فتحت عينيها نظرت اليه نظرة رعب وقالت : هل أنت جريح

وكانت الرصاصة التي اصابته في جبهته قد اكتسحت قسما من الجلد دون أن تمس العظم وجعلت بلانش تنظر اليه مرعوبة ثم عادت اليها الذاكرة فأخذت تجيل في الغرفة نظرات تدل على القلق والخوف فقال لها : أنك تبحثين عن عشيقك اليس كذلك

– عشيقي ! – باي اسم تريدين أن ادعوه .

– ماذا صنعت به .

– لك أن تضطربي عليه قدر ما تشائين .

– رباه لقد ذكرت الآن . انكما تبارزتما وقتلته .

– هو ذاك .

– كلا انك خدعتني لتجربني . اتقتل ابن عمي هنا في منزلك كلا أن هذا محال . – بل هي الحقيقة .

– إذن أنت مجرد من الاشفاق ويح لنفسي . ألم يرق قلبك لدموعي .

– أتحسبين أن دموع المرأة تغسل عاراً وصمت به زوجها إلى الابد كلا فما أنا من هؤلاء الازواج وأن ذرة من شرفي تعادل دموع نساء الارض .. انه مات قتيلاً وأشهد أنه مات موت البواسل ولكني فرغت منه الآن ولم افرغ من مهمتي بعد فهل أنت وحدك هنا .

– نعم – اين وصيفتك .

– في برست – هل تعود الليلة .

– نعم فاني انتظرها .

– حسناً فلننته الان فان الوقت ضيق .

– ماذا تريد بعد .

– لقد مات الاب ولكن مولوده لا يزال فاين هو .

– مالونيان !

– اطمأني فلست سفاكاً ولااقتل إلا الذين يستطيعون الدفاع ولكني اريد أن اتولى شأنه واقسم بالله أني سأحاسبك عنه

فركعت امامه وقالت بصوت خافض .

– رباه لا اعلم إذا كنت في يقظة أم في حلم وإذا كنت ميتة أم في قيد الحياة ! ماذا تبغي من هذه المطالب اقتلني كما قتلته فاني اؤثر الموت على نزع ابنتي مني .

– أنك تلقبين باسمي واسمك الكونتس دي فيتراي اما ابنتك فلا تلقب باسمي .

– مالونيان اطردني من منزلك .. اطردني واياها .

فابتسم الكونت ابتسام قنوط وقال :

– اني تزوجتك زواج غرام واني لا ازال احبك ولا اطيق فراقك نعم أن الشرع يقضي علي بان اطردك ولكن لي شريعة خاصة وهي شريعة الحق والقوة فهل اسأت اليك بشيء قبل الآن

– كلا .

– ماذا كنت تريدين أن تصنعي بالطفلة ؟

– كنت اريد اخفاءها عنك وتربيتها بالسر .

– أنت تحبينها . – ايمكن أن تبغض الام ولدها

– إذن فاعلمي أن هذه الابنة وهي ابنة الحرام ستملأ فراغاً من قلبك لا يجب أن يحل فيه سواي وفوق ذلك فانها تذكرك بأبيها فلا يبقى لي شيء في ذلك القلب .

– رباه ما هذا العذاب .

– وأنها إذا كانت بعيدة عنك فانها تعيش واما إذا كانت معنا فأقسم بالله انها لايكون لها غير حظ ابيها ولا فائدة من الرجاء

– مالونيان أنك تسحق حياتي .

– وانت سحقت حياتي وشرفي معاً .

– انك لا تجرأ على تنفيذ وعيدك .

– اقسم بشرفي اني انفذه .

– ولكن ذلك فظيع هائل ؟

– ليس افظع من قتل عاشق في غرفة عشيقته .

– إذن لقد مات حقاً كما تقول .

– ومتى كنت من الكاذبين .

ثم اخذ بيدها وجرها إلى النافذة واراها الملاءة التي لف بها جثة الضابط وقال لها ، انظري فهذا الذي جنته يداك لا يداي وأقسم بالله انك إذ لم تعطني ابنتك قبل ساعة بحثت عنها وقذفتها من النافذة فيبتلع البحر جثتين وتكونين قد ارتكبت جنايتين

فحاولت المنكودة أن تدافع ولكنها قد شعرت أن قواها قد وهنت وأن الحمى تكاد تحرقها فنظرت اليه بحدقة وقالت له :

– وبعد ذلك . – وماذا تعنين .

– اعني أن قضاء الشرع الذي قد يعذرك لقتل خليل امرأتك لا يصفح عنك قتلك طفلة بريئة لا حق لك عليها في شيء فانك تستطيع قتل امرأتك كما قتلت عشيقها ولكن لا يحق لك قتل ابنتها

فقال لها الكونت : انك مخطئة لتوهمك أن الشرع يتداخل في شأني لسبب وجيه وهو أن من اصيب بنكبتي لا يبالي بالحياة فقد كنت شديداً شجاعاً غنياً محباً شريفاً ولكنك نقضت بناء هيكل فاصبحت ضعيفاً خائراً قانطاً لاشرف لي ولا حب فمتى استوقيت

انتقامي عاقبت نفسي بما عاقبت به سواي واصبحت جثة خامدة بحيث تبقين وحيدة لا اليف لك غير الهم والنكد وتقريع الضمير وكل ذلك بما جنته يداك أعلمت الآن كيف أن الشرع لا يعاقب الاموات .

– واأسفاه . – إذن قولي اين هي الطفلة .

– الا سبيل إلى الرحمة – اجيبي اين هي الطفلة .

– اتعدني انها تبقى في قيد الحياة – اعدك .

– اتعدني ايضاً بأني استطيع أن اراها – ربما .

فعضت يدها من اليأس وهي لا تعلم ما تعمل ولا تجسر أن تنظر إلى القاضي الهائل الذي ذهبت الرحمة من قلبه وقد وقف امامها وعيناه تتوهجان بنار الغضب فقال :

أسرعي بالقول إذا كنت تريدين الحياة لها .

فقالت له بصوت خافض . لنعد الآن إلى غرفتي فان هذه الجثة اطارت صوابي وسأخبرك هناك بكل شيء .

وقد اصفر وجهها وتراخت مفاصلها ولم تعد تستطيع الوقوف فحملها إلى سريرها في الغرفة الثانية وهناك ادنى اذنه من فمها لخفوت صوتها فسمعها تقول :

انها عند جيلداس في بنهر ولكنك ستكون شفوقاً وسأراها

– لقد قلت لك ربما وفي كل حال فانها ستعيش .

وقد قال هذه الكلمات بمنتهى الغضب بحيث انحلت عزائم المسكينة واغمى عليها وقد صبغ وجهها بصفره الاموات .

فتردد الكونت هنيهة وفحصها فحص الخائف الوجل وقد

عادت اليه امانيه بتلك المرأة التي طالما عبدها ووقف ينظر إلى عينيها وقد اغرورقتا بالدموع فانبه ضميره لفظاعته ولكن الكبرياء لم تلبث أن تغلبت على ضعفه فاطفأت نور الشفقة الذي اضاء في قلبه .

وعند ذلك القى عليها غطاء يقيها البرد وأقفل نوافذ الغرفة ثم عاد اليها فوقف هنيهة يتأمل وجهها الجميل وأمسك بيدها التي طالما وضعها بين يديه بحنو لا يوصف فانحنى عليها فقبلها وهو يقول : الوداع الوداع .

وقد خرج من الغرفة وانصرف فحمل جثة أودي من الشاطىء إلى قارب وأوغل بها في البحر ودفنها بين الأمواج بعد أن صلى عليها ثم ذهب تواً إلى منزل ذلك الرجل الذي أرشدته امرأته إليه .

في الليل

كان الرجل والمرأة اللذان ائتمنتهما الكونتس على الطفلة من المزارعين في تلك الجهات الذين يشتغلون في مزارع الكونت .

فلما وصل الكونت إليه لم يكن فيه غير المرأة فأسرعت إلى استقبال سيدها وهي معجبة لقدومه وقالت له : أهذا أنت يا مولاي فما قدومك في هذه الساعة المتأخرة وما هذا الاضطراب .

ـ اجلسي يا فرنسوا واسمعي ما أقوله فقد عهدوا إليك بطفلة منذ بضعة أيام .

ـ ولكن . .

— لا سبيل إلى الكذب فقد عرفت كل شيء فمن جاءك بالطفلة .
— روجينا العجوز
— أمن صخرة مورجابت ؟ — نعم
— ماذا قالت لك ؟
— إن هـذه الطفلة ابنة خادمة القصر
— إنها كاذبة ويجب أن تعطيني الطفلة .
— لك — نعم — متى ؟
— الآن — ولكن ..
— لا سبيل إلى الاعتراض وأنت تعرفيني من عهد بعيد فهل أنا من أهل الشر !
— معاذ الله يا سيدي أن يخطر هذا الخاطر ببالي
— إذن هاتي الطفلة فقد حدثت أمور لا يجب أن تعرفيها .
— ماذا تريد أن تصنع بها ؟ — ذلك شأني
— ولكنها طفلة رضيعة يا مولاي
— ماذا يهمك ذلك ؟
— لكني أرى انه لا يجب عليّ ..
— يجب عليك أن تسرعي باحضارها .
وقد رأى على وجهها علائم التردد والخوف فقال لها :
— إن لك ولدين اليس كذلك
— نعم — وأنت فقيرة
— فقر كل فلاح يستنبت الأرض
— كم عينوا لك لتربية الطفلة

— خمسين فرنكاً في الشهر
فابتسم الكونت وقال لها: انها ثروة عظيمة لا اريد أن احرمك منها وسأعطيك ضعفها على مدة سنتين مرة واحدة أو ستين ليرا وقد اخرج من جيبه اوراقاً مالية بالقيمة وبسطها امامها فبرقت عيناها وقالت له :
— لو اعطاني سواك مال الارض لما استطاع اغوائي فقد وعدت أن احتفظ بالطفلة .
— ذلك يدل على انك واثقة بي .
— دون شك .
— هاتي الطفلة واطمأني فلا يلومك احد .
— اني لا اعلم ما تريد أن تصنع ولكني اشعر اني مخطئة فيما افعل على انه لا يسعني الا الامتثال فانك السيد الآمر .
ثم ذهبت وعادت اليه بالطفلة فقالت : عمرها ثمانية ايام ولكنها جميلة نشيطة ..
— ماذا تدعى — جانيت .
— هذا كل اسمها — لم يذكروا لي غيره .
— حسناً فلفيها برداء — أتريد أن تأخذها الآن.
— نعم .
— كنت أود أن يكون زوجي هنا .
— اسرعي فان الوقت ضيق لا سبيل إلى الانتظار .
فجاءت بوشاح فلفتها به برفق كي لا تستفيق ثم اعطته اياها وهي تقول: اني احبها كما احب أولادي واخاف أن لا تستطيع

العناية بها في الطريق فما حمل الاولاد من شؤون الرجال .

قال : لا تجزعي .

وقد اخذمنها الطفلة وسار بها إلى رجل من صنائعه يدعى باني وله امرأة تدعى بيرين فعهد اليهما بالطفلة وخلا بها خلوة طويلة لا ندري ما دار فيها من الحديث وفي الصباح عاد إلى باريس وهناك ذهب تواً إلى شارع كومبون فقرع باب قصر جميل فسأل البواب قائلا : —هل المسيو نورمان هنا ؟

قال نعم .

فصعد الكونت ودخل احدى القاعات وسأل خادماً أن يخبر سيده بقدومه .

اعترافات

كان المسيو نورمان هذا صديقاً مخلصاً للكونت وهو من اشهر رجال القضاء يشغل اهم منصب في النيابة .

وهو يدعى جان موريس كولباي وله ثروة عظيمة ورثها عن ابيه وقد تضاعفت باضافة ثروة امرأته اليها وهي من اسرة شريفة تدعى اسرة سانت كلير .

فلما علم بقدوم الكونت لزيارته اسرع اليه ولكنه ما ان رآه حتى اضطرب وقال :

— ما هذا الاصفرار وما هذا الجرح في جبهتك الملك تبارزت ؟ — نعم .

— ولكن لم يسمع احد خبر هذه المبارزة ؟

— انها كانت سرية فهل لا تزال في منصبك في رئاسة النيابة

— نعم فهل انت محتاج الي ؟

— هو ذاك لاني لست محتاجاً إلى جان موريس الصديق القديم بل المسيو نورمان صاحب النفوذ .

— العلك تخشى امراً ؟ — ربما

— ما الذي تخشاه ؟ — الفضيحة .

— لقد شغلت بالي فماذا حدث اسرع باخباري !

فأخبره الكونت بكل ما حدث له وبخيانة امرأته وكيف أنه قتل أودي دي فيلد ودفنه بين الامواج إلى آخر ما عرفه القراء من تفاصيل تلك الفاجعة .

وكان نورمان يسمع حديثه بملء الاصفاء دون أن يقاطعه بكلمة حتى إذا فرغ من قصته سأله قائلا :

— اتظن انه لم يعلم احد بهذه النكبة ؟

— هذا الذي اظنه . — وكيف امرأتك ؟

— انها بين الموت والحياة . — ولكنهاستبوح بما جرى

- كلا وأنا الضمين .

— اذن فان قتل الضابط يسهل كتمان امره فانه في كل يوم يحدث اختفاء دون أن تبالي به الحكومة .

— وعلى ذلك فلا خوف من اشتهار الحادثة ؟

— كلا واني إذا تغافلت عنها فلا اكون مخلا بواجباتي فإن قتلك عشيق امرأتك وقد فاجأته عندها وذلك من حقك فلو

حاكتك الحاكم لحكمت ببراءتك اذن فالامران واحد ولا فائدة للمحاكم من افتضاحك .

— اشكرك ولكن ليس هذا كل ما اتيت لأجله .

— ماذا بقي ايضاً ؟

— لقد انتهت مهمة النائب وجاء دور الصديق .

— وأنا لا ازال ذلك الصديق فماذا بقي .

— امر الطفلة !..

— ارجو أن لا تكون القيتها ايضاً في البحر .

— كلا — إذن ماذا صنعت بها .

— انها ستعيش وارجو أن تبقى ولادتها مكتومة كموت ابيها فاني اختطفتها واودعتها عند امرأة تربيها — وامها .

— لا تعلم اين هي ولا تعلم مصيرها وهذا هو عقابها .

— ولكنه عقاب فظيع — ما هو افظع من جريمتها

— وسيكون عذابها شديداً — ان عذابي اشد .

— الا تزال تحبها — فوق حبي القديم .

— إذا كان ذلك فكيف تقتلها !

— ارجو أن لا تقتلها الاحزان .

— وإذا ماتت فكيف يرتاح ضميرك .

— أن شبابها ورجاءها بايجاد ابنتها يتغلبان على حزنها فهي ستعيش .

— لا اجسر أن أسديك نصيحة إلا إذا استشرتني .

— قل .

— أنك انتقمت الآن وقتلت المجرم فلو كنت في مكانك لفارقتها بالرضى أو بالحاكم — ذلك لا يكون .

— ولكنه شرعي معقول .

— اني إذا فارقتها تزوجت ولا اطيق أن اراها لسواي .

— إذا كنت تحبها هذا الحب فلا يجمل بك تعذيبها ويجب أن ترد ابنتها اليها .

— ولكنها تكون برهاناً للخيانة وتذكاراً دائماً لأبيها .

— اذن ربها بالسر وائذن لأمها أن تراها وتراقبها .

فهز الكونت رأسه وقال : كلا فقد قضي علي وعليها معاً وهي التي ارادت لي ولها هذا العذاب .

— انك مخطىء وستشعر بخطئك — ربما .

— ثم انك غني شريف كريم الاخلاق وستندم ندماً شديداً لقضائك على امرأتك وأن تكن مذنبة ولا سيما بقضائك على الطفلة وهي لا ذنب لها .

— اعرف ذلك حق العرفان ولكني لا يسرني الآن غير الانتقام .

— بئس هذا السرور فما عاقبته غير الهم والنكد وقد قصصت علي حكايتك فهل تريد أن اقص عليك حكاية توافق ما نحن فيه .

— كما تريد !

— اذن فاعلم انى عرفت مرة فتى من طلاب الحقوق صار محامياً حين بلغ من العمر سبعة وعشرين عاماً وكان جميلا غنياً

ذكياً كثير المطامح — ماذا يدعى .

— لا فائدة من ذكر اسمه فان العبرة بحكايته .

— اني مصغ اليك .

— كان لهذا الفتى خليلة فقيرة وهي معلمة في احدى المنازل عرفها شريفة طاهرة فاغواها وهامت بحبه ثلاثة اعوام دون تحفظ أو حذر إلى أن جاء يوم باتت فيه هذه الفتاة حجرة عثرة في سبيله فانه قد اعتزل المحاماة وانتظم في سلك الحكام وخطب فتاة من شهيرات الاغنياء .

وكانت خليلته قد اوشكت أن تصير اماً فتذرع إلى مخاصمتها بحجة الغيرة وهي حجة اختلقها للأنفصال فاعطاها عشرين الف فرنك وطردها طرد الخادمات .

فتحملت الفتاة تلك الاهانة بالصبر وكتبت إلى عشيقها كتاب وداع مؤثر وأخذت المال لحاجتها اليه في تربية مولودها ثم انصرفت فتزوج الرجل ولبث خمسة اعوام تشغله الحفلات والملاهي عن خليلته وولدها إلى أن تنبه فيه صوت الضمير ولم يعد ينام لندمه على ما فعل ولطرده تلك المرأة دون اشفاق .

وقد اشتد به الندم وتقريع الضمير حتى انه عول على الذهاب اليها وارضائها وضمانة مستقبل ولدها فادعى أنه يريد السفر لشؤون خاصة بمنصبه وسافر إلى بلد خليلته وهناك علم نبأ جمد له الدم في عروقه فقد علم أن خليلته ولدت مولوداً ذكراً دعته جان موريس باسم ابيه ولكنها ذكرت في سجل المواليد الرسمي انه مجهول الابوين ثم اغرقت نفسها في النهر الذي يمر قرب منزل

قريبة لها كانت لجأت اليها .

اما تلك القريبة فقد كانت عجوزاً وقد ماتت اسفاً عليها حين علمت بفراقها واختفى الولد فلم يعلم احد اين هو على كثرة البحث عنه .

فاعلم ايها الصديق ان هذا الرجل قد يكون صخري القلب وثروته تعد بالملايين وقد ينال كل ما يشتهيه في هذا الوجود من جاه وشرف ولكن يبقى في قلبه جرح لا تدمله الايام وولدها يمثل لعينيه في كل مخيل وهو يفكر في الام فيخال له انها تدعو عليه الله من اعماق المياه ويفتكر بالولد فيمتثل له شقياً منكوداً يتسول في الاسواق فيصبح اشد نكداً وشقاء منه .

فثق ايها الصديق بما قلته لك واعمل بنصحي فان الوقت لا يزال متسعاً لديك واحذر تقريع الضمير فان عذابه شديد .

فوقف الكونت وقال : لا يوجد شبه بين حكايتي وحكايتك فان الطفلة ليست بابنتي .

— انك حر فيما تفعل .

— اتكتم امر مقتل الضابط كما وعدتني ؟

— دون شك — اشكرك .

— على ماذا عزمت ؟

— على أن اسافر وأحتجب وذلك ميسور في مهنتنا فاستودعك الله .

— ولكنك لا تخطيء إذا عملت بنصحي فان الكونتس من اجل النساء — هذا لا ريب فيه .

– وانك لا تزال تحبها – حب هيام

– وستندم حين لا ينفعك الندم فاصفح عن ذلك خير لك وأقرب للتقوى .

– لقد باتت بيننا هوة عميقة فاستودعك .

ثم ودعه وانصرف .

وعند ذلك دخلت امرأة نورمان اليه وقالت له :

– من الذي كان عندك الآن .

قال : صديق حميم من قواد الدوارع .

– اهو مالونيان فيتراي – هو بعينه

– انه رجل سعيد غني محترم وهو يحمل وسام الشرف أليس كذلك . – هو ذاك .

– وامرأته مشهورة بجمالها فلا يعوزه من الهناء الانساني .

– لقد اصبت – وكذلك أنت فيما تظن .

– هذا لا ريب فيه .

– انما لا يزال ينقصك الوسام .

– اتتمنين أن اكون من اهل الأوسمة .

– دون شك فان ذلك مما تفتخر به الزوجات .

– سأناله قريباً .

– اتعلم ما اتمناه ايضاً حين افكر بالمستقبل – ماذا

– اتمنى أن ترقى إلى منصب وزير العدل .

– انك شديدة الطمع .

– أو تكون نائبا عموميا على الاقل .

– هذا من الممكنات – وسيكون صديقك اميرالا

– ان نبؤتك قد تصدق .

فنظرت اليه بحدقة وقالت له : – لا شك عندي انك ستغدو تام السعادة مثل صديقك دي فيتراي فابتسم ابتسامة تهكم وقال : نعم سأكون مثله .

وقد كانت تقول الحق فان الاثنين كانا من اسعد الناس في عيون مواطنيهم غير أن الظواهر تخدع في اكثر الاوقات فيكون شأنها شأن الثمرة تغر بجمالها العيون وفي داخلها ينقل الدود وعندما قال موريس نورمان هذا القول قطب حاجبيه وافتكر بتلك المرأة التي انتحرت غرقاً في سبيله وبولده الشريد الذي بات قانطاً من لقائه فإن تلك الحكاية التي قصها على صديقه الكونت لم تكن غير حكايته التي جرت له في عهد شبابه قبل الزواج .

العدو والفقير

كان موريس نورمان قد ندم الندم الشديد وبات كثير الاسف لتقريع ضميره ولإشفاقه على خليلته وعلى ولده الذي لم يعرف له مقراً .

ولم تكن هذه الفعلة المنكرة كل ما دفعه إليه نزق الشباب فقد اتفقت له حادثة أيضاً مع ابن مزارع عنده ولدت الحقد عليه في قلب هذا الفتى وهو لا يفطن له لاحتقاره امره فكان مثله معه كمثل البعوضة والأسد .

ولا بد لنا من الالماح إلى هذه الحادثة لشدة علاقتها بحوادث الرواية القادمة ولان ذلك الحقد دعا إلى امور هائلة لا تخطر في بال .

والحكاية انه كان لموريس نورمان مزرعة كبيرة ورثها عن ابيه وورثها ابوه عن جده !

وكانت عائلة تدعى لاروش قد استأجرت هذه المزرعة بعشرة آلاف فرنك في العام وقد تعاقب اعضاء تلك العائلة على استئجارها منذ خمسين عاماً وهم يستغلونها ويدفعون اجورها وينفقون مما يكسبون منها عن سعة . والعادة عند المزارعين أن من يعمل في ارض مثل هذا العهد الطويل ينتهي امره بشراء الارض مما تكتسبه غير أن تلك العائلة لم تكن من اهل الاقتصاد وزاد في شقائها آخر من تولاها كان مقامراً سكيراً فأهمل تلك الارض الطيبة واستحال امره من الربح إلى الخسارة وعجز عن دفع الايجار وذلك في عهد موريس نورمان وكثرت ديونه بحيث اضطر موريس إلى حجز مواشيه وبيع كل مقتنياته لاستيفاء دينه فأصيب بالخراب التام ..

وكان لهذا المزارع ولد يدعى بيير لاروش يتلقى دروسه في احدى كليات باريس فلم يعلم شيئاً مما اصيب به ابوه إلى أن عاد إلى البيت في الاجازة المدرسية فوجده خاوياً خالياً ووجد المزرعة كأنما قد التهمتها النار فكبرت عليه هذه النكبة وكاد يصاب باليأس إلى أن خطر له خاطر أوصله اليه كرم اخلاق الصبا ومروءة الشباب فقال في نفسه .

لا شك أن المسيو موريس نورمان صاحب المزرعة لم يعلم بما اصابنا من الخراب إذ يستحيل أن يقدم على خراب اسرة تخدم اسرته منذ خمسين عاماً ولا مرتزق لها إلا من هذه المزرعة وانما فعل هذه الفعلة المنكرة احد عماله ثم انه في مقتبل الشباب وثروته تعد بالملايين وهذه الفظاعة لا تكون عادة في قلوب اهل الصبا فلا بد لي من مقابلته وهو سيتلافى امرنا من غير بد ولم يكن له ولا لابيه ما يعينه على نفقات السفر إلى باريس فلقي احد رفاقه واستدان منه خمسين فرنكاً وذهب تواً إلى العاصمة

وهناك جعل يذهب في كل يوم إلى منزل موريس ويلتمس مقابلته فيجيب الخادم تارة انه لا يستطيع قبول الزيارات وتارة انه مشغول ومرة انه لا يحب مقابلته واخرى انه ليس بالمنزل ، كل ذلك وهو ينفق من الخمسين فرنكاً إلى أن لم يبق معه غير فرنكين فجاء واليأس ملء قلبه وطلب مقابلة موريس بالحاح فاذن له بعد الجهد العنيف .

وقد اسقط في يده حين رآه إذ قابله بملء العظمة والاستكبار ونظر اليه نظرة ازدراء دون ان يتكلم ثم عاد إلى اتمام رسالة كان يكتبها .

فصبر الفتى إلى أن يتم رسالته فأتمها وبدأ بسواها وهو غافل عنه كأنه غير موجود !

فعظم ذلك على بيير ولكنه كان لا يزال يرجو الخير منه ولم يجد بداً من مكاشفته بأمره فبدأ الحديث وقال بصوت مختنق :

لا شك أن سيدي لم يعلم بما جرى لنا .

فابقى موريس القلم بيده وقال له : متى ؟

– في هذه الايام الأخيرة .

– اين ؟ – في المزرعة .

– نعم تلك المزرعة التي لا تورثني غير التعب فان من يشتري ارضاً في الريف يخطىء اشد الخطأ لأن المزارعون لا يفون الأجور .

– ولكن عائلتي لم تتأخر عن السداد خمسين عاماً .

– ولكنها تأخرت هذا العام .

– لم يكن ذلك إلا لقحل الموسم .

– بل كان لاسراف ابيك فلماذا يعلمك في كلية باريس إلا يوجد في القرى مدارس لأمثالكم .

وقد قال هذا القول يتهكم وعظمة يصعب وصفها ثم عاد إلى الكتابة فشعر بيير كأنه قد طعن بخنجر ولكنه ذكر شقاء امه ويأس ابيه فتغلب على عواطفه وجعل يبسط لذلك الفتى المتعجرف حالة عائلته وانتظام سيرها مدة نصف قرن وانها إذا تأخرت عن سداد قسط مرة فلم يكن تأخرها من قبيل الطمع بل بسبب القحل وأن صاحب الارض يجب أن يكون مع المزارع متضامنين وأن الناس للناس إلى غير ذلك الأقوال .

فكان موريس ينظر اليه من حين إلى حين نظرات المتجبر المستكبر إلى أن قاطعه فجعل يدحض براهينه بقوله .

أنه لا يعرف غير القوانين وأن المدين لا بد له من سداد الدين وأنه لا يجب المماطلة والتسويف إلى أن يئس بيير منه وحاول

أن يبذل آخر جهد فاخذ يده اخذ الملتمس .

ولكن موريس جذب يده مسرعاً كأنه قد وصم بوصمة عار لملامسته يد ذلك الفقير !

فصبر بيير ايضاً على هذه الاهانة وقال له : اني اقف حياتي واعمل الليل والنهار لسداد دين ابي .

فهز موريس رأسه وقال : ليس هذا بضمان .

– ولكن ابي قد بات شيخاً عجوزاً :

– كان يجب أن يعد معداته للشيخوخة .

– وسيقتل الحزن امي .

– يسوءني موتها ولكن ذلك ليس ذنبي .

– انك جعلتنا من غير مأوى .

– ابحثوا عن مأوى فذلك شأنكم .

– سيدي أن من يقسو هذه القسوة يجب أن يحذر .

– اتتوعدني ؟

– كلا ولكني أراك لا ترحم – ذلك من حقي :

– ربما ولكن للانسانية حق لا يجب أن يضيع .

– وللقانون ايضاً حق وانا لا اعرف سواه .

– اتريد أن اتوسل اليك جاثياً على ركبتي ؟

– أنك تضيع وقتك وهو لا قيمة له عندك اما وقتي فثمين

وكفى غير أن بيير لبث واقفاً في مكانه وقد توجهت عيناه بنار الغضب وخطر له أن يهجم على هذا الغني العاتي فيخنقه ويطهر الارض من وجوده ولكن موريس ادرك قصده فنادى لفوره

احـــد خدمه وقال : اخرج هذا الفتى من هنا .

فحرق اسنانه لهذه الأهانة الأخيرة وقال لموريس بصوت يتهدج انظر الي جيداً كي لا تنسى رسمي واحفظ اسمي بل انقشه على صفحات قلبك كي لا تنساه . انني ادعى بيير لاروش وانك غني قادر وانا لا املك درهمـــا غير اننا سنلتقي

ثم خرج مع الخادم والشر يتطاير من عينيه فلما وصل إلى الباب التفت ايضاً إلى موريس وقال له :

– نعم اقسم بالله سنلتقي .

فانتهر موريس الخادم قائلا : اخرج هذا المجنون .

فجره الخادم جراً وهو لايعي لشدة ما اصابه من الاضطراب فلم ينتبه إلا لصوت باب المنزل يقفل في اثره وجلس هناك على حجر وهو ضائع الرشد وقد اصفر وجهه حتى بات كالاموات ولم يفطن لنفسه الا حين مر به البوليس ودنا منه فسأله قائلا :

– هل انت مريض يا بني ؟

فتنبه بيير واسرع إلى الوقوف فقال :

– كلا ولكني اصبت بدوار خفيف وقد زال .

فذهب البوليس في شأنه وانصرف بيير وهو يتهدد ذلك المنزل بقبضته ويخال له أن نوافذه تهزأ بوعيده .

وقد عول المنكود أن يعود إلى اهله ولكنه لم يبق معه اجرة القطار فعاد ماشياً على قدميه ووصل بعد مسير يومين .

وكانت امه تنتظره وقد برح به الهم والحزن فلما اخبرها بما كان بينه وبين صاحب المزرعة قتلها اليأس فماتت لفورها وكان

آخر ما قالته : اصفح عنه يا بني .

وهي كلمة جميلة يشير الدين باتباعها ولكن حقد الفتى كان عظيمـاً جداً وكيف يصفح عن هذا الغني الذي اهانه وقتل امه والقى بعائلته إلى هاوية الدمار وهو لو شاء لاصلح حالهم باليسير من المروءة الميتة في قلوب بعض الاغنياء فنظر إلى امه وهي مسجاة على فراش الموت فقبل جبينها وقال :

– نامي بسلام أما أنا فلا انام نومتك قبل الانتقام .

نار من شرار

ولا بد لنا قبل العودة إلى الكونت مالونيان وزوجته أن نذكر شيئاً ايضاً عن بيير لاروش الذي سيكون له شأن خطير في هذه الرواية ..

لا جرم انه كان فقيراً ضعيفاً لا يستطيع أن يسيء بشيء إلى ذلك الغني القادر على انه على ضعفه لم يكن من الاعداء الذين يستهان بهم فقد كانت له ارادة لا تصدها قوة أي انه كان ماضي العزيمة شديد الحقد وكفى بالحقد قوة ولذلك كان بيير لدى موريس عدواً حقيراً صغيراً لا يأبه له الاقوياء .

وقد كان في الحقيقة عدواً خفياً صغيراً ولكنه كان هائلا كالمكروب يمتزج في الدماء ويقتل ولا يرى .

على أن بيير علم ان ساعة الانتقام لا تزال بعيدة ولم يكن له في تلك القرية غير ابيه ولم يبق لهما في المنزل ما يباع ويشرى

فلم يجد بداً من الرحيل فسار واياه يتجولان في القرى والناس فيها خير من اهل المدن الكبرى أي لا يزال للرحمة اثر في قلوبهم فكانا يعيشان بفضل اولئك الناس حتى انتهيا إلى قرية كان فيها مدرسة كبيرة فاشتغل بالتعلم فيها وجعل ينفق على نفسه وعلى ابيه من مكسبه القليل خمسة اعوام إلى إن ادركت اباه الوفاة فدفنه كما دفن امه وتمثل بقول الشاعر .

ذهب الذين احبهم   وبقيت مثل السيف فرد

وانما شبه نفسه السيف لأن الحقد كان لا يزال يغلي في قلبه ويجعله اشد مضاء منه فقد ولد ذلك الحقد في قلبه مبدأ لا يتمكن الا في نفوس كبار القانطين وهو كره الانسان بجملته حتى انه كان يود أن تكون رؤوس البشر رأساً واحداً فيقطع ذلك الرأس .

وكان بجوار المنزل الذي يقيم فيه امرأة عجوزغريبة جاءت إلى هذه القرية منذ خمسة اعوام فلم يعلم الناس شيئاً من امرها لشدة ميلها إلى الاعتزال والوحدة ويوجد معها غلام صغير تربيه بملء الاشفاق والحنو .

فاتصل بيير بها بحكم الجوار وبات يسامرها في كل ليلة ويحاول في كل حين أن يقف على حقيقة امرها وامر هذا الغلام فكانت تبالغ في الكتمان حتى انقطع عن سؤالها واعتمد على الصدفة في ادراك هذا السر ولكن الصداقة تمكنت بينهما لأن بيير كان يجد شيئاً من السلوى عما يعانيه في تعلم الاحداث .

وكانت هذه المرأة في الثمانين من العمر وقد أخنى عليها

الكبر فبينما كان بيير في المدرسة إذ جاءه رسول وقال له :

« اسرع بادراك العجوز الغريبة فهي على فراش الموت وتريد أن تراك »

فأسرع اليها ووجدها على آخر رمق غير أنها تنشطت حين رأته وقالت له : اجلس بجاني يا بني فاني أريد أن اخبرك بامري قبل أن اموت وحكايتي وجيزة فاعلم اني قروية كنت اقيم في قرية فاروم وكان لي فيها صديقة حميمة تقيم في جواري !

فبينما نحن في ليلة معاً إذ اقبلت صغيرتها عائدة من السفر ولكنها قانطة على صباها وجمالها من الحياة .

فقال لها بيير : من أين عادت ؟

قالت : من باريس تلك العاصمة العظيمة التي باتت ضريحاً تدفن فيه فضيلة بنات الريف وقد كانت معلمة في احد المنازل فلقيها لشقائها احد الشبان الاغنياء الذين كانوا يترددون إلى هذا المنزل فأحبها وأحبته وهو غير جدير بهذا الحب لأنه كان من اولئك الاغنياء الاسافل الذين يحسبون قلوب العذارى متاع يباع ويشترى .

— ماذا يدعى ؟

— سوف تعرف اسمه فلما أوشكت تلك المنكودة أن تصير اماً باتت حملا ثقيلا عليه وكان ينبغي أن يتزوج فطرد تلك المنكودة طرداً قبيحاً بعد أن اختلق الحجج الكاذبة وأعطاها شيئاً من المال فتركت باريس وعادت إلى جدتها فولدت عندها غلاماً وهو هذا الغلام الذي اربيه ثم انتحرت فأغرقت

نفسها في النهر بعد أن كتبت إلى ذلك الفتى السافل رسالة عندي صورتها .

وبعد ذلك ببضعة ايام ماتت جدتها اسفاً عليها بعد أن عهدت الي بالغلام واعطتني مالها ومال حفيدتها فجعلت اربيه ولكن ساعتي الاخيرة قد دنت كما ترى ولا بد لي أن اعهد به إلى سواي .

إن هذا الغلام عمره خمسة اعوام وهو يدعى جان موريس باسم ابيه وقد اردت أن اعتمد عليك لثقتي بك فان مجموع ما عندي من المال يبلغ اربعين الف فرنك وهو في هذا الصندوق وقد كتبت وصيتي وجعلتك قيما على المال والغلام كي لا ينازعك احد .

ماذا تريدين أن أصنع ؟

— اريد أن تربي الغلام ويكفيني وعدك .

— ولكنك لم تذكري لي اسم ابيه فماذا يدعى ؟

— نورمان — ما تقولين !

— جان موريس نورمان .

— اهو ذلك الفتى الشهير المقيم في شارع الكبوشين في باريس

— هو بعينه !

فاتقدت عينا بيير ببارق سرور فقالت له العجوز : ارضى ،

قال : نعم فهل يعلم الغلام اسم ابيه ؟ — كلا

— اين هي أوراقه وامواله والوصية ؟

— في هذا الصندوق وهذا مفتاحه .

وفي تلك الليلة توفت العجوز وفي اليوم التالي عاد بيير من المدفن إلى منزلها فأخذ بيد الصبي إلى منزله وهو يبتسم ابتسام الابالسة ويقول مخاطباً موريس نورمان عدوه الوحيد .

لقد ظفرت بك اخيراً وسنلتقي كما قلت لك .

ذلك انه كان قد وضع لنفسه خطة هائلة لا تبتكر قرائح الابالسة اشد منها هولا في سبيل الانتقام .

●

اما الكونت مالونيان فانه حين عاد إلى منزله في باريس كتب إلى امرأته كتاباً مسهباً قال لها في جملته :

« لا انكر أن عذابك سيكون شديداً بعد قتل عشيقك واختطاف ابنتك وعجزك من لقائها ولكنه عذاب تستحقينه فان زلتك اشد على اني سأتعذب مثل عذابك فاني لم اسلبك هذه الطفلة إلا لتكون سداً منيعاً بيني وبينك فلا يقتلني هواك وكل ما اردته في ذلك هو أن يتمكن الحقد علي من قلبك وأن تكرهيني اشد كره بحيث لو عدت اليك نادماً متوسلا لما نفعني توسل ولا قبلت لي شفاعة فقد قضي الامر وسوف تريني في القليل النادر ولكنك قد لا تريني وتبقين زوجتي في عيون الناس كي لا أدع لك سبيلا للتزوج .

« وهنا لا بد لي أن اقول أن جثة دي فيلد قد ابتلعتها الامواج وكتم امرها بحيث بقي شرفك مصونا امام الناس .

« وأما الطفلة فستربى تربية ابناء البحار عشرة اعوام ثم تدخل إلى احد الاديرة فتتعلم إلى أن تبلغ الثامنة عشرة وتصبح

قادرة على الارتزاق وبعد ذلك اخرجها من الدير الذي ادخلها اليه واخبرها انها فتاة لقيطة لا تستطيع الاعتماد إلا على نفسها في هذا الوجود واعلمي يقيناً انه يستحيل عليك أن تجهدي نفسك في ابحاث لا تفيدك وتفضح سرك المكتوم .

« وآخر ما اقوله انك لا تغيرين شيئاً من عاداتنا فتقيمين في اي قصر أردته من قصورنا وتنفقين كما تشائين من ثروتنا إلى أن يفرق بيننا الله لا الناس فانهم لا يستطيعون هذا التفريق »

فأجابته امرأته على كتابه بما يأتي :

« اني لو لم اكن في حالة تشبه الاحتضار لاسرعت اليك ورميت على قدميك نعم اني مجرمة اثيمة فاصنع بي ما أنت صانع .

فلا اشكو وقد انتقمت بالقتل وارحم تلك الطفلة فلا ذنب لها :

« نعم انك ستعود إلى رشدك ولا تعاقب تلك البريئة هذا العقاب الفظيع فانك ستشفق عليها لا محال وتشفق على نفسك إذا كنت تحبني كما تقول واصغ الي فانك اذا عفوت لا اكون امرأتك بل اكون خادمتك افعل كل ما يرضيك واحبك بملء جوارحي وامحو بخضوعي وحبي مدى العمر زلة ارتكبتها بساعة ضعف واني اقنع منك ان تعدني بالرفق بابنتي وأن تأذن لي أن اعتني بها سراً ولا يجدر بك رفض هذا الملتمس اذا اردت النجاة من عذاب الضمير .

« مالونيان أذكر القول الحكيم : « أن من أحب كثيراً

يغفر له الله كثيراً » .

« وقد احببتك كثيراً يا مالونيان فاغفر لي تلك الزلة واشفق عليَّ » .

فأجابها الكونت بما يأتي :

« لا فائدة من الالحاح فأنت تعرفين صدق عزيمتي وعزاؤك أن عذابي اشد من عذابك وسأتذرع بالكبرياء والصبر لاخفاء عذابي فاقتدي بي » .

وعند ورود هذا الكتاب إليها أرسلت إليه البرقية الآتية :

« بربك لا تسافر إني قادمة إلى باريس ولابد لي أن أراك » .

وبعد أن أرسلت التلغراف سافرت إلى باريس ووصلت إليها في اليوم التالي فلما دخلت إلى المنزل علمت أن الكونت قد سافر وترك لها رسالة تتضمن هذه السطور .

« انك لم تشفقي عليَّ فلم أشفق عليك وأن اليأس لا يقتل الناس ومتى قرأت كتابي هذا أكون بعدت كثيراً بحيث لا تستطيعين ادراكي ولا يعلم غير الله متى أعود ومتى نلتقي » .

الفصل الثاني

نسيج العنكبوت

مضى تسعة عشر عاماً على هذه الحوادث التي بسطناها في مقدمة هذه الرواية ففي اليوم الاخير من شهر أكتوبر سنة ١٨٨٨ رسا يخت جميل في ميناء الهافر كانت مرفوعة عليه راية نادي اليخوت الانكليزية الملكي وهو يدعى الباتروس وكان هذا اليخت قادماً من لندرا وهو من تلك اليخوت الخاصة التي يسافر عليها كبار الاغنياء وعظام الامراء .

فلما رسا خرج منه رجلان يتبعهما ستة من الخدم فساروا توا إلى القطار المسافر إلى باريس ورجع اليخت لفوره عائداً إلى لندرا .

وكان احد هذين الرجلين فتى في مقتبل الشباب رشيق القوام جميل الوجه لا يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر والآخر في سن الكهولة يكاد يبلغ الخمسين من العمر وقد شاب رأسه ولكنه لا يزال قوياً براق العينين وقد ابتسم ابتسام الظافر حين وطئت رجلاه ارض فرنسا كأنه سينال فيها ما

طالما تمناه من ثروة أو غرض خفي !

على أن من رأى بيير لاروش معلم الاحداث ذلك الفتى الذي كان يضمر في قلبه حقداً هائلاً على عدوه الوحيد موريس نورمان يجد شيئاً من الشبه بينه وبين هذا الكهل ويقول انه هو

ولكنه لا يلبث أن يرجع عن هذا الخاطر لأن الفرق كان بعيداً بين حالة ذلك الغلام المعدم الفقير وبين هذا الكهل الموسر الذي لا يسافر إلا على يخت خاص ولا يتدانى إلى الاختلاط بالناس في البواخر العمومية .

وقد جلس مع رفيقه الشاب في غرفة واحدة في القطار وأدركهما الليل وكان الكهل يفكر ويبتسم من حين إلى حين ابتسامة تدل على الخبث .

فقال له الشاب لما بينهما من الوداد ألا تنام ؟

فأجابه الكهل قائلاً : انك لا تعلم يا جان اني لا انام إلا باحدي عيني انها حكمة تلقيتها عن الذئب فقد قيل انه :

ينام باحدى مقلتيه ويتقي   بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

بل هو حذر تدعو اليه المهنة وإذا شئت فقل انه كره الحياة فقد سئمتها .

فتنهد الفتى وقال : أنا مثلك فقد سئمت الانتظار .

صبراً يا بني فما هو الا عام وتنال ما تبتغيه فهل لقيت في عشرتي ما يحملك على الشكوى مني .

— كلا .

— أوعدتك وعداً لم اكن فيه من الصادقين ؟

- هو ذاك . .
- أدفعتك إلى امر كان وخيم العاقبة ؟
- كلا فقد كنت آية الحكمة .
- اذن دعني ادبر اموري .
- ولكني اريد النهاية .
- لقد قلت لك صبراً إلى أن ينقضي عام أتحسب هذه المهلة طويلة .
- كلا ولكن ماذا يكون بعد العام ؟
- يكون عيش الرخاء المضمون .
- غير اني اخاف قبل انقضاء هذا الاجل أن تكون في السجون .
- لا تذكر هذه اللفظة السمجة يا بني ولا تكن من اهل الخوف .
- لست بخائف وسأقفو اثرك فاذا سقطنا سقطنا معا ولكني لا ازال نادما على عيشتي السابقة في شر بورغ .

فضحك الكهل ضحك الساخر وقال أتندم على فراق ذلك المحل الذي كنت مستخدماً فيه ؟

- نعم فانك عيلتني في خدمته وكنت فيه على أحسن حال
- كيف ذلك يا جان أتندم على راتب مائة فرنك في الشهر وعلى أن تكون ما حييت في سلك المستخدمين فلا تستطيع أن تقترض درهماً ومتى أدركتك الوفاة مت في احد المستشفيات الخيرية .

ثم ابتسم ابتسامة شيطانية ماكرة تخفي تحتها رغباته ومطامعه وقال : أين مطامعك يا جان أيرضى من كان له ذكاؤك مثل هذا المصير !

- لك أن تقول ما تشاء ولكني يمر بي ساعات اندم فيها على مبارحة شربورغ .
- ألخسارتك الراتب ؟ - كلا
- اذن ألفراق تلك الحسناء ؟ - هو ذاك !
- ألا تزال تفكر بها ؟
- بل هي تتمثل لي بكل مكان .
- انها هواجس صبيان .
- بل هو حب صادق فقد ربينا في حي واحد وفارقتها وهي كالزهرة النامية لم تتجاوز خمسة عشر ربيعاً فلا اعلم ما جرى لها بعد هذا الفراق .
- انك فارقتها منذ خمسة اعوام ومتى عدت إلى شربورغ تجد فيها تلك الزهرة .

فلم يجبه الفتى وأطرق مفكراً فقال له الكهل :

- بماذا تفكر ؟ - لا افكر بشيء .
- بل انك لا تزال تفكر في شربورغ ولكن اصغ الي فاني أفرغت الجهد وأنفقت كل ما كسبته على تعليمك بحيث تلقنت من العلوم ما لا يتلقنه بعض ابناء الامراء .
- لا انكر أن كل ذلك كان بفضلك .
- وانك من اهل المطامع فما خلقت لتقنع بالقليل .

– هو ذاك .

– واني ما اقمتك في ذلك المحل في شربورغ إلا مؤقتاً إذ كان في نيتي ان اسافر إلى لندرا وقد سافرت اليها وتعرفت اليها وتعرفت فيها بأشهر محل

– نعم انه محل شيرليت وشركاه .

– وقد بلغنا بفضل هذا المحل كل ما تتوق اليه ووصلنا إلى ما نحن فيه . – وبعد ذلك ؟

– وصلنا إلى باريس ولم يبق علينا الآن الا أن نخطو الخطوة الاخيرة ونصعد إلى قمة الفوز وهو فوز سهل نصبح بعده من كبار الاغنياء . – ولكنها اضغاث احلام .

– بل هي حقيقة واقعة ولا اسأل غير صبر عام وربما لا نحتاج إلى اكثر من نصف عام .

– ماذا يجب أن نصنع ؟ – ألك ثقة بي ؟

– ألملك رتاب بثقتي .

– كلا فقد وجدتك صغيراً لا أم لك ولا أهل وكانت تربيك امرأة عجوز فماتت وتوليت انا أمرك فربيتك كما يربي الأب ولده وكنت اشتغل وأنفق على تعليمك فتثقفت وعرفت اكثر اللغات الشائعة وربيت افضل تربية بحيث لم يعد يعوزك غير الثروة فانه لا مطمع لي في هذا الوجود الا أن اراك من اهل المال والجاه وستكون لأني اريد .

فهز الفتى رأسه وقال : هيهات فليس ذلك بالأمر اليسير

– كلا فقد يكون مطلباً صعباً لكنه غير مستحيل فقد وجدت طريقة لنيل الثروة لا خطر فيها .

– ولكن ماذا يجب أن اصنع .

– يجب أن تتوصل إلى ارضاء فتاة غنية جميلة لا خبرة لها في امور الدنيا ومكائد الرجال لأنها لا تتجاوز الثامنة عشر من عمرها ومتى احبتك كان علي الباقي فجملتك تفوز بها وبملايينها .

– اهي حكاية خيالية ترويها .

– بل اروي لك حقيقة راهنة لا بد أن تكون .

– كيف ذلك .

– لقد اتخذنا جميع الوسائل فما انت الآن جان موريس القيط ابن ذلك الظالم الوحشي الذى انكرك بل انك تدعى جان رودريكوس اليتيم الغني وأنت من اورليان الجديدة .

نعم انك اصبحت من اهل تلك البلاد النائية وقد هجرتها وجئت إلى باريس كي تقيم فيها بقية العمر وتجعلها موطنك الدائم اما ثروتك فهي من النقد والعقار اما النقد فلك في مصرف انكلترا اربعة ملايين فرنك ويمكن تحويلها إلى محل شيرليت وشركاه عند الاقتضاء واما العقار فان لك قصراً في شارع بازانو في باريس وقصراً آخر في الخلاء في شنساي قرب فرسايل وكثيراً من المنازل في اورليان الجديدة عهدت بيعها إلى محل شيرليت اعلمت الآن حقيقة ثروتك .

– نعم ولكن كيف اثبت نسبي الجديد .

– أن أوراقك على اتم الضبط والانتظام بحيث لو سئلت

عنك سفارة الولايات المتحدة لاجابت بما يثبت هذا النسب .

– ولكن الضمير لا يرتاح إلى هذه الأمور .

– اي ضمير هذا وأي رجل من أولئك الاغنياء اصحاب الملايين جمع امواله بالعمل . ابحث عن مصدر كل ثروة من تلك الثروات لا تجده الا من السرقة والنهب والخداع فما كانوا يرجعون عن قصدهم حتى يدركونه مهما كانت الوسائط وانما هذا المال حق الناس كلهم فمن أطاق التماسه اغتصاباً لا يلتمسه سؤالا أو يكون من الخاملين .

– ما هذه الاقوال التي اسمعها منك اليوم يا ابتي فإن من يأتمر بها يكون قد سار في طريق السجون .

– بل أن هذه المخاوف لا تجدر بأمثالك يا جان فانك لا تقدر نفسك حق قدرها كما يظهر ، انها معركة دائمة فمن صغر فيها واستسلم وتدانى عاش كل عمره عيش العسر والمسكنة . ومن اشتد وغالب وغلب عاش عيش السعة والرخاء فالفوز كل الفوز منوط بالقوة والتغلب على خصمك في هذا المعترك .

نعم يجب أن تكون أشد من رجال الشرطة الذين يطاردون الناس لاكما تجري كلاب الصيد في اثر الطرائد فاذا فزت بطريدة افلتت منها عشر بل يجب أن تكون ادهى من ذلك الغني الذي يجمع الدينار إلى الدينار فأخذها من ايدي الناس ولا يقيد بها الا نفسه .

واي كسب في الوجود لا خطر فيه وانما الاخطار تكون على قدر المكاسب والحاذق من تلافاها بالدهاء والحكمة وهذا

النسر فانه ينقض على الفريسة وهو في كل حين عرضة لسهم الصياد ولكنه إذا كان حديدي البصر قوي الجناحين عبث بالصياد وذهب بفريسته إلى قمة عالية لا تناله فيها السهام .

وهكذا نحن يا بني فاذا اردت السعادة في هذه الدنيا فقد وجب عليك أن تقتدي بهذا النسر .

ثم ضحك ضحكاً عصبياً شف عن حقد هائل كامن في صدره فقال له جان : اراك أصبحت جاد المزاج حين وطئت ارض فرنسا فبت تتدفق في الاقوال تدفق السيل ! ..

– ذلك اننا بدأنا المعركة ومتى اطلق المدفع الأول المؤذن بالقتال فلا بد للقلب أن يزيد خفوقاً .

– لا تخف فسأكون اطوع لك من بنانك .

– هذا كل ما اريده منك .

– ولكنك ذكرت لي قبل السفر انك قادم إلى باريس بمهمتين وقد ذكرت لي احداهما فما هي الثانية ؟

– هي مهمة خاصة باحد مشاهير تجار الجوهرات وستقف على تفاصيلها فيما بعد .

– كما تريد .

– وقد بقي علي أن اخبرك بأمر آخر وهواني لم اعد منذ الآن ذلك الموظف في شيرليت بل اني ادعى بتريوس ووظيفتي أني معلمك ومرشدك من الحداثة واني من كبار العلماء كما أنك تدعى جان رودريكوس فلاتنس ونم الآن مطمئناً .

وهنا انقطع الحديث بينهما ونام الاثنان في القطار وفي

الصباح وصلا إلى باريس فركبا مركبة وركب الخدم في مركبتين وساروا جميعهم إلى قصر شناي قرب فرسايل ..

وهناك وضع بيير يده على كتف جان وقال له :

– انك في قصرك الآن يا جان رودريكوس ولك قصر آخر في باريس ذلك عدا ما لك في بنك انكلترا من الملايين وهو حلم كما ترى ولكن الحقيقة منوطة بـك إذا عرفت أن تصبر عاماً .

قال : سأصبر .

– ولقد اخبرتك عن فتاة ستتزوجها وهي ذات الملايين فاذا اردت أن تعرف قصر ابيها فما لك الا أن تطل من هذه النافذة لأنه مقم في جوارك .

فأطل جان من النافذة ووقف صامتاً يتأمل في حديقة القصر الغناء وفيما هو على ذلك مرت فتاة كانت تتنزه في تلك الحديقة فقال له بيير : هذه هي فانظر اليها .

قال : الحق أنها بارعة الجمال .

– وهي ايضاً وافرة المال . – ماذا تدعى ؟

– لا بأس من أن تعرف اسمها الآن فهي ماري ابنة موريس نورمان .

الفصل الثالث

الكونتس الصديقة

مضى شهر على ذلـك تم في خلاله التعارف بين جان رودريكوس المتنكر وبين موريس نورمان وتبودلت الزيارات وراق في عيون اعضاء تلك الاسرة فكان يكثر التردد عليها لما بينهما من رابطة الجوار التي ادت إلى رابطة الوداد .

وكانت ماري في الثامنة عشر من عمرها وهي شقراء دعجاء العينين قامتها فوق الربع ممتلئة الجسم .

وهي على جمالها طاهرة القلب حسنة الثقة مالله والناس لها ابن عم يبلغ الخامسة والعشرين من العمر حسن الاهاب مليح الشباب يدعى فرنند ويحترف صناعة المحاماة .

وكان يحب ابنة عمه حباً شديداً ولكنه كان فقيراً لا شيء من التناسب بينه وبينها فلم يكن يجسر على مكاشفتها بحبه .

غير أن نظرات المحبين لا تخفى ولكـــن ماري كانت تعد حبه حب قرابة فلا تتجاوز بحبه هذا الحد .

وكانت امها تميل إلى تزويجها به خلافاً لأبيها وذلك لشدة

شغفه بالمال .

وقد رأى فرنند ما كان باحتفاء موريس بهذا الفتى الاميركي الغني ورأى أن ابنة عمه باتت تميل اليه للطفة ورقة حديثه فكبر عليه وخشي أن يحل من قلبها كما حل قلب ابيها .

فكاشف امها بحبه وكانت اعظم نصير له برغبتها فيه .

ففي ليلة كان جان رودريكوس وسواه مدعوين في منزل نورمان وقد بالغ في الاحتفاء برودريكوس مبالغته بقلة الاكتراث بفرنند فخلت به امرأته في قاعته وقالت له :

— اراك مغضباً على فـرنند فاني لا اراك تكترث له أقل اكتراث .

قال : كلا فانك واهمة .

— لست واهمة فان ذلك ظاهر منك في حين أن هذا الفتى طاهر القلب شديد الاخلاص مستقيم السيرة .

— هو ذاك فقد جمع كل الصفات الحسنة ولكن .

— ولكن ماذا ؟

— انك تفهمين مرادي — لم افهم شيئاً .

— إذا كان لا بد من التصريح فاعلمي أني فهمت قصدك وانه لا يكون زوجاً لابنتي ..

— انك مخطيء في ذلك يا موريس فهو خير كفء لها .

— لا ارى رأيك لسوء الحظ .

— انه من رجال المستقبل .

— قد يكون ما تقولين

— وانه يحب ماري حباً صادقاً وستكون معه من أسعد النساء .

— إذا كان ذلك فسوف أضطر إلى منعها عن المقابلة

— كلا فلا يمكنك أن تقصي عن منزلك قريباً بحجة أن لك بنتاً بلغت عهد الزواج وتخشى أن يروق في عينيها وفوق ذلك فلا يحق لنا الاهتمام بامر قد لا يكون خطر له في بال .

— أن من يبلغ مهرها مليونين تخطر في كل بال .

— بل ثلاثة فقد عين لها جدها مليوناً ايضاً .

— احق ما تقولين ؟

— نعم فقد اخبرني بذلك منذ ساعة .

— بورك فيه .

— ألا ترى إذن أن من كان مهرها ثلاثة ملايين يجدر أن تختار هي زوجها .

— كلا فلا اريد أن يكون زوجها ابن عمها .

— مسكين فرنند !

— ورجائي أن لا تخابريني بشأنه بعد الآن ؟

— إذا كان هذا امرك فلا سبيل إلى نقضه .

— انا لست آمرك امراً بل ارجوك رجاء فقد علمتني التجارب أن السعادة والشقاء مقدران للمرء في الزواج وليس للثروة والمهر يد في هناء الزوجين ودليل ذلك أنا وانت فقد كنت غنياً حين تزوجتك وانت ايضاً فهل نحن سعيدان بهاتين الثروتين

فابتسمت ابتسامة حزن وقالت :

- اي غرض لي من هذا الاقتراح الا سعادة أبنتي وهي بنتك ايضاً فليكن ما تريد .

وعند ذلك تركته وذهبت لاستقبال سيدة عجوز دخلت إلى القاعة في تلك اللحظة وهي المركيزة جانيت ابان .

فلما استقرت في مقامها نظرت إلى موريس وقالت له :

- لدي خبر هام انبئك به يا مسيو نورمان .

قال : خبر هام ! — بل خبران .

- لنبدأ بأولها .

- أوردك شيء من اخبار صديقك الكونت مالونيان دي فيتاراي — كلا ؟

- الم يكتب لك شيئاً ؟ — منذ عام .

- اذن فاعلم أن صديقك الكونت هنا .

- هنا .. ؟ اني كنت احسبه في طولـــون لعودة الاسطول اليها .

- لقد كان هناك امس وسيزورك هذه الليلة .

- أتحسبين انه في باريس ؟

- من يعلم انه منذ عشرين عاماً لم يزرها غير أربع مرات ولم يكن مقيماً فيها غير يومين . مسكينة امرأته فاني اشفق عليها كل الاشفاق !

فتظاهر موريس انه لا يعلم شيئاً من سرهـا وقال لهـا : أن الكونتس صديقة لك فلابد أن تكون اخبرتك بأمرها .

- انها لم تخبرني بشيء على الاطلاق .

- وعن زوجها ؟

- لم تفه بحرف فكل ما علمته انها تعسة منكودة .

- اذن اخبرينا بالخبر الآخر ايتها المركيزة .

- الخبر الآخر هو اني اتيتكم بهذه الكونتس .

- لقد أحسنت وكيف رضيت بالمجيء وهي معتزلة في منزلها كالنساك .

- الححت عليها كثيراً حتى اقنعتها .

- وهل هي هنا الآن ؟

- كلا ولكنها ستأتي بعد هنيهة .

- أعرفت أن زوجها وصل بالاسطول الى طولون .

- لا اظن فانها لم تقل كلمة عنه .

- الحق اني لا أجد اغرب من شأن هذين الزوجين .

وعند ذلك دخل جان رودريكوس فانحنى امام المركيزة وقـال لهـا : أأجسر يا سيدتي على التماس التشرف بمعرفة سيدتي المركيزة .

فأسرع موريس إلى المداخلة وقال :

- اسمحي لي يا سيدتي المركيزة أن اقدم لـك المسيو جان رودريكوس أقرب جار لنا .

- أهما في شنساي ؟ — نعم يا سيدتي .

فقالت المركيزة لجان .

- أن هذه البقعة خير البقاع فهل المنزل لك .

- نعم .

— العلك اشتريته قريباً : — منذ بضعة اشهر .

— اي منذ قدومك إلى فرنسا فقد علمت انك اميركي ؟

— هو ذاك يا سيدتي .

— أن اميركا متسعة فمن أي بلاد انت .

— من اورليان الجديدة فــان اهلي فيها ولكن اصلنا من اسبانيا .

— الا يزال أهلك فيها ؟

— كلا يا سيدتي فاني وحيد في هذا الوجود ولم أتجاوز بعد سبعة وعشرين عاماً فاني اعيش مع مرشدي الذي لم يفارقني منذ ولادتي .

وبعد حديث مختلف استأذن جان من المركيزة وقد أعجبها بأدبه واختلط بالناس في قاعة الرقص .

وكان الراقصون يستريحون في تلك الساعة وقد جلست ماري بجانب ابن عمها على مقعد فكانت تؤنبه فتقول :

— انك تعلم يا فرنند باني مخلصة لك ولكني ارى انك حاقد علينا .

— كيف أحقد عليكم .

— اذن لماذا كدت تنقطع عن زياراتنا فقد كنت تزورنا كل يوم ثم انقطعت منذ ثلاثة اشهر حتى لم نعد نراك اكثر من مرة في الاسبوع .

— ليس لذلك سبب غير كثرة المشاغل .

— كلا فلماذا لا تثق بي يا فرنند اننا ربينا معاً وأنت ابن

عمي ولا شك عندك باني احبك حب الاخت لأخيها .

فاصفر وجـه فـرنند ولم يجبها وعـادت الفتاة إلى الحديث فقالت .

اني لا ازال في مقتبل الشباب لا أدرك شيئاً من معاني الحياة ولكن يخال لي انه يجب أن تكون سعيداً فان اعمالك كثيرة ولم اسمع احداً يذكرك إلا بالثناء ولكني اراك حزيناً منقبضاً منذ عهد قريب مما يدل على انك متعب فلماذا لا تخبرني بتعبك .

— بل انك تخدعني فهل تحب يا فرنند .

— انا .

— دون شك وما يمنعك عن أن تكون محباً محبوباً .

— نعم ايتها العزيزة اني احب والتي احبها ستجهل مدى الحياة حبي .

فاحمر وجه الفتاة وقالت : — لماذا ؟

— لتباين حالتينا بحيث لم يبقى لي شيء من الرجاء

— لم أفهم ما تقول فانك تدعى فرنند نورمان اي أنك من اسرة محترمة شريفة فما هذا التباين .

— انها غنية وأنا فقير كما تعلمين .

— ألعل هذا يعد من التباين .

— انه لا يعد تبايناً عند المتعلمات الراقيات أمثالك ولكن يوجد في الناس من تحسبه تبايناً عظيماً .

فاشفقت الفتاة عليه وقالت له : اني لا اريد أن اراك كئيباً يا فرنند ويجب ان تبوح لي باسم الفتاة التي تحبها فقد تكون

صديقة لي فاخدمك اجل خدمة وحين انتهت جملتها التفتت فرأت فتى ينظر اليها نظرة العاشق المفتون .

فنهضت وارادت الذهاب اليه .

وكان هذا الفتى جان رودريكوس فاصفر وجه فرنند واحمر وجه ماري واستأذنت من ابن عمها وذهبت إلى جان .

لا تزال حسناء

في ذلك الوقت نفسه كانت امرأة حسناء تجتاز قاعات المنزل مستندة إلى ذراع موريس فأوصلها إلى حيث كانت المركيزة .

وكانت تبلغ نحو الثامنة والثلاثين من العمر ولكن رونق جمالها كان يدل انها لا تزال في عهد الصبى وقد زادها جمالا ذلك الثوب الأسود الذي كانت ترتديه وملامح الكآبة على وجهها الجميل وقد استقبلتها المركيزة بحنو الامهات ونظرت اليها نظرة اعجاب فقالت لها : انك مشرقة كالكوكب ولكنك حزينة كالليل افلا تريدين خلع هذه الملابس السوداء التي تلبسينها منذ عشرين عاماً .

وكانت هذه المرأة الكونتس بلانش زوجة الكونت مالونيان دي فيتراي .

فهزت رأسها وقالت لها : كلا يا سيدتي المركيزة .

— لماذا .. العل للعذر — هو ما تقولين .

— اجلسي يا ابنتي بجانبي وإذا كنت تنهجين مناهج الحرية

اخبرتك خبراً يسرك

فامتثلت الكونتس ولكنها هزت رأسها اشارة إلى الشك إذ كانت تعتقد انه لا يوجد نبأ يسرها في الوجود غير نبأ ابنتها وأين للمركيزة أن تعلم اخبارها ولما جلست سألتها المركيزة قائلة :

— ألم يكتب لك زوجك اخيراً — كلا

ما هذا الرجل الغريب الأطوار فان صدري ينقبض حين أفتكر اني زوجتك به فمتى وردك آخر كتاب منه .

— منذ شهر فبراير الماضي — اين كان .

— في سيجون ولكنه مر بها مروراً .

— ألم يقل لك متى يعود ؟

— بل لم يكتب لي إذا كان يريد أن يعود .

— لا أعلم ما حدث لكما يا ابنتي ولكن لا بد ان يكون حدث بينكما ما دعا إلى هذا النفور فكم مرة رأيته في عشرين عاما .

— ما رأيته مرة بل كنت ألمحه لمحا .

— لا شك بوجود سر بينكما وأن كل منكما يحرص على كتمانه .

ألا فما هذا الزوج الذي لا يظهر حتى يغيب فاذا أقام في منزله يوماً هجره عدة أعوام بل ما هذه المرأة التي لا تزال في ابان جمالها وهي تهرب من الحفلات وتعيش في منزلها عيش الزاهدات ألا تعرفين أن ذلك من الغرائب .

ثم حدقت بها كأنها تريد أن تستطلع سرهـا وقالت لها : لقد وعدتك بنبأ جديد وهو أن زوجك الاميرال سيعود فارتمشت الكونتس وقالت . ماذا تقولين !

– اقول أن الاميرال سيعود – متى .

– غداً بل ربما اتى هذه الليلة – كيف عرفت .

– من مصدر وثيق – من اين ؟

– من وزير البحرية نفسه .

– العله يريد أن يقيم طويلا ؟ – لا أعلم

فقطبت الكونتس حاجبيها وتمعنت المركيزة في وجهها فرأت انه لم يبدو عليه شيء من علائم الفرح فقالت في نفسها : ترى العلها تكرهه .

وكانت بلانش قد استلفتت انظار الفتيان الراقصين بجمالها فكانوا يتسابقون في دعوتهـا للمراقصة وفي جملتهم جان رودريكوس فكانت ترفض دعوتهم رفضاً باتاً بحيث كانوا يقطعون حديثهما .

حتى إذا بدأ الرقص عادت المركيزة إلى الحديث فقالت : اظن انك لا تشكين بصداقتي ؟

– هذا لا ريب فيه .

– إذن ثقي يا ابنتي اني سأسألك بعض الاسئلة لا اريد بها الا خيرك .

– اية فائدة من الاسئلة ؟

– اني أعلم انك تتعذبين كثيراً !

– لا أنكر ذلك .

فاخذت المركيزة بيدها وقالت لها : ثقي بي جيداً فكم تحسبين اني اعيش بعد ، اني قد أعيش عاماً أو عامين وهذا كل ما اطمع فيه ويسوءني أن افارق الحياة دون ان أكتشف سر أحب الناس الي .

– اتريدين أن تقفي على سر حياتي .

– نعم فقد عشت كثيراً من العمر وعرفت كثيراً من الأسرار المدهشة في هذه العاصمة ، بلد العجائب ، ولكني ما رأيت أعجب من سرك ويقيني انه لا بد ان يكون حدث امر هائل بينك وبين زوجك .

– بالله لا تسأليني يا سيدتي .

– بل اسألك ولك الخيار في اجابتي على اني لو كنت اراك ضاحكة فرحة لأطمأننت وما سألتك شيئاً ولكني ارى الابتسام قد هجر شفتيك حتى كدت تنسينه .

– نعم واأسفاه فلا سبيل اليه .

– بل اني اراك دائمة الحسرات والتنهد وأن هذا الصدر الذي طالما خفقت له القلوب لا أراه يخفق إلا بالزفرات فماذا حدث بينك وبين زوجك اخبريني فانك تعلمين يقيناً مقدار حبي

– رباه اني لو كنت عارفة لما اتيت ..

– اليس لك ثقة بي – نعم .

– اذن لماذا هذه الأفكار .

– لا استطيع أن أقول .

— لعل نكبتك عظيمة — فوق ما تظنين .

— لا أعلم ما أقول لك يا ابنتي فقد كنت ارجو أن تبادليني المودة وأنت تعلمين اني وحيدة في هذا الوجود واني عرفتك منذ الحداثة فربيت عندي ثم جاورتك بعد زواجك عشرين عاماً كنت اراك فيها كل يوم فأحزن لحزنك والآن انما اسألك لمعرفة سبب هذه الكآبة فترفضين .

— ذلك محال

فهمست المركيزة في اذنها قائلة :

— الملك تحبين يا ابنتي حباً خفياً لا سبيل إلى الهناء فيه

فخفق قلب الكونتس إذ ذكرت ابنتها وقالت :

— نعم نعم ، حبي على غير ما تتوهمين .

— اذن انت تحبين زوجك وما شقاؤك إلا من هجرانه .

— لا احب الكونت بل اكرهه .

— انك تكرهين زوجك — نعم .

— اذن تحبين سواه ! — كلا :

— رباه ما هذه الألغاز قولي فاني احب أن اعرف كل شيء؟

— لا تسأليني .

— وإذا سألتك الا تجيبين .

— ربما .

— ارى انه يوجد بينكما سوء تفاهم ولا بد لي من اصلاح ما افسد — لا يستطيع ذلك غير الله .

— ولكن زوجك من اهل الشرف والظرف وقد رأيته

مراراً فوجدته يتألم فوق ما تتألمين .

فقالت بلانش بلهجة فرح يسرني أن يتعذب .

— انه يحبك حباً شديداً ولا تستطيعين انكار هذا الحب .

— ربما .

— بل هو اكيد وإذا كان يهجرك هذا الهجران على حبه فلا بد ان يكون هناك سبب عظيم دعا اليه .

فأطرقت الكونتس برأسها ولم تجب فقالت لها المركيزة إذن لا تريدين أن تبوحي بسرك .

— لا استطيع .. لا اطيق .

— ولكن هذا السر سيقتلك ايتها التعسة وانا بمثابة امك فلا اطيق أن اراك على هذا الحال .

فتفجرت عند ذلك دموع الكونتس وجعل قلبها يخفق خفوقاً شديداً ثم قالت : لقد غلبتني بحنوك وأنت تريدين أن تعلمي اذن فاعلمي ..

وعند ذلك جعلت تروي لها تفاصيل تلك الحكاية المفجعة منذ غلطتها إلى ساعة اختطاف ابنتها والمركيزة مصغية اليها تنفر تارة من زلتها وتتوجع تارة لنكبتها حتى إذا أتمت حديثها نكست المركيزة رأسها ثم قالت :

— لقد حدثت النكبة واأسفاه ولكنك لم تنهجي مناهج الحكمة يا بلانش وكنت من الجاهلات .

— كلا لم اكن جاهلة بل مجرمة اثيمة اذ كان يجب علي ان ادافع عن عرضي حتى الموت وأصون شرف زوجي الذي

انتمنني عليه ولكنه انتقم من العشيق بالقتل ومني بالهجر فما ذنب ابنتي ومهما كان ذنبي عظيما اما آن له ان يغفر وهل يعاقب عليه بعقاب نساني افظع من هذ العقاب .

– وماذا جرى بعد أن اختطفت الطفلة ؟

– كنت ارجو أن يرق قلبه ويشفق على الطفلة وامها ويردها اليها بعد ان تهدأ ثورة غضبه ولكنه مضت الشهور والأعوام وسيمضي العمر دون أن أراها .

ولقد كان خوفي عليها هيناً حين كانت طفلة صغيرة إذ لم تكن معرضة لشيء من الأخطار اما الآن فقد بلغت العشرين من العمر ومن يدري ما يكون امرها وما يحدق بها من المصائب فقد تكون أتعس النساء .

– ربما .

– بل ذلك اكيد فان قلبي يحدثني بشقائها وحديث قلوب الامهات لا يكذب ولذلك اضطرب في كل لحظة وما افتكرت بها إلا وخطر في بالي ذلك الرجل الذي سرقها مني فأشعر اني أكرهه كرهاً لا تصفه الأقلام وأني قد صفحت له عن قتل أودي وعن تعذيبي وعن كل اساءة إلي وأما جريمته بشأن ابنتي فهي بعيدة عن منال الغفران ولذلك أكرهه هذا الكره الشديد

وأنت تقولين انه سيحضر وقد اصبحت عارفة بكل شيء فاذا جاء فقولي له اني اكرهه كرهاً لا يمحوه غير الموت .

ان عمر ابنتي الآن عشرون عاماً . لا أعلم أين هي واني ابذل نفسي لمن يرشدني اليها ولو سحقني الكونت بقدميه وطردني

اقبح طرد لالتمست له عذراً وصفحت عنه اما وقد سلبني ابنتي فهو سافل سفاك لا يستحق أن يلقب بلقب الأشراف .

وقد وقفت هنيهة ساكنة واجمة تغطي وجهها بيديها ثم قالت بلهجة القانطين :

ترى لماذا اخبرتك بدائي وهو لا دواء له .

– لا تقنطي يا ابنتي فلكل داء دواء .

فحاولت الكونتس ان تجيبها ولكنها صاحت صيحة منكر إذ رأت زوجها الاميرال واقفاً عند الباب وقالت :

– رباه هذا هو .

ثم افلتت من يد المركيزة وهي تقول :

– كلا كلا لا اريد أن اكلمه لا اريد أن اراه . استودعك الله وعند ذلـك خرجت من باب آخر ودخل الكونت إلى المركيزة .

صوت الضمير

كان الكونت مالونيان دي فيتراي قد رقي في هذه الاثناء إلى آخر ما يطمع به في سلكه فقد تركناه قائد دارعة وهو اميرال اسطول وقد كبر وشاب شعره واخترقه الهم فذهب ذلك الرواء القديم وظهر التجعد في وجنتيه لشدة ما عاناه من عذاب النفس .

وقد رأى امرأته تهرب منه فلما دنا من المركيزة قالت له :

لقد اتيت بعد فوات الاوان فان العصفور قد طار .

ثم سألته قبل أن تدع له وقتاً ليسألها قائلة :

— متى اتيت ؟ — الآن .

— قل الحقيقة ايها الكونت اما كنت عالماً انها هنا ؟

— هذا اكيد

— أن بلانش تعيش في منزلها عيش الزاهدات فهي تهرب من الحفلات ومن الناس إذ لا تلقى في عشرتها غير الضجر وانا التي اكرهتها على الحضور إلى هنا هذه الليلة .

— لقد عرفت ذلك .

— اذن لقد ذهبت إلى منزلك قبل أن تجيء إلى هنا ؟

— دون شك .

— مسكينة بلانش فقد ذهبت حين حضورك ولم ترك إذ كانت تجهل عودتك الم تخبرها انك عائد ؟

— كلا :

— اذن كيف يمكن لها أن تعلم برجوعك ؟

فلم يجبها الاميرال على ذلك وسألها قائلا : ماذا حدث عندكم من الامور في مدة سفري ؟

—لقد حدثت امور كثيرة منها هذه ثم اشارت له إلى ماري وجان رودوبكوس وهما قد اعتزلا في آخر القاعة وجعلا يتناجيان كأنهما بول وفيرجيني فهو يبسط لها غرامه بارق الاحاديث وهي تحمر احمرار سرور لمن ينظر اليها خلسة من حين إلى حين .

فسأل الاميرال المركيزة قائلا : من هو هذا الفتى ؟

— انه رجل اميركي قدم الينا منذ بضعة اشهر .

— اهو من الاغنياء .

فضحكت المركيزة وقالت اعجب منك كيف تسألني هذا السؤال ألعلك نسيت أن صديقك موريس لا يصاحب غير الاغنياء .

— لقد اصبت .

— وهو إذا كان قد إذن لابنته أن تختلي بهذا الفتى فما ذلك الا لانه يعتبره من اصحاب مناجم الذهب .

— اذن هو خطيبها !

— لم يخطبها بعد ولكنهم يهمسون في الآذان أن عقد الخطبة بات قريباً — العلها متحابان .

— كما ترى فان دلائل الحب لا تخفى على احد ؟

— هنيئاً لها ؟

وقد تنهد وقال هذا القول بلهجة دلت على مبلغ عذابه فتأثرت المركيزة لتنهده وقالت له :

— اني اريد أن احدثك بشأن خاص ايها الاميرال فهل تخرج إلى قاعة معتزلة كي لا يضايقنا احد ؟

فامتثل الاميرال وهو لا يعلم سبب هذا الاحتياط حتى إذا اختليا بادرته بالسؤال قائلة ؟

— الك خبر ايها الكونت :

فابتسم وقال عجباً ما هذا السؤال الغريب ؟

– ولكن قل لي ألك ضمير ؟

– دون شك يا سيدتي فما حملك على الريبة بضميري ؟

– حكاية عجيبة رويت لي منذ هنيهة وهي تتعلق بك ورجائي أن لا تحقد علي ايها الصديق فاني اشبه الجراح يكوي الجرح بغية شفائه وأنت تعلم اني اجلك وأحترمك وأريد لك كل خير .

ثم انك من اعظم الرجال كمالا وأرقهم قلباً غير ان المرء قد يمر به في ادوار حياته حوادث يأسف لها وانما خلوت بك لاباحثك بمثل هذا الشأن عملا بواجب يدعوني !

– ما هذا الذي تقولينه يا سيدتي ؟

– اقول اني اريد ملافاة ويل عظيم ارجو أن لا يكون ذهب أوان ملافاته .

فنظر الكونت اليها نظرة الفاحص وقال لها :

– اذن لقد اخبرتك الكونتس !

– لا احاول الانكار فقد اخبرتني حقيقة بكل امرها .

– متى ؟

– منذ هنيهة وأنت تعلم ايها الكونت ان الحبل إذا بولغ في شده تصرم وانقطع ومما عجبت له من هذا المنكودة هو كيف انها اطاقت احتمال عذابها كل هذا العهد الطويل وهو فوق احتمال البشر .

ومع ذلك فقد بقيت مصرة على الكتمان إلى أن تمكنت اليوم من اكراهها على الاجابة ورأيت أن سرها سيقتلها فانتزعته منها

لاشفاقي عليها وهو سر هائل يا كونت .

فاضطرب الكونت اضطراباً شديداً وكاد يتفجر ولكن المركيزة منعته عن الكلام باشارة وقالت :

لا تخف ايها الكونت على سرك من الافشاء فقد عرفتني من عهد بعيد وهذا السر قد دفن في صدري فلا يخرج منه الا باذنك ولكن هذه المنكودة هالني امرها والححت عليها حتى باحت لي بسرها فانفرجت ازمتها بعض الانفراج .

– وبعد ذلك ؟

– سأخبرك بيأسها وهياجها وحقدها .

– تقولين حقدها ؟

– نعم ولا اظنك تحسبها تعبدك بعد ما كان منك

– اذن هي تكرهني ؟

– اتعجب من هذا الكره ؟

– أأنت واثقة من ذلك ؟

– هذا الذي ارتأيه بعد ما لقيت من العذاب والاساءة .

– فجعل الكونت يمشي بخطوات مضطربة ثم وقف امام المركيزة وقال لها ، انك ذكرت اساءتي اليها فهل لم تسيء هي الي .

– لا اقول ذلـــك ايها الكونت ولكن الانسان ضعيف بالطبع

– اذن انت تعذرينها لزلتها .

– كلا — اذن .

– ان ذنبها مهما كان عظيماً فقد كان العقاب اعظم .

– كيف تقولين ذلك ألعله يوجد أعظم من ذلك الذنب .

– أن الرجال يبلغون بكبريائهم حداً لا يقبله العقل والطبع وانما أنت تتكلم الآن بلسان كبريائك ولكنك لا يسعك الانكار انك كنت تشعر بخطأك حين اعتزالك في سكون الليل وحين تكون بين الماء في البحار ولا بد أن يكون خطر لك الغفران .

– أنا اغفر وأي فائدة لي من هذا الغفران :

– فائدته أن ترد اليك امرأة طالما طرد خيالها النوم عن جفنيك لأنك كنت تعبدها عبادة وأظن أنك لا تزال تحبها .

فارتعش الكونت وقال بصوت يتلعثم :

– ولكنك الم تقولي يا سيدتي أنها تكرهني ؟

– وكيف تريد أن تحبك وقد جرحت قلبها جرحاً لا يزال دامياً إلى الآن ألا تعلم أنك عاقبتها عقاب الابد بزلة ساعة وربما كان لها بعض العذر في سقوطها لضعف قلبها في حين أنك لم تكن معها فتعينها على مقاومة هذا الضعف ألا تعلم ايها الكونت أن من كان له كنز يجب ان يصونه ويحرص عليه

ولكنني لا اريد أن اعود إلى تذكار هذه الزلة فقد مضت عليها الاعوام الطوال ومحت اثرها الدموع والعذاب بل أنني اريد البحث في عقابك ايها الكونت فان المرأة المذنبة يجب أن تعاقب على ذنبها ولكن لا يجب أن تعذب عذاب الشهداء .

فتنهد الكونت تنهداً طويلا وقد شعر أن قلبه سيثب من صدره فقال لها : اتوسل اليك ايتها المركيزة أن تدعي هذا البحث إلى

وقت آخر .

– كلا فقد قلت لك أن واجبي يدعوني اليه ولا بد لي من اتمام هذا الواجب اعرفت قصدي ايها الصديق اني اريد أن أرشدك إلى النهج القويم فتسير في طريق العدل والحق وتجيب صوت ضميرك الذي يقرع اذنيك .

– ومن انبأك اني سائر في غير هذه الطريق وأني لا افتكر كما تفكرين .

– أنت !

– نعم :

– كيف ذلك .

– ذلك اني مصغ من عهد بعيد إلى صوت ضميري واني احاول اصلاح ما افسدت .

– اذلك ممكن .

– نعم فانك تعرفين بعض سري لا كله فهل أنت مخلصة لنا

– كيف يخامرك الريب .

– اذن فاعلمي أن نكبتنا فوق ما تعلمين .

– رباه ماذا تقول

– وأنها لا دواء لها .

– لا دواء لها .

– نعم فهل اعترفت لك بلانش بكل الامر .

– لقد اعترفت لي بالزلة والعقاب .

– كما اعترفت لك بأنها تكرهني .

وانت لا تكرهها .

– بل لا ازال احبها وهذا هو عقابي بل هذا هو عذابي

الذي يبلغ اضعاف عذابها فان الشرف يدعوني أن انتزعها من قلبي وأن اقصيها عني فقد دنستني ولا سبيل إلى اغتفار خيانتها

ونعم اني قتلت عشيقها وهو اقـل ذنباً منها ولكني لم اندم على قتله فهو رجل وابقيت عليها اذ لا يجوز قتل امرأة حتى اني لو حاولت قتلها لرد يدي جمالها وكان يجب ان اطلقها ولكني لم اطق طلاقها حذراً من أن يتزوجها سواي فقد كنت اغار عليها حتى بعد الخيانة .

نعم لقد كان يقضي الشرف علي أن أنفصل عنها ولكني على شدة تمسكي بشرفي كان صوت الحب اشد من صوت الشرف في قلبي ولذلك اقول لك أن عذابي اشد من عذابها .

– كلا بل انت الواهمة لانك لم تحبي حباً دون رجاء فتعلمين عذاب هذا الحب وكفى أن الشرف والحب يتنازعان قلبي منذ عشرين عاما وإذا كنت في ريب مما اقول فانظري الي فقد خلقت لأعيش مائة عاماً لقوة بنيتي ولكن الهم قد اخترق قلبي حتى اصبحت ولي منظر الشيوخ وانظري إلى هذا التجعد في وجهي فما هو من تقادم الايام بل هو من الحزن الذي لا يرحم

– إذا كان ذلك فلماذا لا تعود إلى الكونتس .

فتنهد الاميرال ايضاً وقال :

– لقد حفرت بيني وبينها هوة عظيمة كي لا يتغلب علي الضعف فقد كنت احبها قبل زلتها حب الهائمين فاصبحت احبها الآن حب عبادة فأنفت أن يغلبني الحب وأن اعود اليها وقد وصمت بوصمة العار فاختطفت ابنتها وحجبتها عنها وما

اردت بذلك إلا ان تنفر مني وتكرهني كرهاً يحول بيني وبين كل رجاء بالعودة اليها .

ولبثت على ذلك عدة اعوام وانا انتظر .

إلى ان نفذ صبري وخسرت قواي وعلمت انلا سبيل لي الى مقاومة سلطان غرامها فعولت على اصلاح خطأي وانا اعلم انها ام وانها تعود إلى حبي متى ارجعت اليها ابنتها .

فقاطعته المركيزة قائلة : اكان ذلك صعباً عليك ؟

قال : سوف ترين يا سيدتي فقد كنت عهدت بالطفلة إلى امرأة صالحة عرفتها في بريطانيا ومنعتها عن أن تكتب لي كلمة بشأنها كي لا تهيج بي الذكرى وحسبتها في عداد الاموات .

فلما خطر لي ارجاعها إلى امها وكانت الطفلة قد بلغت الثالثة عشرة من عمرها في ذلك العهد برحت باريس وذهبت لاحضارها فوجدت واأسفاه ان تلك الترضية التي كنت احاولها باتت من المستحيلات .

– كيف ذلك العلها ماتت ؟

– كلا ولكنها اختفت . نعم انها اختفت ايتها المركيزة ولا شك أن قضاء الله يحيق بالظالمين فقد توهمت اني وضعت خطة لا بد لي من الفوز بها فاذا بها قد حبطت حبوطاً لم يكن يخطر لي في بال وذلك ان المرأة التي كنت اودعت عندها الطفلة كان لها بنت ايضاً فلما بحثت عنها وجدت أن زوجها قد مات وهجرت الارملة القرية بالبنتين فلم يعلم احد اين ذهبت بها وقد بحثت عنها في ذلك العهد بحثاً دقيقاً حتى يئست من لقائها ولم

يبقى لي رجاء بالعودة إلى امرأتي فعهدت إلى وكيلي بمواصلة البحث وذهبت إلى طولون بدلا من العودة إلى باريس .

— اعهدت بالبحث عنها إلى وكيلك رافينو .

— هو بعينه . — انه ذكي همام .

— ومع ذلك فلم يفز بايجادها .

— الم يجد اثراً ؟ — كلا

— حقاً ان المصاب فوق ما كنا نتوهم .

— وقد اقمت بعد ذلك سبعة اعوام وأنا احاول اخماد ذلك الصوت الذي يؤنبني واطفأ جذوة ذلك الحب الذي يحرقني فلم استطع . وهذه هي حالتي الآن فلوميني بعد ذلك اذ كنت تجسرين .

— بل اني اشفق عليها كما اشفق عليك فعلام عولت .

— لا اعلم — لماذا عدت إلى باريس ؟

— لأرى هذه المرأة التي وضعها القضاء في سبيلي حين كنت سعيداً .

ولو استطعت أن اوضح لك كل ما يجول في قلبي لارعبتك فاني بينا احسب نفسي احبها حباً لا تستطيع وصفة الاقلام اجد اني اكرهها كرهاً لا يلذ لي فيه غير الانتقام ولا سيما حين اخوض تلك البحار التي طالما وددت أن تبتلعني وافتكر بتلك التي جعلت الاميرال فيتراي انكد حالا من كناسي الطرق .

وانت تسأليني ماذا تريد أن تصنع ولكني ارى ان خير ما اصنعه ان اهجر باريس .

— كلا انك لا تستطيع السفر فان الام تكاد تجن خوفاً على ابنتها فقد بلغ عمرها الان عشرين عاماً .

— هو ذاك .

فهزت المركيزة رأسها وقالت : واأسفاه واني كنت اعتقد قبل ان القاك ان كلمة منك تريح الكونتس من عذابها وتعيدها إلى حبك القديم ولكن ارى انه يجب ان تبذل الجهد في التفتيش في جميع انحاء فرنسا .

— اية فائدة من ذلك اتحسبين اني لم افعل .

— ابحث ايضاً .

— لا فائدة من البحث فان ايجادها محال .

فتنهدت المركيزة تنهداً طويلا وعند ذلك افترقا دون أن يقولا كلمة فكانت المركيزة تفتكر بتلك الفتاة المسكينة التي قد تكون مصابة بجميع انواع الشقاء بذنب سواها فصح فيها قول القائل : الاباء يأكلون الحصرم والابناء يضرسون .

الفردوس الأرضي

كان في ذلك العهد قد انشأت قهوة جديدة تدعى الفردوس الارضي وبولغ في اتقانها حتى ازدحم فيها الناس وتسابقت اليها النساء على اختلافهن ما خلا الشريفات .

وكان جان رودريكوس واستاذه يختلفان إلى تلك القهوة .

ففي احدى الليالي كان ذلك الاستاذ اي بيير لاروش ينتظر

تلميذه في تلك القهوة حتى حضر الساعة العاشرة فبادره بالسؤال قائلا : ما وراءك من الاخبار .

قال : انها اخبار حسنة .

وكانت الموسيقى تصدح وقد اشتد الهرج بحيث كانا يستطيعان ان يتحادثا دون ان يسمعهما احد فقال له بيير .

— اذهبت عائلة نورمان إلى شنساي .

— نعم واقامت فيها كل النهار .

— ارايت ماري — نعم

— ماذا قالت — الاقوال نفسها

— لقد باتت هائمة بك كما ارى .

— كلا لم تفتتن بعد ولكنها ستفتتن — ربما

— انها بارعة بالجمال يا جان .

— ولذلك ارى ان خديعتها جريمة فهي رقيقة العواطف طاهرة القلب تبدو مكارم الاخلاق في حديثها وعينيها .

— اي انها ملاك في صورة انسان .

— نعم وهي لا يروق لها الا ان ترى الناس سعداء من حولها .

— لا شك انك بدات تحبها .

— كلا ولن احبها .

وقد قال هذا القول بلهجة ثابتة لو سمعته تلك الفتاة الطاهرة لوقع من قلبها وقع السهم لان جان كان يظهر لها انه من الهائمين بها .

اما بيير فقد اجابه قائلا : لقد احسنت فان المرء متى تجرد من مثل هذه العواطف سار في الخطة المثلى دون قيد فمتى يكون الزواج .

— لا اعلم فان المهمة جارية في خير مجرى ولكن لا بد من الصبر .

— ولكنهم في لندرا لا يصبرون .

— اكتبوا لك — في هذا الصباح .

— بما يشكون .

— من بطئنا فاننا مقيمان منذ سبعة اشهر في باريس ولم نفعل شيئا بعد .

ليصبروا فان الامور مرهونة بأوقاتها وانا غير متوان كما ترى ثم ضحك وقال اني حين افتكر باني اكتب لها الرسائل الغرامية في كل يوم واخبئها تحت حجر كما يفعل غلمان المدارس لا املك نفسي عن الضحك !

— وهي كيف تجيبك .

— بالطريقة نفسها فتكتب لي ارق ما يخطر للبنات من العواطف الطاهرة ولكن هذه الرسائل على طهارتها تعرضها لمواقف التهم وقد تنهد ثم قطب حاجبيه لانفته من خديعة هذه الفتاة .

اما الاستاذ بيير فقد غير مجرى الحديث فقال له لقد آن لنا ان نهتم بالمهمة الاخرى .

— اية مهمة .

– مسألة تاجر الالماس — الا تزال تفتكر به .
– دون شك فان الفوز مضمون .
– ولكنه فوز يحزنني واؤثر عليه الفشل
– لماذا ؟
– لاني يكفيني تلك الجريمة .
– الا تزال تفتكر بها وهي قد جرت في البلاد الاميركية وراء هذه البحار فما هذه الوساوس ياجان فسكت جان هنيهة ثم تنهد وقال ماذا يجب أن اصنع .
– يجب أن تبدأ فيكون لك خلية تتذرع بها .

وقد اقاما نصف ساعة يتحدثان وعند ذلك دنا منهما رجل يبلغ الخمسين من العمر تدل عيناه على الشراهة والطمع فقال لهما :
– الم تعزما بعد :
فاجابه جان — كلا
– لقد اخطأت — لماذا :
– لأنها خير فرصة تغتنم ، أن لدي الان حلى غالية القيمة رخيصة الثمن .
– حسناً سوف نرى
– ما عليك الا أن تشير أشارة فيقضى الأمر
– سأفعل .
– ألا تريد أن اذهب إلى منزلك .
– ليس الأمر مستعجلاً ، وفي كل حال فـإنه مـال ملقى في البحر .

– أنك مخطيء يا سيدي ولكني ارجوك أن لا تنسى باني رهين امرك

ثم حياهما وانصرف وكان بيير قد اظهر عدم الاكتراث لهذا الحديث فلما أنصرف الرجل قال لتلميذه ارأيت يا جان كيف أن الاقدار تخدعنا فان الطير يأتي من تلقاء نفسه إلى القفص وهذا هو روزن اليهودي الالماني الذي كان يحدثك أنه من اغنى تجار الحجارة الكريمة وهو يحمل منها في حقيبته ما تبلغ قيمته الملايين فماذا قلت له في اجتماعكما السابق ؟

قال : لقد قلت له عرضاً أن لي خليلة لها ولع شديد بالحلى وهي ترهقني بمطالبها كل يوم .
– بحيث لم يعد ينقصك غير تلك الخليلة .

وفي تلك اللحظة حدث ضجيج في القهوة فأشرأبت الاعناق وتطاولت الانظار إلى فتاة تدهش العقول بجمالها وهي جميلة الرأس بيضاء البشرة سوداء الشعر نجلاء العينين تشبه تلك التماثيل اليونانية التي كانوا يمثلون بها الجمال ولكن عينيها كانتا تدلان على التعب والسهر .

فالتفت بيير وجان ونظرا اليها مع الناظرين فلم يسع الاستاذ على زهده بالنساء الا أن يظهر اعجابه بجمالها أما جان فانه سكت ولكنه ارتعش ارتعاشاً عنيفاً كأنما الكهرباء قد هزته وقال في نفسه ترى اين رأيت هذه الفتاة !

غير انه ما لبث أن ذكر شربورغ فذكر أنه كان يراها هناك بين ازهار البساتين واعشاب الحقول حين كانا صغيرين .

ثم هز كتفيه وقال في نفسه أن الشبه تام ولايمكن أن تكون هي .

وكانت الفتاة قد ابتعدت ولم يعلم احد من هي ومن أين اتت فقد كانت لابسة ثوباً اسود تغير لونه لقدمه وكل ملابسها تدل على الفقر المدقع وعلى أنها من اولئك الفتيات المنكودات اللواتي يضطرون إلى بيع انفسهم بقطعة من الخبز وقد بحث جان بنظره عبثاً فانها كانت قد اختلطت بالناس وتوارت عن انظاره ولكنه لبث مفكراً .

أما بيير فانه ما زال يكرر كلمة الأعجاب بحيث تنبه جان من تفكيره وقال له : من تعني .

– تلك الفتاة التي مرت بنا الآن فما تقول بها يا جان ؟

– اقول أنه لا بد أن اكون قد رأيتها من قبل .

– اين ؟

فلم يجبه ولكنه وضع يده على جبينه وقال :

– اهي هنا ..؟ اباتت من أهل الدعارة والخلاعة .. هذا محال ولكن الشبه عجيب .

فقال له بيير : لنبق هنا فلا بد لها أن تعود .

ولكنه اخطأ فانها حين وصلت إلى موضع الموسيقيين لقيها رجل حسن الهندام تدل هيئته على انه من أهل الثروة وقال لها كلمة ايتها الحسناء .

فالتفتت إلى محدثها دون اكتراث اذ رأته شيخاً يبلغ الخامسة والستين من العمر ولكن الشيخ نظر اليها نظرة رفق وقال

لها : اتبعيني .

فتبعته الفتاة وجلس واياها حول مائدة معتزلة أما هذا الشيخ فقد كان سانت كلير ذلك الغني الشهير عم موريس نورمان وجد ماري .

عناية الله

كان هذا الشيخ مشهوراً في باريس يعرفه اكثر أهلها و كثيرون منهم يعلمون أنه من أهل الشذوذ لغرابة طباعه فكان بعضهم يعجبون أن يروه على كبر سنه في مثل هذا المكان ومع مثل هذه الفتاة ويقولون انها احدى نوادر طباعه وشذوذه .

اما هو فلم يكن يحفل باحد من الذين يمرون به وقد بدأ بمحادثة تلك الفتاة وقال :أرجو أن لا اكون قدارعبتك يا ابنتي

– كلا :

وكان احد الخدم قد حضر فقال لها : ماذا تريدين أن تشربي

– الذي تريده .

– اذن اقدم لك شراباً فهو خير من الاشربة الضارة .

– كما تريد .

فانصرف الخادم وبقيت الفتاة وهي تضطرب كأنها كانت خجلى من هذا الموقف فقال لها الشيخ اني أريد قبل كل شيء أن احملك على الثقة بي يا ابنتي فانظري الي ولا تخشى امراً فاني اريد أن اكون لك بمثابة الصديق وذلك لاني اشفقت عليك حين

رأيتك لأول لحظة وهي أول مرة تأتين بها إلى مثل هذه الاماكن اليس كذلك ...؟

اذن لقد صدقت فراستي فيك فلماذا أنت عابسة ؟

– لست بعابسة ولكني حزينة .

– اتحزنين وأنت في أول عهد الشباب ؟

– لم يحدث لي في حياتي ما يدعو إلى الفرح .

– كم لك من العمر . – عشرون عاماً .

– ثقي بي يا ابنتي واخبريني بأمرك فلست من أهل المجون ولا اريد لك الا الخير فماذا تدعين .

– جانيت .

– اني اراك مضطربة لانك لم تتعودي المجيء إلى منزلك فلماذا اتيت اليه .

– لالتمس رزق اللتين معي .

– أن احداهما امك دون شك .

فترددت لحظة ثم قالت : نعم امي .

– والاخرى – اختي

– وابوك .

– ليس لي اب . . أريد القول أنه مات .

– امات من عهد بعيد – من ثمانية أعوام .

– وانتن الان في ضيق .

– لم يكن في المنزل قطعة خبز حين خرجت منه .

ثم اضطربت لموقفها اضطراباً شديداً فقالت بلهجة عنيفة

لماذا تضيع وقتي سدى يا سيدي فقد تركتهما جائعتين .

اصغي الي يا ابنتي فقد عرفت من عينيك حقيقة احزانك وعلمت أن الفقر الشديد بل الجوع قد جرك إلى هذا الموقف ولكنك من اهل العفاف ولا اريد أن تأتي بعد الآن إلى هذه الاماكن الفاسدة .

ثم اخرج من جيبه قبضة من الدنانير ودفعها اليها دون أن يعدها وهو يقول :

– خذي يا ابنتي هذه الدنانير فهي تكفيك لقضاء حاجاتك إلى الغد وإذا احببت أن تريني فاحفظي عنواني وهو ميشيل سانت كلير في شارع كمبون

– لقد حفظته يا سيدي .

– وأي سائق لقيته يوصلك إلى منزلي فهو معروف .

نعم يا سيدي – اتزوريني غداً ؟

– نعم :

– في الساعة العاشرة قبل الظهر .

– نعم يا سيدي .

– اذن اسرعي بالخروج من هنا والعودة إلى منزلك فقد ارسل الله لك من يقيك العثار فاني من الأغنياء الذين يذكرون نعمة الله عليهم فيحسنون إلى البؤساء من عباده وينفقون مما رزقهم في سبيل الخير

فاشرق وجه الفتاة بنور البشر واتقدت عيناها إذ نجت من العثار بفضل هذا الغني الكريم الذي خالف سنة اولئك الاغنياء

الذين يغتنمون فقر مثل هذه الفتاة فيشترون نفسها الطاهرة بأموالهم ويلقونها مدى العمر في وهدة الشقاء .

اما سانت كلير فقد اشفق عليها اشفاقاً عظيماً وكره أن يدعها تعود وحدها فسألها قائلا :

— اين تقيمين يا ابنتي ؟

فمدت يدها مشيرة إلى مونمارتر وقالت : هنا .

— اتأذنين لي أن اوصلك ؟

— لا حاجة إلى ذلك فاني لا اخاف والسبل آمنة .

— إذن سيري ولا تنسي أن تأتي إلي .

— غداً في الساعة العاشرة فان عنوانك قد طبع على ذاكرتي كما طبع جميلك على قلبي فقد انقذتني مما هو اشد من الموت .

— إلى اللقاء يا ابنتي ولا تقنطي من رحمة الله .

ثم افترقا فركب مركبته وهو يحدث نفسه ويقول :

— لا شك اني انقذتها من العثار وانها لم تخدعني فقد كان الصدق ماثلا في عينيها. ولكن لماذا ابت أن تأذن لي بايصالها فان اللصوص كثيرون في هذا الشارع والليل قد انتصف وقد يكون رأى احد اني اعطيتها الدنانير فيتعقبها .

غير أن الله ارسلني اليها لانقاذها من العار فهو سينقذها من من اللصوص أما انها ابت أن اصحبها إلى منزلها فما ذلك الا لانها تسكن في بيت حقير خجلت أن أراها فيه !

اما الفتاة فانها سارت والدنيا لا تسعها لشدة سرورها حتى وصلت إلى خمارة كانت لا تزال مفتوحة فدخلت اليها كي تشتري طعاماً وكان لا يزال في تلك الخمارة بعض الشاربين وبينهم اثنان كانا معتزلين يتحدثان بصوت منخفض .

فلما دخلت جانيت نظروا اليها جميعهم نظرة اعجاب وسألها صاحب الخمارة قائلا : ماذا تريدين ؟

— أن الليل قد انتصف وجميع الدكاكين مقفلة غير ان والدتي مريضة وانا محتاجة إلى خبز وبيض وزجاجة خمر .

— اصبري إلى أن اعدها لك .

ولبث الجميع ينظرون إلى الفتاة معجبين ما خلا الرجلين الذين كانا يتحدثان وعاد الخمار وجاءها بما طلبته فاعطته ديناراً إذ لم يكن لها من المال غير ما اخذته من سانت كلير فلما رن الذهب على بلاط المائدة التفت الرجلان التفاتة واحدة كأنما قد تكهربا لهذا الرنين فنظر اليهما الخمار نظرة صاعقة واعطى الفتاة بقية الدينار ثم سألها قائلا :

—أأنت من أهل هذا الشارع ؟ — نعم

— هل منزلك بعيد ؟ — كلا

— اذن اسرعي بالانصراف واحذري .

وبعد انصرافها بقليل اغتنم الرجلان فرصة انشغال الخمار وكانا من اللصوص فأسرعا في اثر الفتاة إلى أن ادركاها في منعطف الطريق فوقفت مذعورة وقالت لهما ماذا تريدان ؟

فلم يجيبها بل دنا منها واحد منهم فقالت له .

– احذر أن تدن مني وإلا استغثت .

– مهلا ايتها الحسناء فلا نريد بك سوءاً .

– قلت لك لا تدن مني ولا تعقني فان امي مريضة جائعة تنتظر عودتي .

– إذا كنت مستعجلة فأسوجز مقالي – ماذا تريد ؟

– اريد هذا الذي معك .

ولم يكد يتم مقاله حتى سمع وقع خطوات من ورائه فجرد خنجره وقال لها : اسرعي وهاتي ما معك فاننا اشد منك إلى العجلة .

وكانت جانيت قد سمعت ايضاً وقع هذه الخطوات ورأت شبحاً يدنو منها فتشجعت وقذفت اللص بزجاجة الخمر بملء قوتها فأصابت وجهه وانكسرت على جبينه ففقد رشاده لهذه المباغتة الفجائية ..

وعند ذلك هجم عليها رفيقه ولكنه قبل أن يصل اليها ادركه ذلك الرجل ولطمه على معدته لطمة شديدة اشتهر بها الامير كيون فسقط على الارض مغمياً عليه بجانب رفيقه ولبثت الفتاة وحدها

أما منقذها فقال لها : لا تخشى يا سيدتي فلا افارقك حتى تأمني في منزلك .

قالت أن لساني يعجز عن شكرك يا سيدي .

– لا حاجة إلى الشكر عن واجب فاين تقيمين .

– هنا على قيد بضع خطوات .

– أفي هذه المضايق المقفرة الخطرة .

– لقد دعاني الفقر إلى سكناها .

وقد حدثت هذه الحادثة في مدة وجيزة وكان الذي انقذها فتى في مقتبل العمر يتبعه رجل كهل .

فسار بالفتاة على مهل إلى أن وصلا إلى مكان فيه مصباح غاز وكان الكهل قد ادركهما فوقفت الفتاة وقد نظرت إلى وجه الفتى على نور المصباح وقالت له مندهشة :

– أهذا أنت .

فكاد الفتى يطير سروراً وقال :

اما أنت جانيت .. اما كنت مقيمة في شربورغ .

– نعم

– في منزل صغير قرب الدير .

– هو ذاك ؟

– ما هذه السعادة بلقائك فاني ما انقطعت ساعة عن التفكير بك دون أن اعلم مصيرك ولكن كيف اتفق انك تقيمين في هذا الشارع ؟

وقد حاول أن يسألها ايضاً عن سبب وجودها في تلك القهوة ولكنه توقف وقالت له :

– ان لذلك حكاية لا يتسع المكان والزمان لروايتها الآن كيف اتفق اني لقيتك ؟

– الامر بسيط وهو اني لقيتك في قهوة الفردوس .

فاحمر وجه الفتاة واطرقت مستحية وقالت : نعم

وقال : لقد دهشت دهشاً عظيما حين رأيتك في مثل هذا المكان حتى اني كذبت نفسي وحسبت أن عيناي خدعتاني وانك تشبهين التي عرفتها من قبل واأسفاه .

ولكني بعد أن ثبت من دهشتي أردت أن أعرف حقيقة امرك فبحثت عنك في تلك القهوة حتى رأيتك فارقت ذلك الشيخ ودخلت إلى تلك الخمارة ثم رأيتك خارجة منها فجعلت اقفو اثرك من بعيد كي اعلم إلى اين تذهبين إلى أن رأيت هذين اللصين يدنوان منك فأسرعت اليك وكانا يتحدثان ويسيران ببطء حتى وصلت إلى منزلها فقالت له : لقد وصلت فكيف السبيل إلى اظهار امتناني ؟

— الامر سهل .

ثم اخذ ورقة من جيبه فكتب عليها عنوانه وقال لها : هذا هو عنواني فهل تريدين أن تزوريني ؟

— دون شك .

— واني ارجو أن يكون هذا اليوم آخر ايام شقائك

— بماذا تستطيع أن تحسن الي ؟

— بكل شيء — رباه هذا ممكن ؟

— بل هو مضمون فمتى اراك .

— حين تريد .

— اني انتظرك غداً في الساعة العاشرة قبل الظهر .

— سأحضر في الساعة المعينة .

— إذن إلى اللقاء — استودعك الله .

وعند ذلك مد يده مصافحاً وهمس في اذنها قائلا :

— جانيت .. لا تنسي ما وعدتني به فاني انتظرك غداً بفارغ الصبر .

— سأحضر غداً من غير بد .

ثم تركته ودخلت إلى منزلها فرحة تبتسم وهي لم تعرف الابتسام من عهد بعيد .

ولما دخلت سمعت صوتاً خافتاً يناديها قائلا اهذا أنت يا جانيت .

— نعم انا هي . الا تزالين ساهرة .

— نعم فلم استطع النوم من الجوع .

وكانت التي تكلمها امرأة اخنت عليها الايام والفقر وذهب الشقاء بعقلها وبجانبها فتاة صغيرة نظرت إلى جانيت نظرة السائل كأنها تقول لها اني جائعة .

فبسطت جانيت الطعام امام الفتاة والعجوز وجعلت تطعم العجوز بيدها كما يطعمون الاطفال لانها على مرضها كانت مجنونة وبعد أن فرغت من اطعامها قالت لها بملء الحنو نامي الآن فأطبقت عينيها ممتثلة ولكنها جعلت تغني دوراً يتغنى به القرويون في بريطانيا وهذه ترجمته .

قد مات اهلي جميعاً عني ولم يبق غيري
انا اليتيمـــة مالي من منجد غير فقري
فهل اخـاف طريقاً تقودني نحو قبري

فكانت جانيت تصغي اليها باكية حتى إذا اتمت غناءها جعلت تتمتم هنيهة بالفاظ متقطعة كقولها صخرة مورجابت . فيتراي الطفلة نامت

وكانت جانيت قد جاءت إلى باريس منذ بضعة اشهر على رجاء أن تضع مربيتها التي كانت بمثابة امها في احد المستشفيات الخيرية .

وبدأت تطرق ابواب المخازن والمنازل راجية أن تجد عملا يعينها على القيام باودها واود تلك العائلة فلم تجد مرتزقاً ولم تكن تلقى غير الفشل حتى نفذ آخر درهم لديها وشعرت بالجوع وذاب قلبها اشفاقاً على مربيتها وابنتها التي كانت بمثابة اختها فخطر لها أن تجول في الاسواق متسولة فدفعتها الصدفة إلى تلك القهوة التي كانت غاصة ببنات الهوى وكان ما عرف القراء من امرها !..

وقد حاولت الرقاد فلم تستطعه إذ تمثل لها ذلك الفتى الذي انقذها من اللصوص فذكرت انه كان يمر بمنزلها في شربورغ كل يوم وهو فتى في العشرين من العمر وانها كانت تميل له كل الميل وتدرك من نظراته أنه كان يحبها فكان سرورها لا يوصف بعدما لاقته من الشقاء وشعرت انها تحبه حباً اكيداً فكان يخفق قلبها حين تذكر كلماته والحاحه عليها بزيارته وقد ذكرت ايضاً ذلك الشيخ الغني الكريم فشعرت بعاطفة امتنان عظيم ولكن شتان بين العاطفتين .

فانها كانت لا تفتكر بذلك الشيخ حتى تعود إلى التفكير

بذلك الفتى وتتيه في عالم التصورات . وقد نهضت إذ لم تستطع الرقاد لفرط اضطرابها واخذت تلك الورقة التي كتبها لها فقرأت فيها اسم جان رودريكوس في شارع باسانو فلما قرأت ذلك الاسم حسبت نفسها مخطئة فان هذا الفتى كان يدعى في شربورغ جان موريس فكيف تغير اسمه ولماذا هذا التغيير .

فوق ذلك كان في شربورغ مستخدماً بسيطاً ليس عليه شيء من علائم الترف والنعمة وهو الآن من كبار الاسياد يقيم في افخم الشوارع وكل ما فيه يدل على الجاه والغنى فمن اين جاءته هذه الثروة بمدة خمسة أعوام .

ولكن لا سبيل إلى الخطأ فقد عرفها وعرفته وهو لا يزال يحبها كما كان يحبها من قبل ثم انها فقيرة معدمة ولها عائلة يجب أن تعولها وهي غير قادرة على أن تعول نفسها فحسبت أن العناية الالهية ارسلت لها هذا الفتى وعولت على أن تذهب اليه في الغد فنامت وهي تحلم بهذا النصير .

بيان وإيضاح

في تلك الساعة التي خرجت فيها جانيت من قهوة الفردوس أي عند منتصف الليل ، كان الاميرال فيتراي جالساً على كرسي في منزله قرب المستوقد وهو غائص في بحار التأملات وعلائم اليأس بادية في عينيه وقد كان في باريس منذ يومين لا يخرج من غرفته إذ يخاف أن يرى زوجته وهو لا يجسر على مقابلتها

وكانت المركيزة العجوز قد دافعت عن امرأته امامه كما انها دافعت عنه خير دفاع امام امرأته بغية تسهيل التوفيق بين الزوجين فانها كانت تحب الكونتس حباً صادقاً لانها هي التي ربتها وزوجتها للكونت وقد عرف الكونت ذلك منها حق العرفان .

فبعد أن طال تفكيره ورأى أن الهم سيقتله عول على مقابلة امرأته وذهب اليها فقرع باب غرفتها قرعاً لطيفاً وحاول أن يفتح الباب فوجده مقفلا من الداخل .

فقرعه ايضاً وهو ينادي « سيدتي » إذ لم يجسر أن يناديها باسمها .

فلم يجبه احد مع أن الكونتس كانت لا تزال ساهرة بدليل وجود النور في غرفتها .

فوالى القرع فقالت له من الداخل : — من أنت ؟

— انا واني أحب أن اكلمك .

— أن الليل قد انتصف — افتحي .

وقد قال لها ذلك بلهجة الامر ففتح الباب عند ذلك ودخل الكونت فوجد امرأته ووصيفتها لويزا .

وعند ذلك امرت الكونتس لويزا أن تذهب والتفتت إلى زوجها وقالت له : اني لم اكن انتظرك في مثل هذه الساعة يا سيدي فما عودتني مثل هذا اللطف . فعض الاميرال على شفته من القهر وقال بعد سكوت قصير .

— اذن لم تكوني بانتظاري ؟

— دون شك فكيف تريد أن انتظرك ؟

— ولكن لا بد لنا من الايضاح .

— لماذا واية فائدة منه ؟

— إذا كان ذلك لا يفيدك فانه يفيدني لاعلم ما يجب أن اصنع .

— لا افهم ما تقول .

— سوف تفهمين فاني ما عدت إلى باريس الا لأضمن مستقبلي

— اما هو مضمون ؟

— ليس كما اريد فاني لا اعلم إذا كان يجب أن اقيم في باريس ام اسافر منها فلا اعود إلى الابد فقد اشتد شقائي حتى اني بت اخشى من نفسي .

— إلى هذا الحد ؟

وقد قالت له هذا القول بلهجة التهكم .

فقال لها : أن المرأة براثن كبراثن النمر تخزق بها صدر الرجل الذي يمكنها منه ويسودها عليه ويظهرلها ضعفه اما انا فلا اخاف تلك البراثن فاني اجد مخرجاً شريفاً حين اخشى على شرفي من المساس ثم قال : المرأة كلها شر وأشر ما فيها أنه لابد منها . فارتعشت الكونتس لهذه الأقوال ومضى الكونت في حديثه فقال :

لقد مضى زمن طويل على هذه الحادثة التي أريد أن أعود إلى ذكرها ولكني أريد النهاية وقد أتيت أسأل ما هي شروطك وكيف تريدين هذه النهاية .

فلم تجبه الكونتس بحرف فقال : لقد سمعت اقوالي فأجيبي

فنظرت اليه نظرة نفـذت إلى قلبه كالسهم ثم ابتسمت ابتسام قنوط ولم تجب

فدنا الكونت منها فوضع يده على كتفها وقال لها :

اني ادعى الاميرال دي فيتراي وانا زوجك وقاضيك كا كنت في قصر صخرة الغرام فاجيبي .

فاجابته الكونتس بلهجة ملؤها العظمة فقالت :

— انك ذكرت فظائع النساء فما تقول في فظاعتك وانا لا ازال اذكر صخرة الغرام أو قصر الغرام ولكن يظهر انك انت قد نسيتها .

ثم انك تكلمني بلهجة السيادة الحسب اني اخافك وما عساك تصنع بي بعد ان حكمت علي وانفذت عقابك فافعل ما تشاء فلست بامرأتك .

— اذن أنت ماذا ؟

— انا اسيرتك وضحيتك .

وكانت تكلمه بلهجة العنف والهياج فرق صوته وقال لها :

بلانش اية فائدة من هذا الهياج ؟

— حسناً فأسرع إلى قول ما تريد قوله .

وقد اختلفت الحالة فباتت السيادة للزوجة بعد أن كانت للزوج وتوقف الاميرال عن الكلام فانـدفعت بلانش في الحديث فقالت .

— انك تشكو من عذابك فماذا اقول والفرق عظيم بيننا

وكفاك انك حر طليق وانا سجينة معتزلة بامرك وزوجة من غير زوج تنفق عليها نفقات المتصدقين وتنعم عليها بالخبز فتأكله ولكن بشرط أن يكون معجوناً بالدموع ، وبالقصور تقيم فيها ولكن بشرط أن تحول إلى سجون .

وقد حرمتها من الركوع على ضريح ابنتها إذا كانت ميته ومن رؤياها إذا كانت لا تزال في قيد الحياة ، أن لك كثيراً من الاصدقاء اما انا فمالي غير صديقة واحدة وهي وصيفتي فسلها تخبرك ماذا عانيت وماذا اعاني .

وقد اراد عند ذلك أن يتكلم ولكنها قاطعته وقالت له :

اني اعلم ماذا تريد أن تقول لي وهو اني اذنبت ودنست اسمك وانك زوجي وأن هذا اللقب يجيز لك عقابي ولا تكون مسؤولا الا امام ضميرك .

نعم انك مصيب في كل هذا ولكن هذا العقاب الذي عاقبتني به رضيته لنفسي ولا ازال راضخة إلى الآن فماذا تريد بعد ذلك مني وكيف تريد تغييره .. الملك تريد استبداله بعقاب آخر ؟

ثم انك تسألني عن شروطي فاذا اردت أن تعرفها فهي هذه اني سأعيش معتزلة كما اعيش منذ عشرين عاماً واكتم امري عن جميع الناس فلا ابوح به لاحد كما تريد ولكنك مهما كنت عظيماً ومهما بلغت سيادتك الزوجية ايها الكونت لا تستطيع أن تمنعني عن كرهك وأن اعتبر نفسي من ضحاياك .

ثم قامت مسرعة غضبى إلى خزانة فأخرجت منها رسالة

اصفر لونها لتقدم العهد بها فدفعتها اليه وقالت له :

– هذا هو الحكم الذي اصدرته علي وقد قرأته مراراً كثيرة حتى انطبع في ذاكرتي .

أن هذه الرسالة ارسلتها الى يوم كنت في صخرة أو قصر الحب مشرفة على الموت .. يوم كنت اتوسل اليك جاثية باكية ليس من اجلي بل من اجل تلك البريئة المظلومة فكنت مجرداً من الرحمة .

اما اليوم فانك تسألني أن أعود اليك اذن فاسمع ما كتبته الي ثم قرأت من تلك الرسالة ما يأتي .

« اني اريد أن ابالغ في قهرك كي يمتلىء قلبك حقداً علي بحيث لو عدت اليك وانطرحت على قدميك متوسلا أن ترجعي إلى ذلك الحب القديم لنفرت مني وذعرت من لقائي وجردت قلبك من كل عاطفة اشفاق »

– الست أنت كاتب هذه السطور .. وبعد فما هذا الذي تطلبه مني الآن ..

اسمع ما كتبته لي ايضاً في رسالتك .

« لقد قضى الأمر بيننا وبات وجودي مرعباً لك فسأبتعد عنك ولكنك لا تكونين لسواي لأنك ستبقين الكونتس دي فيتراي وهذا اللقب يكرهك على الكتمان وعلى احتمال احزانك بالتسلم وعلى البكاء في الخفاء على تلك الطفلة بنت الجريمة التي ستبكينها مدى الأبد » .

الست هذه هي شريعتك التي بينت بها هذا الحكم وانا

رضيت بحكمك دون اعتراض وأنفذته علي عشرين عاماً اليس كذلك يا كونت ؟

قال : نعم .

– الم احترم اسمك الذي لا ازال ملقبة به كل هذه المدة

– لا انكر ذلك — ألك ما تؤنبني عليه ؟

– كلا .

– مع اني كنت قادرة على أن اجزيك الشر بالشر والطخ هذا الاسم الذي اكرهه وقد اتسع لي هذا المجال مراراً أتريد البرهان .

وقد فتحت عند ذلك درجاً بعنف واخذت منه عدة رسائل فدعكتها بيديها مغضبة وقالت :

أن هذا الجمال الذي دعيت من اجله الكونتس دي فيتراي اورثني كثيراً من الاهانات فان رسائل الغرام كانت تنهال علي على اعتزالي فتردني من اصحابك ومن رؤسائك ومن اهل القحة من كل صوب فيزيدون آلامي باقتراحاتهم الشائنة ولا يجسر واحد منهم أن يقول باني اجبته بكلمة أو شجعته بلحظة

ثم القت كل هذه الرسائل في النار دون أن يخطو الاميرال خطوة لاخذها وقالت :

– ليس لي فضل في المحافظة على عفافي فان ذلك من واجباتي وفوق ذلـــك فقد بت اكره الرجال بجملتهم من الاموات إلى الاحياء لفرط اساءتهم الي .

فدنا الاميرال منها وقال لها : اهذا كل ما تريدين أن تقوليه

يا بلانش ؟ — نعم .

— لقد قلت انك بت تكرهين الاحياء والاموات ؟

— ولا ازال اعيد هذا القول — وذاك ؟

— اتريديه ذلك النائم في قاع الاوقيانوس ؟

— نعم .

— ليس لك عليه شيء فقد استوفيت حقك .

— الا تريدين أن تجيبي .. الا تزالين تحبينه ؟

— اية فائده من ذكر الماضي أتريد أن تضيع رشادي ؟

— بل اريد أن تجيبي .

— لقد قلت لك الحقيقة هناك في صخرة مورجابت أو قصر الغرام وانا اقولها لك الآن ايضاً كما تريد فاني احبه ولكني لا احبه حب غرام بل حب اخاء .

اقسم على صدقي ببنتي التي اعبدها وابكيها .

وقد ذرفت دموعها عند ذلك كالسيل واسرعت إلى مسحها بيد ترتجف وقالت :

— كفى فان هذه المحادثة فوق طاقتي وقد اردت الحقيقة اني لا أحب أودي دي فيلد واني اكرهك لفظاعتك بل اني اصبحت لا اعلم ما احب وما اكره فقد ذهبت ارادتي ولا عمل لي إلا محاولة النسيان ولذلكعولت على طريقة الجأ اليها كل ما اشتدت آلامي بفضل العلم الحديث انظر إلى هذه الزجاجة فان فيها سماً قاتلاً ولكني اشرب منه جرعة صغيره فانام بضع ساعات اكون فيها شبه جثة لا اذكر شيئاً .

فأخذ الأميرال الزجاجة ونظر إليها فعلم أن الذي فيها مورفين فقالت له :

انظر إلى أين وصلت ولولا بقية رجاء بلقاء ابنتي لشربت كل ما في الزجاجة واسترحت بالموت فإني لا أحيا إلا لهذا الرجاء .

ثم وضعت رأسها بين يديها وجعلت تشهق بالبكاء فرأى الكونت الدموع تسيل من بين اصابعها وشعر أنه يكاد يذوب اشفاقاً فخففت صوت كبريائه وعلم أنه قد أخطأ الخطأ العظيم وظلم هذه المرأة اقبح ظلم وأن العقاب كان همجياً بالقياس إلى تلك الهفوة التي كان يجمل فيها العذر لحدوثها بما يشبه الاكراه فإنها لم تخطىء بعامل الغرام بل بعامل الاشفاق على فتى ربيت واياه وهو ابن عمها وقد أوهمها أنه سينتحر .

وعند ذلك وضع الكونت يده على كتف زوجته وقال لها : بلانش .

قالت : ماذا تريد هل عاد الحب إلى ما كان ، اجب أيها الكونت واعلم أن المرأة لا تقاوم وهي المنتصرة على أعاظم الرجال .

قال إنك مصيبة في كرهي فإن المصيبة فوق ما تتوهمين ,,

فرعبت رعباً عظيماً وقالت : ماذا تقول لعل ابنتي ماتت .

- لماذا خطر لك هذا الخاطر .

- لأنك قد تكون قتلتها كما قتلت اباها .

- انها طفلة لا تستطيع الدفاع فلا يحق لي قتلها .

- اذن ماذا ؟

- يجب أن تعرفي كل شيء يا بلانش فإن كل ما فعلته كنت

الوم نفسي عليه في خلواتي ولذلك ندمت الندم الشديد واردت اصلاح ذلك الخطأ الذي يدعوك إلى كرهي .

فنظرت اليه نظرة المأخوذ وقالت . ماذا ؟

– نعم لقد اردت أن ارجع اليك ابنتك التي اختطفتها منك

– احقاً أنت اردت ذلك .

– اقسم بشرفي على صدقي فيما اقول .

– انك لو فعلت لباركتك وعبدتك .

وقد نظرت إلى الاميرال وقرأت في عينيه حباً حنوناً ممزوجاً بحزن عميق .

فجثت امامه وقالت له :

– انك سألتني عن شروطي منذ حين ولكنك إذا كنت تعرف قلوب الامهات فلا بد لك أن تعرف قلبي .. رد الي ابنتي ارد اليك هذا القلب الذي ما زال كله لك وقابل الحب والغرام وانسى كل هذا اليأس والحقد .

وعند ذلك انهضها واعترف لها بكل شيء فكان مما قاله لها :

– اني لم ارد قتل الطفلة فان الرجل الشريف لا يجور على الضعيف ولكني اردت تعذيبك وحملك على بغضي لانى ما استطعت أن امحو رسمك من فكري .

وقد تعذبت عذاباً هائلا لخيانتك حتى كنت اعد نفسي سعيداً حين اعلم بأنك بتعذبين اكثر مني .

وانا لا اعلم إذا كانت الام تحب ولدها كما تقولين ولكني اعلم

أن الرجل يقتل نفسه في سبيل المرأة التي يهواها وانه إذا فقدها كان عذابه ابلغ عذاب .

وقد كنت عهدت بابنتك إلى امرأة لي بها ملء الثقة وأعطيت زوجها ثلاثين الف فرنك ووعدته أن اعطيه مثلها حين تكبر غير انى منعته أن يكتب لي بشأنها كي لا يؤلمني ذكرها الا إذا احتاج إلى مال أو اصيبت الطفلة بمكروه .

فلما لم يردني منه شيء ايقنت انها في قيد الحياة وذهبت إلى قرية بريست حيث كانت تقيم المرأة وزوجها فعلمت انهما هجرا القرية إلى جرمي وهناك علمت أن الرجل قد مات وأن المرأة ذهبت مع بنتين فلم يعلم احد اين هي ولكنهم قالوا انها لا تزال في فرنسا دون شك

فقالت له بلانش وعيناها محدقتان به وبعد ذلك .

– بحثت عنها بحثاً مستفيضاً فلم أقف لها على اثر .

– ماذا كان يدعى زوج المرأة .

– بوديت – اهو صياد .

– نعم ويشتغل ايضاً ببيع حبال المراكب .

– امات هذا الرجل – نعم .

– متى – منذ تسعة اعوام .

– الم تقف على اثر ارملته .

– كلا فقد بحثت ملياً فلما يئست لم اجسر على العودة اليك وعدت إلى العيش، عيش التائهين .

– الم تعهد إلى احد أن يتولى البحث .

– دون شك – لمن .

– لوكيل اشغالي .

– المسيو دافينو – هو بعينه .

– الم يظفر بأثر – كلا والأسفاه .

– القيته حين عودتك وسألته – نعم

فاصفر وجه الكونتس وقالت بصوت مختنق : إذن لقد فقدت ابنتي ولم يعد لي بقية رجاء .

– لا يجب أن تقنطي .

– إذا كنت تبحث عنها منذ عشرة اعوام ولا تجدها فكيف تجدها اليوم .

– سأبحث عنها في جميع جهات المعمورة .

– اتضيع ابنتي ثم ترجو أن اغفر لك .

– بلانش .

ثم اسندت كوعها إلى المستوقد وقالت له بلهجة القانطين :

– لماذا عدت الي بل لماذا اخبرتني بهذا النبأ فقد كان لا يزال لي بقية رجاء بلقائها وكنت اقول في نفسي انه لا يمكن أن يتخلى عنها وانها في مأمن من كل خطر وانك إذا كنت لم تشفق على الأم المنكودة فلا بد لك أن تشفق على الطفلة البريئة . اذن لقد كنت منخدعة ولا يزال غضب الله منصباً علي .

فحاول الاميرال اخذ يدها وهو يقول متوسلا : بلانش .

قالت : دعني .

– وإذا اصلحت الخطأ – هذا مستحيل

– وإذا ارجعت اليك ابنتك .

– لقد فات الاوان .

– كلا ولكن اتنسين الماضي .

فبرقت عيناها باشعة الرجاء وقالت : العلك تساومني وتشترط علي .

– كلا بل التمس وأتوسل .

– سيان كان شرطاً أو ملتمساً فقد رضيت ولكن اسرع أو لا تجدني في قيد الحياة .

– تشجعي يا بلانش – لم يبق لي قلب .

– اني سأضحي كل شيء في سبيل ايجادها .

– تصور أن عمرها الآن عشرون عاماً .

– لا ادع واسطة ممكنة حتى اتذرع بها .

– اتعدني بان تجدها ؟ – اقسم بشرفي .

فتنهدت تنهداً طويلا وتغلب حبها لأبنتها على حقدها فمدت يدها إلى زوجها وهي تقول : اني اضحي حتى عواطفي في سبيلها .

فأخذ الأميرال يدها وهو ينظر اليها نظرات ملؤها الحب والحنو ثم ادنى تلك اليد من فمه فلثمها وانصرف لفوره دون أن يفوه بكلمة فانطرحت بلانش على مقعد وجعلت تبكي بدموع غزيرة وتقول : رباه ارجع الي ابنتي .. رباه لقد كفرت بدموعي عن ذنبي .. رباه اشفق علي .

شارع الأغنياء

في باريس شارع يدعي شارع باسانو قريب من الشانزيليزيه بنيت فيه القصور الجميلة وبات خاصاً بسكنى الاغنياء .

وبين هذه القصور قصر شاهق كان يقم فيه جان موريس واستاذة بيير لاروش وهو احد القصرين اللذين اشترتهما الشركة الانكليزية ليقيم فيها ووضعت الخرائط على جدرانه وهو جالس امام منضدة عليها كثير من الكتب والجرائد والاوراق المختلفة شأن العلماء .

وبين هذه الجرائد جريدة التيمس الكبرى فأخذها بيير وبحث فيها عن باب الاسئلة والأجوبة السرية بحيث يستطيع من اراد أن يراسل من يتفق على مراسلته بواسطة هذه الجريدة بعبارات مبهمة لا يعرف معناها غير المتراسلين ولاخوف منها إذ تنشر دون توقيع .

وكان بيير متفقاً مع الشركة الانكليزية في لندرا على المراسلة بهذه الطريقة فلما نظر في باب الاسئلة والاجوبة قرأ ما يأتي :

« رضينا اربعين بالمئة . اسرعوا . سنرسل العامل »

فاتقدت عيناه باشعة السرور وجعل يحدث نفسه ويقول : اربعون في المائة انه كسب جميل يعينني على ادارة المهمة الاخرى والفوز في تلك المهمة العظيمة وهي زواج ماري نورمان بربيبي وتلميذي جان .

يا موريس نورمان اني كنت محتاجاً الى عجيبة من السماء

توصلني اليك فقد كنت في اسفل الدرجات وأنت في ارفع درجة حين سحقتني بكبريائك سحق الاناه اما الآن فقد قضي الامر أو كاد واصبحت القوي القادر كالافعوان الذي ينسل بين الاعشاب ويلسع من يمر به .

ثم اخرج من درج محفظة أوراق فوضعها على المائدة ونظر اليها نظرة الظافر وقال :

هذا هو سلاحي رسائل الخليلةالتي اهنتها وطردتها وقضيت عليها بالانتحار ووصية الام لولدها وصك ولادة جان موريس الذي انكرته .

نعم هذا هو سلاحي واني لست من الاغنياءولا عيش لي الا من الجرائم ولكني لا ابيع هذا السلاح بمال الارض أن المال اله يعبده اكثر الناس ولكن الانتقام اعظم منه واية لذة اعظم من أن تسحق عدوك بقدمك وتسمع صوت نزعه ويأسه !

صبراً يا موريس فإن الانتقام أعرج بطيء السير ولكنه يصل ثم عاد إلى التفكير بنفسه وقال :

ان برليت وتمبلتون صاحبي الشركة الأنكليزية من العظام ولهما قدرة ونفوذ فهما خير واق لنا من القضاء وقد كان بوسعهما أن يكرهاني على الرضى باقل من اربعين في المائة ولكنهما كريمان

وبعد فماذا بقي لي من المال الذي اعطيانى اياه لمهمة الزوج فان جان رودريكوس هذا التلميذ المطيع ، لا يبقي ولا يذر وقد تعود عيش الترف والاسراف كانه من ابناء الامراء بحيث لم يبق لدينا غير ثلاثين الف فرنك وهي لا تكاد تكفي لنفقات شهرين

في هذه العاصمة التي نعيش فيها عيش الاغنياء الروسيين .

وليس ذلك بذنبه فقد عودته هذا العيش حتى بات لو تصرف بخزينة مملكة لخربها ولكنه صار كما اريد فهو متشرع كأعظم الحامين وقد غرست فيه مبادىء الاغنياء فاصبح لا مبدأ له ولا ضمير وبات طامعاً لايحب غير نفسه ويقسو عند الاقتضاء كالقضاء وفوق ذلك فهو حلو الحديث جميل الوجه فسيأخذ بمجامع قلبك حين تراه يا نورمان ولكن الناس سيتحدثون بك وبه ساعة ويا لها من ساعة والآن فلا ذهب إلى هذا التلميذ الطاهر ولا تفقده .

ثم خرج من هذه الغرفة وذهب إلى جان فوجده مطرقاً مفكراً فقال له بماذا تفتكر يا بني ؟

فلم يجبه جان على سؤاله وقال له : كيف حالتنا الآن ؟

— اتعني بها الحالة المالية .

— دون شك اما علمتني أن المال هو المحور الذي تدور عليه الغايات كلها ؟

— هو ذاك يا بني فان المال هو كل شيء في الوجود العلك محتاج إلى شيء ؟

— نعم — متى ؟

— في الحال .

— ايمكن أن اعلم السبب في هذا الاحتياج السريع ؟

فابتسم جان وقال : لا تتجاهل ايها الاستاذ فانك السبب

— العلك تشير إلى فتاة الامس — هو ذاك .

— اعزمت أن تبدد الاموال في سبيلها .

— لا اجد لانفاقها خيراً من هذا السبيل .

— العلها جميلة إلى هذا الحد .

— ولكنك انت نفسك فتنت بجمالها الم تر كيف احدقت بها الابصار حين دخلت إلى قهوة الفردوس بالرغم عن ظواهر فقرها وشقائها .

— اذن انت تحبها — هو ذاك .

— لقد كنت احسبك غير جدير بان تحب غير نفسك .

— لكل قاعدة شواذ — انك تدهشني في ما تقول

— الا تذكر حين قدومنا إلى باريس مـا حدثتك به عن غرامي .

— احذر يا بني من الغرام فان من كان امثالنا لا يفضح امره غير النساء . وبعد فكيف تعشق في يوم واحد .

— أن هذا العشق رضعته مع اللبن فان فتاة الامس هي فتاة شربورغ .

— احق ما تقول .

— نعم واني انتظرها اليوم .

— ولكن هل أنت واثق من انها هي بعينها .

— كل الثقة .

— ما حملها على المجيء إلى باريس .

— ما يحمل سواها — تريد ان تقول الفقر .

— هو ذاك ؟

— اذن ستغدق عليها النعم .

– هل استطيع أن ادعها في فقرها وانا احبها هذا الحب

– اين تريد أن تقيمها .

– سوف انظر في هذا الامر .

– اريد أن تجملها خليلتك – دون شك

– ولكن يجب أن توافقك على ذلك .

– لا ريب عندي بجملها على الرضى فانها تحبني وتعلم اني احبها وسأخرجها من هذا الشقاء وانسيها كل احزانها ولا ازال بها صاغراً متوسلا حتى ترضى .

– وماري .

– انت تعلم باني لا احبها .

– ولكنها بارعة بالجمال .

– لا انكر ما تقول – وغنية

– دون شك ولكنها تجارة اما تلك فهي الحب .

– وإذا علم موريس نورمان أن خطيب ابنته جان رودريكوس يعشق امرأة ويتخذ له خليلة وهو على اهبة الزواج فماذا يقول .

– أن باريس متسعة فلا يعلم بها ولا سبيل إلى اقناعي فلا اثني عن عزمي والآن قل لي كم بقي لدينا من المال .

– لم يبق غير ثلاثين الف فرنك .

– انه مبلغ قليل !

– نعم ولكنهم في لندرا ضاق صبرهم فانك تنفق النفقات الكثيرة يا جان دون كسب .

– اني اريد أن اقترح عليك اقتراحاً بشرط .

– ما هو .

– هو أن تسلفني عشرة آلاف فرنك .

– هذا هو الاقتراح وما هو الشرط .

– هو أن أوافق على مهمة بائع الالماس .

– والزواج .

فاضطرب جان وقال : يسوءني أن اخدع هذه الفتاة ولكن إذا كنت تلح علي . – ماذا ؟

– ارضى ولكن أنت تضع لي الخطة التي يجب أن انهجها .

فأشرق وجه بيير وقال : الآن اعجبتني يا جان فان العاقل من يقسم اوقاته بين اللهو والجد فقد اتفقنا الآن فاقرأ .

ثم اعطاه جريدة التميس ودله على رسالة الشركة الانكليزية فقرأها وقال اذن لقد تم الاتفاق

قال : نعم الامر سهل لا يكلفهم شيئاً وسيكون لنا فيه كسب كثير وانما اريد أن أقول ان هذا الكسب سيكون لك وحدك لاني على فقري غير محتاج إلى المال وبعد هذه المهمة تأتي مهمة الزواج .

– هذا إذا لم نفشل .

– أن الاعمال التي يتولاها بيير لاورش لا تفشل فاعمل بما اقوله لك اضمن النجاح ومتى قبضت المهر فاذا وجدت العروس لا تعجبك ...

– لقد فهمت قصدك فان البر واسع .

- والدنيا لمن غلب !
- ولكني اشفق على تلك الفتاة المنكودة .
- لا تشفق على أحد إذا أردت أن تعيش فان الدنيا ميدان سباق .
- بل انك الشيطان بعينه
- قد اكون كما تقول ولكن هل زلت قدمك يوماً منذ تبعتني .
- كلا ؟
- وهل يعوزك شيء من الحرية واللهو والترف .
- كلا ولكن تمر بي ساعات اندم فيها على منصبي القديم في شربورغ .
- أن الطريق مفتوحة فاذا شئت عد إلى شربورغ .
- لقد فات الاوان اذ تعودت عيش البذخ .
- اذن سر امامك ولا تخف فانك تريد مالا وسيكون لك ما تريد .
- سأفعل .
- انما يجب أن تبالغ في كتمان امورنا ولا سيما امام هذه الخليلة .
- كن مطمئناً .

وقداخذا عند ذلك يتحدثان على سبيل المباسطة في امورهما الماضية من عهد التلمذة إلى سفرهما إلى اورليان الجديدة وعودة جان منها باسم جديد ومائة الف ريال .

فلما انتهيا إلى هذا التذكار تجهم وجه جان وانقبضت نفسه فانه كان يود أن يمح ذكرى هذه الحادثة من ضميره .

وتفصيلها انه قتل فتى من الاغنياء في اورليان الجديدة يدعى جان رودريكوس فسلبه مائة الف ريال وتسمى باسمه وأخذ أوراقه وعاد استاذه إلى لندرا يلتمس الثروة بالمضاربة في البورصة ولكن الثروة هزأت به وتسربت امواله إلى جيوب سواه .

ومن ذلك العهد بدأ تسلط بيير لاروش عليه فانه كان قد تعرف بتلك الشركة الانكليزية وجعل ينفق عليه عن سعة ويدربه كما يريد حتى بات اطوع له من بنانه .

اما بيير فانه لا يفتكر الا بالانتقام من موريس نورمان فكان يسير اليه بصبر الخلد الذي يحفر الارض حتى إذا عد معدات الانتقام ووافقه تلميذه على كل مايريد جعل يبتسم ابتسام الظافر لوثوقه من الفوز التام .

لغة العشاق

لقد تركنا جانيت نائمة بعد أن فكرت ملياً بذلك الفتى الذي انقذها وبذلك الشيخ الذي احسن اليها .

ففي اليوم التالي صحت من رقادها مبكرة فذهبت إلى السوق وجاءت بالطعام لمربيتها ثم عادت فاشترت ثوباً جديداً فلبسته وذهبت تواً إلى منزل سانت كلير !

وكانت قد وعدته بزيارة في الساعة العاشرة كما تقدم ولكنها وصلت بعد ربع ساعة لانشغالها بشراء الثوب فلم تجده وقيل لها انه خرج إلى النزهة حسب عادته في كل يوم !

وقد سألوها عن اسمها ولكنها ابت أن تذكره وكيف تذكره وهي لا اسم لها فقالت انها ستعود وذهبت وهي آسفة لهذا الاتفاق فانها خشيت أن يسيء بها الظن ذلك الشيخ الجليل الذي احسن اليها كل الاحسان .

وعند ذلك ركبت مركبة وامرت السائق أن يسير بها إلى منزل جان رودريكوس .

وقد اتفق لسوء حظ هذه المنكودة أن الشيخ الذي كان يريد حمايتها وانقاذها لم تجده واما الفتى الذي كان يريد غوايتها وضلالها فقد وجدته ينتظرها فكأنما القدر اراد أن يساوي بين حظها وحظ امها وهناك استقبلها جان بملء الاحتفاء فقالت له

لقد وفيت بوعدي واتيت لافيك حق الشكر والامتنان .

وكانت تضطرب لنظرات الفتى ويحمر وجهها .

وكذلك جان فانه كان يضطرب اضطراب أوراق الخريف بقربها فتلعثم لسانه عن الكلام على زلاقته وسكت هنيهة سكوت وعي ثم قال لها .

اسمحي لي يا جانيت أن ادعوك بهذا الاسم واعلمي يقيناً أن كل ما رأيته لا ينقص شيئاً من ميلي اليك فان الحياة يعتورها كثير من الصعاب .

قالت : واية صعاب يا سيدي فهي هائلة !

– اني لا اعتقد بالصدفة ولكن التقاءنا بعد ذلك الفراق لم يكن دون شك الا بعناية من القدر .

فاطرقت برأسها وقالت ربما .

– اتذكرين ايامنا في شربورغ حين كنت اراك في كل يوم في نافذة غرفتك وهل تشعرين بما كنت اشعر به من هذه الذكرى

– اني لم انس .

– وقد رأيتك ليلة امس فلم اصدق عيني .

– واأسفاه .

– نعم اني ذهلت حين رأيتك في ذلك المكان واشفقت لشقائك كل الاشفاق اني تركتك في مقتبل الشباب في شربورغ ولكني كنت اميل اليك ميلا اعظم مما تتصورين وقد سافرت ومرت بنا الايام والليالي ولكنك كنت ماثلة في ضميري .

وكانت تدفعني كل يوم قوة خفية الى المرور بمنزلك فكنت اختلج حين اراك واقول في نفسي لا بد أن تستحيل هذه الصداقة فنصبح بعد كبرك اكثر من صديقين !

ولم اكن مخطئاً في ظنوني فان الصدفة قد جمعتنا اليوم بعد ذلك الفراق الطويل .

وكان جان يتكلم بلهجة اخلاص صادقة فان اشد الناس شراً اذا بحثت في خفايا قلبه لا بد أن تجد فيه مكاناً نقياً وكانت جانيت تنظر اليه وتتبين الاخلاص بين عينيه فقالت له :

لا بد أن تكون قد سألت نفسك امس عن السبب في ذهابي الى هذا المكان الذي لقيتني فيه ؟

– انه الفقر دون شك .

– وهو فقر بل شقاء اعظم جداً مما يخظر لك .

– ولكنكم في شربورغ كنتم تنفقون عن سعة ؟

– كنا ننفق آخر ما بقي لدينا .

– وقد كان لك ام واخت .

– ليس لي ام ولا اخت ولا عائلة اما تلك المرأة التي كنت ادعوها امي فهي التي ربتني وتلك الفتاة التي كنت ادعوها اختي هي ابنتها .

– وابوك ليس لي ابا .

– وامك ؟

– انكرتني كما يظهر فاني لا اعرف اين تقيم بل لا اعرف اذا كانت في قيد الحياة اذ لم يكلمني احد عنها .

– ذلك عجيب !

– ولكنه الحقيقة .

– وتلك المرأة التي كانت تربيك الم تخبرك شيئاً عن امك

– اني حين كبرت وصرت قادرة على سؤالها باتت عاجزة عن جوابي – لماذا ؟

– لانها باتت مجنونة – مجنونة .

– نعم وجنونها هادىء ساكن ولكنه لا يقبل الشفاء

– لقد كان لها زوج كما تقولين .

– نعم – ماذا كان يعمل .

– كان صياداً ويبيع حبال المراكب .

– اين كانت ولادتك .

– لا اعلم – كم عمرك .

– عشرون عاماً كما اظن .

– كيف كما تظنين الست واثقة -- كلا

فتجهم وجه جان وحسبت جانيت أن هذا التهجم شكاً فقالت له اية فائدة لي من الكذب .

قال : اني لم يداخلني شيء من الريب فيما تقولينه ولكني افكر في امر الم بي .

– ما هو ذاك ؟ -- سوف تعلمينه .

– متى ؟

– متى ساعدني الحظ فأوصلت الى قلبك شيئاً من هذه العواطف التي يختلج بها قلبي .

فهزت رأسها بحزن وقالت .

أن طريقنا لا يمكن أن تكون واحدة فاني حين كنت هناك في شربورغ كان يحق لي أن افتكر بك وأنظر اليك بعين المساواة اما الآن فان المقام قد تباين بيننا وبت خائفة من ثروتك .

– وماذا يهمك غناي فانت غنية ابضاً بجمالك وشبابك وانك لا تستطيمين ادراك ما يداخل قلبي من السرور حين اسمع كلامك العذب وكيف اهتز فرحاً حين أراك فاين كان يقيم هذا الصياد الذي كان يتولاك ؟

ـ في إحدى قرى بريتانيا في ضواحي بريست .

ـ ما اسم القريــة التي كنتم فيها !

— واسان — وبعد ذلك .
— اقمنا بضعة اعوام في قرية انكليزية في جرساي .
— لماذا ذهبتم اليها .
— لا أعلم ولكني اذكر أن ذلك حدث على اثر خصام بين الزوج وبين سكان القرية فقد كان سكيراً مقامراً .
— وماذا كنت تصنعين في تلك القرية .
— كنت اذهب الى المدرسة وكان الزوج يشتغل نادراً ويقيم معظم اوقاته في الحانات اما الزوجة فكانت تبكي .
— في اي عهد برحتم جرساي .
— كان لي من العمر يومئذ احد عشر عاماً .

وقد كان بيير لاورش جالساً في آخر القاعة يتظاهر انه منهمك في أوراقه وهو يصغي الى الحديث اتم الاصغاء فانتبهت جانيت لصوت تقليب الاوراق وقالت له من هذا الرجل !

قال : لا تخشي فانه صديق قديم اعده بمثابة ابي .

اما بيير فانه عجب لهذا الاتفاق ولهذه المشابهة بين الاثنين فان جان ايضاً لم يكن يعرف اباه فان بيير لم يخبره بشيء الى أن يحين الاوان

وكان من عادته شأن جميع اهل الرسائل أن يهتم لكل حادث خفي وقد اعجبته حكاية الفتاة ورجا أن ينال منها خيراً فجعل يكتب مذكرات بكل ما يسمعه من الحديث .

واما جانيت فانها عادت الى الحديث فقالت .

— لقد اخبرتك بشقائنا واليك تفصيله فاننا حين كنا في

جرساي كانت بنت مربيتي لا تزال طفلة .

ولم يكن زوجها من اهل الشر ولكنه كان سكيراً كما قلت لك وقد ساءت اخلاقه لكثرة ادمانه فعاد ليلة الى المنزل وهو مفرط من الشراب فمنعته امرأته تعنيفاً اليماً فغضب غضباً شديداً وانتزع الطفلة من حضن امها وحاول أن يجلد بها الارض لغضبه

فرعبت تلك الام المنكودة رعباً لا يوصف وفي اليوم التالي اصيبت بحمى شديدة وبعد اسبوعين فاجأها الهذيان حتى اذا شفيت من الحمى اصبحت مجنونة .

وبعد بضعة ايام مات الزوج وقد قتله سكره وهمه وكان عمر الطفلة عاماً واحداً .

— ابقيت وحدك معها — وحدي .
وكان عمرك اثني عشر عاماً — بالتقريب .
— الم يكن لكم مال ؟

لم اكن افهم معنى النقود في ذلك العهد فقد كنت العب مع اترابي على شاطىء البحر بعد الخروج من المدرسة ولكني كنت نشيطة قوية فأشفق الجيران علينا وقد فتشت في دروج المنزل فوجدت نقود انكليزية تبلغ ثماني ليرات وجعلت انفق منها بوصاية الجيران ثم تضايقوا منا فحسنوا لنا العودة الى فرنسا موطننا واقترحوا علينا أن يدفعوا عنا اجرة السفر فباعو لنا مركب زوج مربيتي واثاث البيت واتينا الى شربورغ .

— الم يكن لكم مورد غير ثمن المركب .
— سوف ترى فاننا حين عزمنا على مبارحة جرساي عاد

الصواب فجأة الى مربيتي فنظرت الى ما حواليها كي تستوثق انه لا يوجد في الغرفة سوانا ثم ذهبت الى احدى زوايا الغرفة فركعت وانتزعت بلاطة ثم مدت يدها فأخرجت علبة كان فيها كثير من الاوراق المالية وربما كانت قد خبأت هذا المال خوفها عليه من زوجها .

— كم كان مبلغ المال .

— خمسة عشرة الف فرنك — من اين جاءها .

— لا اعلم ولكن المربية اعطتني العلبة وقالت لي هذا الكلام الذي لا انساه « خذي هذا المال فهو لك » ثم سافرنا .

— الم يكن يوجد شيء في العلبة غير المال .

— كلا — اذكري جيداً .

— لقد فتحتها حين أعطتني اياها فلم اجد غير النقود .

— الم تجدي رسائل أو غيرها من الاوراق في المنزل

— كلا .

— الم يزر الصياد وانت عنده رجل أو امرأة غريبان .

— لقد فهمت قصدك فانك تريد أن أبي وامي اللذين اودعاني عند هذا الرجل لاسباب مجهولة ولا بد أن يكونا زاراه للوقوف على اخباري .

— هو ذاك .

— كلا فلم يكن يزوره احد لا اعرفه ولو زارني ابي وامي لعرفتهما من حنوهما ولكن لم يسأل عني احد بعد هذه الجناية .

وقد زادتنيه بير لاروش في الاصغاء وكان ينظر اليها محدقاً

من خلال أوراقه كأنه يريد أن يطبع رسمها في ذاكرته اذ ادرك أن هذه الفتاة لا يمكن أن تكون ابنة رجل فقير بدليل هذا المال الذي كان موجوداً عند مربيتها .

وعادت جانيت إلى الحديث فقالت .

— ولما وصلنا إلى شربورغ اقمنا في فندق كان صاحبه من اهل الخير فأشفق علينا فاخبرته ببعض امرنا فاكترى لنا منزلا وهو ذلك المنزل الذي كنت رأيتنا فيه واقمت هناك اعول مربيتي وطفلتها لا يعينني غير امرأة عجوز من أهل القرية وقد عرفت أن اكتم خبر المال عن جميع الناس فكنا نعيش به دون أن يعلم احد كيف نعيش .

— وهذه الطفلة الا تزال حية .

— نعم .

— وامها .

— لا تزال مجنونة وجنونها سبب كل شقائنا .

ثم تنهدت تنهداً طويلا وسالت دمعة من عينيها اسرع إلى مسحها لها جان .

— انك لم تكوني تبكين هناك بل كنت تنمين نمو الوردة وكم مرة مررت بمنزلك وأنت في النافذة فكنت احييك والبث كل يومي لا افتكر الا بك .

— وانا كنت ابتسم لتحيتك ولكني لم اضحك ولم ابتسم من عهد بعيد واأسفاه .

وعند ذلك نظرت جانيت إلى اثاث تلك القاعة الجميلة وكل

ما فيها مما يدل على الثروة فنظرت إلى جان نظرة تدل على سرورها بلقائه وحاجتها إلى العزاء والخلاص من شقائها ولكن هذه النظرة كانت ممزوجة بتعجب شديد لهذه الاستحالة فقالت له .

انك تدعى جان رودريكوس كما قرأت في الورقة التي اعطيتني اياها .

– دون شك .

– لماذا تخدعني .

– كيف ذلك .

– انك لم تكن تدعى هكذا هناك .

– اتظنين .

– بل اؤكد فقد كنت تدعى جان موريس اليس كذلك .

فهز جان كتفيه متكلفاً المسكنة وقال :

– الم أقل لك أن في حياتي انا سراً ايضاً .

– اتطلعني عليه .

– دون شك .

ثم همس في اذنها قائلا : ماذا يهم الاسم فان الذي يكلمك الآن هو ذلك الصديق القديم المخلص فأتمي حكايتك يا جانيت ولا تجزعي لشقائك فلي من اسباب الهناء ما يكفي الاثنين .

قالت : لقد خبأت المال كما خبأته المربية من قبل وكان قليلا لا يكفي لان نعيش من ريعه وفوق ذلك فقد كنت صغيرة لا افهم شيئاً من هذه الامور ولكني كنت اخاف حين ارى

هذا الكنز يتناقص في كل يوم .

وكنت اغتنم فرصة في كل يوم فأذهب إلى المدرسة للراهبات فأتعلم فيها العلوم وأعلم البنات مقابل ذلك اللغة الانكليزية التي اتكلم فيها كأبنائها .

وقد مضى على ذلك ستة اعوام اتممت فيها دروسي وكان الجيران يعينوننا في كل امر بذلك الاخلاص الذي اشتهر به اهل الريف ولم يكن باقياً لدينا غير الفي فرنك .

فالتمست عملا بمساعدة الراهبات الى أن جاء رجل في يوم إلى المدرسة من باريس وعليه دلائل الصلاح فعرف امري وأشار علي أن اذهب إلى باريس وتعهد لي أن يقيم مربيتي في احد المستشفيات وأن يجد لي عملا مضموناً ثم دفع الي عنوانه وانصرف فاقمت اسبوعاً افتكر في ما نصحني به أن اغتررت باقواله وسافرت إلى باريس مع مربيتي وابنتها .

وهناك لقيت هذا الرجل واني اخجل أن اخبرك عن الثمن الذي طلبه مقابل هذه المساعدة فرجعت عنه منذعرة وندمت لحضوري الى باريس ولكن لات ساعة مندم فقد رجوت أن اجد في هذه العاصمة الكبرى عملا فمضت الايام والشهور وانا احرص على ما بقي لدينا من المال حرص التائه في البحار على ما لديه من الخبز ولكن جميع ما بذلته من المساعي ذهب ادراج الرياح حتى عولت على الخدمة في احد المنازل فذهب بي احد السماسرة الى منزل رجل لم اعمل فيه غير يوم واحد وهربت عند المساء تاركة اجرة ذلك اليوم لان الرجل كان من

اهل الفجور .

وكانت مدة اقامتي في باريس ثمانية عشر شهراً تجربت في خلالها وذهبت عني بساطة بنات الريف الى أن كان يوم امس ولم يبق لدي درهم اشتري به رغيفاً فخرجت في الليل هائمة على وجهي وانا عازمة على الانتحار في السين ولكني ذكرت تلك المسكينة وابنتها وقلت في نفسي ترى ما يكون مصيرها من بعدي واذا نجوت بالانتحار فكيف تنجوان فخطر لي خاطر هائل ودخلت الى قهوة الفردوس التي رأيتني فيها تلك القهوة التي لا يدخل اليها غير المتهتكات .

ولا أدري ما كان مصيري لو لم اجد رجلا نبيلا عرف شقائي من وجهي وتصدق علي ببضعة دنانير كما يتصدقون على ابناء السبيل .

ولكني لا انسى جميله ما حييت .

فابتسم جان ابتسام المشكك وقال اتعرفين هذا الرجل يا جانيت .

قالت كلا لم اكن اعرفه ولم يكن يعرفني ولكنه انقذ حياتي فلو سألني أن القي نفسي إلى النار من اجله لامتثلت وانما اقول انقذ حياتي لأني كنت عازمة على الانتحار اذ يستحيل أن ابيع نفسي بالمال .

وعند ذلك سكتت وتنهد الفتى تنهد الارتياح اذ وثق من صدق روايتها ولقيها كما كان يعرفها في شربورغ فآلى على نفسه أن تكون له اذ كان يحبها حباً صادقاً وعزم على أن يضحي كل

عزيز في سبيل المال بغية ارضائها بحيث لم تعد تخيفه تلك الجنايات التي اقترحها عليه استاذه بعد أن غلبه جمال تلك الفتاة

وقد تمعن هنيهة بمحاسنها وهو ينظر اليها نظرة المأخوذ ثم قال لها والآن ماذا عزمت أن تفعلي ؟

فتنهدت وقالت لا اعلم .

ـ ولكنك اذا اردت يا جانيت بددت شقائك كما تبدد الرياح الغيوم ...

ـ كيف يكون ذلك ؟

ـ أن ذلك الذي ذهبت تبحثين عنه في قهوة الفردوس ..

ـ من هو ؟

ـ عشيق .

ـ لا تقل هذه الكلمة فقد عدت الى منزلي وقلبي يكاد يثب من صدري لخطور هذا الخاطر الاثم ببالي فما كنت التمس غير شيء من المال اطعم به تلك المسكينة وابنتها اللتين تركتها جائعتين الا قبحت تلك الأم التي تتخلى عن طفلتها فلو قتلتها لكان اثمها اهون .

ـ لقد اصبت ولكن اتحسبين انك منفردة بالشكوى من هذا التخلي اعني أن حكايتي قد تشبه حكايتك فان ابي تخلى عن امي بعد أن اغواها وانا لا اعرف اسم ابي فانت ترين اننا متساويان واني ادعى جان فقط كما تدعين أنت جانيت .

ـ ولكن هذا الاسم الآخر ؟

ـ اتعنين به جان رودريكوس ؟

– نعم .

– لقبني به احد المحسنين الي وقد وعدتك إلى أن ابوح لك بسري وسأبوح لك به فيما بعد ..

– ولكن هل نجتمع بعد الآن ؟

– أن حياتي قد اتصلت بحياتك كما قلت لك .

– انها أوهام .

– وإذا شئت لا نفترق لحظة .

– اضغاث احلام ؟

– بل هي حقيقة راهنة فاني لقيت جميع انواع الشقاء

– هو ذاك ؟

– وليس لك من معين في هذا الوجود ؟

– كلا :

– اذن سأقدم هذا المعين ؟

– اهو أنت ؟

– نعم انا فلقد فقدتك ثم لقيتك فكل مالي فهو لك بعد أن تحققت امنيتي ، تلك الامنية التي لم اكن احلم الا بها حين كنت اراك هناك في النافذة وبين الاعشاب والرياحين في الحقول والبساتين .

وقد كنت مثلك فقير معدماً ولكن الصدفة جعلتني من الأغنياء فكيف لا امد لك يد المساعدة بل كيف ترفضين قبول هذا المعين الذي يريد أن يكن لك بقلبه عطف وأن تعاملينه بمثل هذا العطف دعيني يا جانيت أن اكون ذلك النصير فأنسيك

ذلك الشقاء القديم وتعيشي مع مربيتك وابنتها في بيت تكتنفه الخضرة والنعيم بحيث تكونين آمنة مطمئنة فيه كالحمامة في عشها

لا ترفضي يا جانيت فاني لا اسألك مقابل ذلك الا أن تأذني لي بان ازورك احياناً زيارة الصديق المخلص بل زيارة الأخ الوفي الحنون وسأستأجر لك منزلا في ضواحي باريس فلا تمر بك بضعة ايام حتى تكوني فيه على ما تشائين .

لا ترفضي يا جانيت ولا تحسبي أن الشرف يدعوك إلى رفض معاونة الصديق .

وهنا استفاض في الحديث وقد انطلق لسانه لما كان يقرأه في عين الفتاة من سور الميل والاخلاص .

وقد كان يكلمها بلهجة الخلوص ولا يذكر لها كلمة من غرامه لاعتقاده أن صعود الدرج لا يكون الا تباعاً وانها متى رضيت بقبول نجدته والاقامة في المنزل الذي يعده لها والانفاق من ماله بحجة مساعدتها إلى أن تجد عملا فلا شك انها ترضى بغرامه لا سيما وانها تميل اليه كل الميل من عهد بعيد .

وقد كانت في أشد حالات الشقاء وما رأت من ذلك اللسان غير كل ما يدل على الاخلاص الا كيد فوثقت من حسن قصده وساعدها ميلها اليه على هذا الوثوق فلما انتهى من حديثه المنمق قالت له :

– هو ما تقول ولكنها احلام فزدني من حديثك وقل ماذا تريد ..

وكان هذا القول منها شبه استسلام دون تحفظ وايقن جان

انه ادرك الغرض الاساسي فقال لها :

اني لا اريد الا أن تكوني سعيدة يا جانيت فليس هذا وقت اظهار العواطف التي يختلج بهـا قلبي فصبراً إلى أن تنسي هذه المصائب التي توافدت عليك ومتى نفع هذا البلسم جراحك القديمة نعود إلى البحث في شؤون المستقبل اما الآن فلا اريد أن انظر الا في الحاضر

ثم اخبرها بما يجب أن يصنعه وهو أن لا تبقى ساعة في ذلك المنزل الذي تقيم فيه وانه سيذهب معها فتشتري كل ما تحتاج اليه ولمربيتها وابنتها ثم يبحث لهـا عن منزل في ضواحي باريس .

ولكنها بقيت مترددة فقالت له : كلا لا استطيع .

غير انه لم يبال برفضها وعاد الى الالحاح بكل ما اوصته اليه قريحته الوقادة من عبارات الرفق ووسائل الاقناع .

ففكرت في امرها وقالت في نفسها ترى مما اخاف فلا احد يعرفني وليس من ينتبه الي في هذا الوجود وإذا ابيت مساعدة هذا الاخ فكيف اعول مربيتي وابنتها .

وقد ادرك انها خائفة من حبه ولكنه تدارك ذلك الخوف فانه كان يحبها حقيقة ولا فائدة من الانكار غير انه صبر اعواماً فلا بأس أن يصبر ايضاً بضعة ايام .

وعند ذلك جعل محور حديثه على الصداقة والاخاء وبالغ في بيانه عواطف اخائه حتى خدعت المنكودة باقواله اتم الانخداع ووافقته على اقتراحه وبعد ساعة كان ينتظرها في مركبة مقفلة

عند باب مخزن اللوفر اذ دخلت اليه لشراء ما تحتاج اليه .

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر كانت مقيمة مع مربيتها في فندق دلها عليه جان واوعز اليها أن تبقى فيه إلى أن يعد ممعدات المنزل الجديد ولما عاد جان الى المنزل لقيه بيير قال له : ماذا فعلت اوقع الطير في الشرك .

قال : تقريباً .

ـ تمتع بشبابك يا بني ولكن احذر .

ـ لا تخف فقد علمتني الحكمة .

ـ وهو الذي ارجوه منك فان جانيت ستكون نعيمك وماري ثروتك إذا احسنت التصرف !

ـ سأمتثل لكل ما تأمرني به .

ـ إذن خذ هذه الأوراق المالية فهي عشرة آلاف فرنك .

ـ أأستطيع أن اتصرف بها كلها .

ـ نعم ولكنها ستدع فراغاً في الصندوق .

ـ سوف نملأه .

ـ كم انفقت في هذه الرحلة على خليلتك الجديدة .

ـ الف فرنك وقد اتعبتني كثيراً حتى اقنعتها بقبول هذه القيمة

ـ لا بأس ولكني قد وفيت بوعدي فوجب عليك أن تفي بوعدك ..

ـ سأفعل فاني ما تمنيت الثروة بقدر ما تمنيتها اليوم .

ـ العل ذلك من اجلها .

ـ ربما .

ـ حسناً فستكون غنياً في وقت قريب يا بني .

ـ وأنا سألبث تلميذك الطاهر وولدك المطيع .

ـ هكذا اريد أن تكون يا جان وهذا الذي يحببني فيك

البحــث

كان الاميرال دي فيتراي قد خرج من عند امرأته وهوفاقد الرشد مضعضع الحواس فان كل رجل في الوجود لا بدأن تعترض امرأة في سبيله فتتعلق بها اطماعه وفائدته واعماله فاما ترفعه إلى حيث يشتهي أو تنزل به الدرك الاسفل وقليل من الرجال ينجون من هذا القدر الذي قد يجوز تسميته بالمرأة .

ولقد كان الاميرال من اهل العزيمة والهمة وله قلب كأنه قد من الصخرغير أن المرأه حلت في هذا القلب وملأته فكان مثلها مثل تلك الاعشاب التي تعلق بالجدارن فتنمو عليها حتى تغطيها

وقد اثر به غضب بلانش ويأسها ودموعها تأثيراً عظيما فجرد نفسه لاول مرة من كبريائها فتجلت له الحقيقة وايقن أن العدل يقضي عليه بترضية امرأته وأنه كان من الظالمين وانه اصبح مغلوباً بعد عزته فقد غلبته امرأة وهي امرأته وعول البحث عن ابنتها وارجاعها اليها تكفيراً عن ظلمه السابق .

ولكن كيف يجدها فقد طالما بحث عنها فبات تلك الليلة على احر من الجمر حتى إذا اصبح برح منزله مبكراً وسار تواً إلى

وكيله المسيو دافنيو فلقيه وقال له : اني قادم اليك لمباحثتك في تلك المهمة التي كلفتك بها ؟

قال : الا تزال تفتكر بها ؟

ـ دون شك اذ لا استطيع أن انساها واني اريد أن تبذل اخر مجهودك في البحث .

ـ اظن أن الفرصة مناسبة .

ـ كيف ذلك الملك وجدت اثراً .

ـ نعم ولكنه أثر ضعيف ـ متى ؟

ـ امس فهل لا تزال مصراً على ايجاد الفتاة ؟

ـ كم تبلغ ثروتي التي تتولى ادارتها ؟

ـ نحو عشرة ملايين .

ـ اني مستعد لتضحيتها بجملتها في سبيل ايجادها .

ـ انك مصيب فانك تمحو بوجودها أثار أحزانك على اني لا استطيع أن اؤملك ولكني ارجو أن تساعدني الصدفة .

ـ كيف ذلك ؟

ـ انك تعلم يا سيدي باني بحثت بحثاً مستفيضاً دون فائدة فقد فقدت اثرها من جرساي فان زوج المرأة التي عهدت اليه بالفتاة قد مات والمرأة قد اختفت وقد علموا انها عادت إلى فرنسا ولكن البحار الذي اوصلها مع البنتين قد غرق فحسبنا يومئذ أن المركب قد غرق بجميع ركابه .

ـ وبعد ذلك ؟

- اتعرف يا سيدي الكونت دانتي ؟
- اعرفه بالسمع .
- انه مات اخيراً وعهد الي بتصفية اشغاله فراجعت دفاتره وقرأت في دفتر الايرادات ما يأتي :
« ١٥٠ فرنكاً اجرة منزل في شربورغ مقبوضة من امرأة بوديت »
فدهش الاميرال وقال : من اي تاريخ ؟
قال : منذ سنتين — وبعد ذلك ؟
- لم اجد اسم هذه المرأة في الدفتر .
- اذن سأذهب بنفسي إلى شربورغ وأعلم اين ذهبت هذه
- ليكن ما تريد ولكن ما هذا الاضطراب أحدث أمر جديد
- نعم لقد حدث ما يجب أن اتوقعه فان الكونتس باتت تكرهني وحقها أن تكرهني .
- وأنت ؟
- وانا إما استرجع رضاها أو اموت ولا اكتمك امري فانك عارف بدخائل سري فقد مرت بي ساعات حاولت مراراً أن اطلق المسدس على صدغي وأستريح .
- فذعر دافينو وقال : انت ! — نعم :
- انت الجندي !
- لست باول جندي ينتحر — انت الاميرال !
- ليس صدغ الاميرال اشد صلابة من صدغ سواه .

- أنت المؤمن الذي يحرم عليه إيمانه الانتحار !
فأطرق الاميرال هنيهة ثم قال :
نعم انا الجندي والاميرال والمؤمن وكل ما شئت فإني تمر بي ساعات احاول فيها الانتحار حين يتمثل لي ذلك الشقاء الذي قيدتني به الاقدار بسلاسه فلقد خلقت غنياً شريفاً قوياً اهلا لاتمام كل ما يقضي علي به واجب الشرف والمروءة فاصبحت من انكد الناس عيشاً بسبب غرام غير جدير بي ولقد طالما فكرت بامري ولاح لي أن كثيرات من النساء لهن ما لامرأتي من الجمال يتمنين أن يكن محلها وانه لم يبق لي الا أن اطلق سراحها وسراح نفسي ولكن إذا كنت قادراً على كسر قيدها فقد اصبحت عاجزاً عن كسر قيدي وقد علت يداي إلى عنقي ورسفت به كما يرسف المجرمون فماذا اصنع ؟
- لقد وجدت الأثر الآن فلم يبق الا البحث وليفعل الله ما يشاء فاصبر على ما انت فيه كما هي صابرة فانها تجد من فراق ابنتها فوق ما تجده من هجرها .
- اذن سأسافر غداً .
- اعزمت على ذلك ؟
- دون شك فان ارض باريس باتت تحرقني .
- انهم يعرفونك في شربورغ وأنت اميرال .
- نعم ولكن منصبي لا يمنعني عن التنزه متنكراً في الريف فأعد علي تلك التفاصيل فقد قلت أن البيت في شربورغ .

نعم وهو بيت صغير على الشارع ملك الكونت دانتي وقد استأجرته امرأة تدعى امرأة بوديت وكان اخر العهد بايجارها منذ عامين .

– اذن انا ذاهب وهذا الاثر يكفي .

– ادعو لك بالتوفيق .

– ولكني إذا كنت ابحث هناك فعليك أنت أن تبحث هنا فقد تكون في باريس .

– سأفعل دون شك .

وعند ذلك افترقا فذهب الاميرال إلى منزله كي يتأهب للسفر وعاد دافينو إلى مكتبه فجعل ينظر في اوراق اختفاء الفتاة فوجد كثيراً من تقارير البوليس السري الذي عهد اليهم بالتفتيش ولكنه لم يجد في تقريرهم اثراً خيراً من الاثر الذي اكتشفه وأخبر عنه الكونت فاطرق مفكراً وجعل يقول في نفسه :

انه يوجد قوة خفية تدير مورنا يدعوها الملحدون الصدفة وندعوها عناية الله وقد وجدنا الاثر فلم يبق الا أن نجد صاحبه وعسى أن تدركنا عناية الله .

وفي صباح اليوم التالي بينما كان الاميرال سائراً في طريق شربورغ كان بيير لاروش جالساً في غرفته يراجع اوراق تلمبذه ويقرأ تلك الرسالة التي كتبتها اليه امه قبيل موتها فاخبرته فيها بكل امرها مع ابيه .

وكان آخر ما جاء في هذه الرسالة انها التمست من ابنها أن يعفو وأن لا يعمد إلى الانتقام .

فلما اتم تلاوتها قال : يقولون أن العفو من شيم الكرام أما انا فاني اراه شيمة الضعيف العاجز يعفو مستتراً بمكارم الاخلاق اخفاءً لضعف قلبه .

على اني لا اعفو فاني غير عاجز فصبراً ايتها المرأة الضعيفة فان ولدك لم يعرف تاريخ ابيه ومتى عرفه يتم انتقامي وانتقامك

وفيما هو على ذلك دخل اليه الخادم وكان جميع خدم المنزل من عصابة الشركة الانكليزية وهم عارفون بكل ما يجري فقال له لقد اتى .

فأسرع بيير إلى وضع أوراقه بالدرج وقال له : ادخله .

فخرج الخادم وقال لذلك الزائر : أن المسيو رودريكوس غير موجود في المنزل فاذا اردت مقابلة استاذه فهو في انتظارك

وكان هذا الزائر هو روزن الالماني اليهودي بائع الماس الشهير . وهو مرتد بملابس بسيطة تقادم عهدها ولم يخلها على فرط غناه وفي يده حقيبة سوداء من الجلد كان يسير بها اينما سار

فلما دخل إلى بيير تظاهر هذا الخبيث أن هذه الزيارة قد ضايقته واخرت اشغاله العلمية فقال له وهو منهمك باوراقه دون أن ينظر اليه :

ـ بماذا تريد أن اخدمك يا سيدي ؟

قال : اني صموئيل روزن .. في شارع واسي .

فنظر بيير اليه نظرة من يحاول اجهاد ذاكرته وقال :

ـ نعم لقد ذكرتك الآن فقد اتيت مرة من قبل .

ـ نعم اتيت بشأن بعض الجوهرات .

ـ هو ذاك فقد ذكرت جيداً ولكن الا يوجد كثيرون في باريس يدعون باسمك ؟

ـ كلا فلا يوجد غير صاموئيل روزن في باريس وأجسر أن اقول انه اسم شهير .

ـ اذن أنت وحدك تاجر الجوهرات الذي طالما ذكروه لنا

ـ نعم يا سيدي واني لا اقتصر على تجارة الجوهرات كما يتوهم البعض بل ابيع سائر انواع الحجارة الكريمة فاذا اشتريت الحلى لا اشتريها الا بثمن جواهرها ولذلك لا يستطيع مزاحمتي احد لاني اشتري وابيع بأقل الاثمان

ـ لقد اشتهر ذلك عنك فتفضل يا سيدي بالجلوس فانك من فرانكفورت اليس كذلك ؟

ـ هو ذاك ـ وأنت من اليهود ؟

ـ نعم :

ـ اتريد أن ترى المسيو رودريكوس .

ـ نعم ـ انه غائب .

ـ ايطول غيابه ؟

ـ لا اعلم فقد يكون في قصره في شنساي غير اني لست واثقاً من ذلك وفي كل حال فان ذلك لا اهمية له .

ـ دون شك فما زلت قد لقيتك فاني اخبرك بما حملني على المجيء .

ـ كما تريد فهل استطيع أن اخدمك بشيء ؟

ـ نعم نعم واني اكون لك من الشاكرين .

ـ أنك ترجو أن تعامل المسيو رودريكوس ؟

ـ هو ذاك فقد علمت أنه من كبار الاغنياء .

ـ ولكنه ليس غنياً بمقدار ما تتوهم .

ـ لا تحاول اقناعي ياسيدي فقدسألت عنه وعرفت حقيقة منزلته وهو فوق ذلك في مقتبل الشباب .

ـ هذا لا اخالفك فيه .

ـ ومن كان غنياً شاباً مقيماً في باريس فلا بـــد أن يكون له خليلة .

ـ لا تجهر بذلك فهو سري .

ـ اني من اهل الكتمان يا سيدي والذي اعلم أن الخطايا لهن شديدات الميل إلى الحلى ورغائبهن لا ترد اما أنا فاني كثير البحث عن مثل هذه الفرص ومتى عرفت فرصة اسرعت إلى اغتنامها واجهدت نفسي في ارضاء الزبون بغية استبقائه فان الفتى بعد انهاكه يتوق إلى الزواج ويحتاج إلى حلى اخرى من غير نوع .

– وأنت تراقب ذلك ايضاً ؟

– دون شك ! ..

– اهنئك بهذه التجارة ولا بد أن يكون لديك كثير من الجوهرات ؟

– لا يوجد عند الجوهريين بجملتهم بعض ما عندي ولا اكتمك يا سيدي كي لا يسمعنا احد اني احمل كل ثروتي معي ولا ائتمن عليها الصناديق كما كان يفعل بياس في العهد القديم .

– اري انك من أهل العلم والادب فنحن اذاً زميلان غير أن الفرق بيني وبينك اني لا اعرف شيئاً من الاشغال ولا يروق لي غير مؤانسة كتبي ولذلك لا افهم تجارتك .

– ولكنها جديرة بالاهتمام يا سيدي فما هي من سقط المتاع وقد استطيع أن ادهشك بما عندي .

– ربما ولكن كيف عرفت أن للمسيو رودريكوس خليلة لقد عرفت .

– لا شك أن خادمنا الأبله قد اخبرك .

– بل عرفت امراً آخر .

– ما هو ؟

– ذلك الزواج الذي سيعقد قريبا .

– اعرفت هذا السر ايضاً ؟

– نعم وهو سيتزوج بفتاة من اهل الثروة العظيمة فلا بد له من حلى تناسب هذه الثروة !

فحك بيير اذنه وقال : لقد اتضح لي الآن كيف عرفت

فانك اغريت خادمنا بالمال ولكنك عرضته بذلك للعزل .

– دعني ارجو يا سيدي بان تكتم هذا الامر وتبقي الخادم في خدمته وأنت ايضاً يجب أن تحرص على الكتمان .

– اني اشبه الصناديق المقفلة ولكن الديك الحلى الموافقة ؟

– كيف تسألني هذا السؤال فانظر فاني ابداً بحلى الحلية .

ثم جعل يخرج الجوهرات من جيوب صدرته وسترته وبنطلونه ومن جيوب خفية لا تظهر للعيون فيضعها على المائدة ويقول :

أن من يشتري مني ينفسح له مجال الاختيار كما ترى والثمن عندي نصفه عند سواي فاني اعرف أن اشتري واغتنم الفرص.

فدهش بيير حقيقة لما رآه وأخرج روزن ايضاً حقيبة من الجلد كانت حجارة الالماس مصفوفة فيها على تناسب صغرها وكبرها من الحجر البسيط الذي يسوى مائتي فرنك إلى الحجر الذي يساوي عشرين الفاً .

– وهناك الزمرد والياقوت والفيروز واللالىء على اختلافها وفي اسفل الحقيبة عقود لا يقل ثمن العقد منها عن مئة الف فرنك غير أن بيير تظاهر بعدم الاكتراث وقال : لا اقول شيئاً في هذه الجوهرات فلكل هوى ولكني لا فرق عندي بين قطعة الزجاج وبين هذه الماسة التي تجن بها النساء ! .

فهز روزن رأسه شأن المشفق وقال : لا عجب فهذا شأن العلماء .

قال : كل ذلك جميل وثمين ولكنك تضيع وقتك في ما لا

يفيد فان المسيو رودريكوس غير موجود .

— متى يعود ؟

— ألا تزال مصراً على أغوائه ؟

— اذ لم اغوه أنا غواه سواي اذ لا بد له من الحلى .

— إذن عد في فرصة اخرى ولكني اشفق عليك فانك كثير الغنى وأراك لا تزال مجداً بجمع المال فأية فائدة لك من المزيد ؟

— لا فائدة لي منه ولكنه حب التجارة والطمع الذي فطر عليه الانسان فلا يسلم منه غير من وهبه الله عقلا فريداً كعقلك فمتى يجب أن أعود يا سيدي ؟

فجعل بيير يعد على اصابعه ثم قال : عد بعد اسبوعين أيوافقك هذا الموعد ؟

— كما تريد .

— اذن عد في الخامس والعشرين من هذا الشهر فان المسيو رودريكوس يكون هنا ..

— سأقبل يا سيدي ولكني ارجوك أن تذكرني بكلمة خير

— لا اتأخر .

فشكره روزن وأعاد الجوهرات إلى جيوبه وإلى الحقيبة وحاول الانصراف فقال له بيير .

كلمة ايضاً يا مسيو روزن فاني احب أن اسألك عن امر لم افهمه .

— تفضل يا سيدي بالسؤال عما تريد .

— لماذا تحمل معك كل هذه الجوهرات ؟

— لامر بسيط — وهو ؟

— هو اني لا احب النفقات وانا اقيم في منزل صغير .

— الست إذن متزوجاً ؟

— كلا فاني حين احمل حقيبتي بيدي أشعر انها خير من جميع نساء الارض

— ولكن يجب عليك أن تحذر فقد يقتلك اللصوص إذا عرفوا بامرك .

— نعم ولكنهم لا يعرفون .

— وأرجو أن لا يعرفوا . إذن إلى اللقاء في الخامس والعشرين .

ثم ودعه وانصرف فلقي الخادم عند الباب فقال له :

خذ هذا الدينار مكافأة لك فقد كنت معي من الصادقين .

— بماذا !

— بما اخبرتني به عن الاستاذ فانه من رجال الخير .

— بل هو خير الرجال فهل أنت راض ؟

— كل الرضى !

— أرجو أن تبيعهم شيئاً !

— بل سأبيعهم الشيء الكثير .

— ومتى كان ذلك فرجائي أن لا تنسى ما وعدتني به .

— كن مطمئناً .

ثم تركه وأنصرف وهو منشرح الصدر واثق من مساعدة الاستاذ اما هذا الاستاذ فانه كتب بعد انصرافه إلى لندرا هذا

التلغراف الآتي .

« نضجت الثمرة ولم يبق الا سقوطها »

وفي اليوم الثاني ورده جواب تلغرافي يتضمن كلمة واحدة وهي « أحضر »

نـــور

ولنعد الآن إلى الامير فيتراي فانه سار في اليوم التالي توآ إلى شربورغ وذهب إلى الشارع الذي اخبره عنه وكيله وهناك لقي بقالا شيخاً جالساً عند باب دكانه فدنا منه وقال له : اتعرف منزلا صغيراً في هذا الشارع ملك الكونت دانتي ؟

فنظر اليه الشيخ نظرة المنذهل ثم وقف مسرعاً ونزع قبعته وقال نعم يا سيدي الاميرال .

فعجب الكونت وقال له ، كيف عرفتني ؟

قال لقد بعدت شهرتك يا سيدي فليس من يعرفك لا سيا من كان مثلي له ولدان في البحارة .

ـ في اي اسطول ؟

ـ في اسطول الشرق الأقصى الذي هو بقيادتك .

ـ ماذا يدعيان ؟

ـ احدهما جورج بيلير وهو لا يزال جندياً بسيطاً والآخر اخوه اميل وهو ميكانيكي وهما من اهل الجد والوطنية .

ـ الم يتزوجا ؟

ـ كلا يا سيدي الاميرال فان زواج اهل البحار غير طبيعي وغير معقول ـ لماذا ؟

ـ لان الزوج يضطر إلى هجران زوجته زمناً طويلا وفي ذلك من الخطر على عفاف المرأة ما فيه والامثال كثيرة عندنا في شربورغ ولا سيا بين نساء الضباط ولكننا إذا كنا نعذر المرأة عندنا عند سقوطها بعد الهجران الطويل فان بحارتنا يجتنبون الزواج ما أمكن اجتنابه في زمن الخدمة فان ناموس الزواج يقضي على الزوجين بالائتلاف فاذا هجر الزوج زوجته زمناً طويلا ثم عاقبها لهفوتها الا يكون من الظالمين .

فعض الاميرال على شفته دون أن يجيب ثم غير مجرى الحديث فجأة فقال له :

ـ لقد قلت لي أنك تعرف هذا المنزل .

ـ نعم فهو في الشارع العام على قيد بضع خطوات .

ـ أأنت هنا من عهد بعيد . ـ منذ خلقت .

ـ أذن أنت تعرف جميع السكان .

ـ على الاطلاق .

ـ وتعرف الذين كانوا يقيمون في منزل الكونت منذ عامين

ـ حتى العرفان فقد كان يقيم فيه ثلاث نساء وهن ارملة وبنتان .

ـ ما اسم الأرملة . ارملة بوديت .

ـ واسمها الآخر . ـ بيريين .

ـ ماذا تعرف عنها .

ـ لا أعرف عنها شيئاً سوى انها كانت مجنونة ولكنه جنون هادىء لطيف وكانت من بريتانيا كما يظهر من غنائها فانها كانت دائماً تنشد اناشيد البريتانيين المعروفة .
فتنفس الاميرال تنفس ارتياح وقال له : اتعلم من اين اتت
لقد سمعتهم يقولون انها انت من جرساي .
ـ ومن هما الابنتان اللتان كانتا معها .
ـ احداهما طفلة صغيرة كان عمرها نحو سنتين جيء بها إلى شربورغ .. ـ والثانية .
ـ آه ما أجملها يا سيدي الاميرال .
ـ كم كان عمرها .
ـ نحو اثني عشر عاماً ولكنها قوية نشيطة لم ار أشد صبراً منها على المشاق ـ اين هن الان .
ـ لا اعلم فانهن هجرن هذه البلدة وقد ساءني ذلك فقد كنت ارى الفتاة مراراً كل يوم حين تشتري حاجات المنزل من عندي وحين ذهابها إلى مدرسة الدير .
ـ اين هي هذه المدرسة .
ـ هي تلك البناية العظيمة التي تراها امامك .
ـ ماذا كانت تفعل في تلك المدرسة .
ـ كانت تعلم اللغة الانكليزية وتتلقى العلوم في مقابل ذلك والحق يقال يا سيدي الاميرال أن المدموازيل جانيت ..
فقاطعه الاميرال قائلا : ماذا تقول :
ـ انها كانت تدعى جانيت يا سيدي وقد كانت فتنة

الابصار يعجب بها الناس بجمالها اعجابهم بأدبها وكنت أود أن اخطبها لابني الميكانيكي ولكني خشيت أن يتعلق بهـــا ويعتزل الاعمال .
ـ اذن لقد برحت هذه المدينة .
ـ منذ ثمانية عشر شهراً أو ازيد ـ لماذا ؟
ـ لم تذكر لي الاسباب .
ـ ولكن ماذا في اعتقادك سبب هذه الرحلة .
ـ انها في الايام الاخيرة كانت كثيرة التفكير والهم وقد سألتها يوماً عن سبب همها فقالت لي انها تلتمس عملا ولا تجده وانها باتت كثيرة النفقات بسبب مرض العجوز .
وعندي أن هذه العجوز وتلك الطفلة كانتا السبب في شقائها ولا بد أن تكون سافرت بهما إلى بلد كبير يتسع فيه الرزق اكثر من اتساعه في هذا البلد .
ـ لا يعلم احد إلى اين ذهبت .
ـ كلا وقد بحثنا بحثاً كثيراً في هذا الشأن ولكني اعتقد انها ذهبت إلى باريس . فقد ذكرت لي ميلها مراراً إلى الاشتغال في هذه العاصمة .
ـ وبعد ذلك الم تكتب لاحد في شربورغ .
ـ كلا إذ لم يكن لها علاقة باحد .
فأخرج الكونت قبضة من الذهب فدفعها إلى البقال وقال له:
ـ اني سأنظر وارقيها إذا كانا جديرين بالترقي .
انا الآن عائد إلى باريس فابحث عن العجوز والبنتين وإذا

علمت شيئاً من شؤونهن فاكتب لي إلى باريس وهذا عنواني .

ثم اعطاه عنوانه ونظر نظرة حزينة إلى ذلك المنزل الصغير الذي سكنته ضحيته وهي الآن غير موجودة فيه وانصرف آسفاً حزيناً ولكن بقي رجاء وطيد ايقن انها لا تزال في قيد الحياة .

عش الحمامة

بينا كان الاميرال فيتراي يبحث عن جانيت ليردها إلى امرأته، ويخفض من عذاب هجرانها كان رودربكوس يبحث عن منزل في ضواحي باريس ليقيمها فيه ويجعلها خليلته .

وقد وجد منزلا جميلا قريباً من باريس تكتنفه حديقة غناء وهو معتزلا لا يجاوره احد من الناس .

وكان هذا المنزل لاحدى شهيرات بنات الهوى وقد فرشته اجمل فرش ينطبق على اذواق النساء ثم هجرتــــه فاستأجره جان بفرشه .

وبعد ثلاثة ايام صرفها على اتمام معداته وقفت مركبة عند باب حديقته وكان جان راكباً في جانب السائق وظلام الليل يخفيه عن العيون .

فنزل من مجلسه وفتح باب المركبة فخرجت منها العجوز المجنونة وابنتها الصغيرة وجانيت فتأبط جان ذراع جانيت ودخل إلى الحديقة تتبعها المجنونة وهي غير مكترثة لشيء مما

تراه ويدها بيد ابنتها وهي تنظر نظرات المندهش إلى هــــذه الحديقة الغناء .

حتى إذا دخلوا استقبلهم البستاني وامرأته .

فاخذ جان بيد جانيت وقال لها : انك الآن في منزلك فقد استأجرت هذا المنزل المعتزل لجماله وليقيني انك تحبين الوحدة ومناظر الطبيعة وهذه امرأة البستاني تخدمك مع زوجها وهما من أهل الصلاح فثقي بهما .

ثم دخل إلى غرفة كان فيها جميع ما تحتاج اليه العجوز وابنتها وقال لها : هذه غرفة مربيتك وابنتها فتعالي إلى غرفتك حيث تجدين انه لا يعوزك شيء فيها .

ثم دخل بها إلى غرفتها فدهشت لما رأته من ذلك الاثاث الفخيم الدال على سلامة الذوق فقال لها :

— انك ترين كيف اني اعددت لك كل ما يؤول لراحتك لأني اريد أن تكوني سعيدة وأن تذكري بهذا المنزل الذي يشبه الحمامة ذلك المنزل الذي تكتنفه الاشجار في شربورغ .

اما البستاني وامرأته فهما يعتقدان أن العجوز امك أنت جئت بها إلى هنا على رجاء أن تفيدها السكينة وهذا الخلاء فتشفى من مرضها وعلى ذلك فان شرفك مصون ولا خوف عليك من التهم .

ثم فتح درج خزانة جميلة فرأت جانيت ثلاثة اعمدة من الدنانير ورسالة مختومة فقال لها اما الدنانير فهي هدية من صديق لك في الحداثة أرجو أن تقبليها وأما الرسالة فأرجو أن تقرأيها

يا جانيت بعد انصرافي .

وكانت تصغي اليه وهي منقبضة القلب فانها منذ ثلاثة أيام وهي تتردد في قبول مساعدته وتؤنب نفسها لضعفها ولكن صوتاً خفياً في قلبها ولعله صوت الحب كان يغلب هذا الضعف فاجابته قائلة : نعم سأقرأ الرسالة

ثم اطرقت برأسها مستحية وقالت : ما كان يجب علي أن أقبل ؟

قال : وإذا لم تقبلي مساعدتي وأنا خير صديق فما عسى كنت تصنعين وإلى اين كنت تذهبين ؟ — وا أسفاه .

— بل افتكري يا جانيت فماذا كان جرى لك لو لم يسعدني الحظ بلقائك ؟

فوجمت ساكتة وقد ايقنت انه مصيب في ما قاله وأن لقاء هذا الصديق في ساعة من يأسها كان نعمة من السماء وأن العجوز وابنتها تموتان جوعاً اذ لا بد لها من الموت انتحاراً ثم سمعت صوت جان يكلمها بارق عبارات الحنو فخفق قلبها وأصغت لصوت ذلك القلب ونظرت إلى جان نظرة ملؤها الحب والاخلاص فقالت له :

— سأقرأ الرسالة .. هذه الليلة . حين ابيت وحدي .

فأخذ يدها بين يديه فضغط عليها وقال :

— إذن استودعك الله . — أأنت ذاهب ؟

— لا بد من انصرافي .

— لله ما اطيب قلبك فدعني اشكرك .

فقال لها بصوت منخفض : ليست هي الطيبة بل هو الحب فاحمر وجه الفتاة وقالت له كيف تعود ؟

قال : بالقطار وها هو يصفر فاستودعك الله .

وعند ذلك انصرف فدخلت امرأة البستاني وقالت لها : إن العشاء معد يا سيدتي في غرفة المائدة وستكونين هنا على خير حال كما سترين .

وبعد هنيهة كانت جانيت وحدها مع العجوز وابنتها واي فرق بين هذا المنزل الجميل الذي تقيم فيه الآن وبين تلك المغارة التي كانت تأوي اليها في باريس وأين هذه الوحدة والامان من ذلك الخوف الدائم ومجاورة أهل الفجور بل أين هذه الزخارف وهذه الرياش الفاخرة وتلك الاسرة الجميلة من تلك الظلمة والرطوبة والحصير المقطع وفراش القش بل ابن هذه الدنانير الوهاجة التي كانت في درجها وهذا الطعام الشهي من ذلك الكيس الفارغ وذلك الخبز الجاف الذي كادت لا تناله الا ببيع النفس بين السلع .

لقد تمثل كل ذلك لعينيها كالمناظر السحرية فحسبت انها حالمة واسترسلت في التصورات إلى أن ايقظتها من سبات غفلتها تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تدعوها بأختها وقد طوقت عنقها بيديها الصغيرتين وقالت لها .

— ما أجمل هذا البيت يا اختي ألعلنا نقيم فيه ؟

فنظرت اليها جانيت نظرة حنو وكانت تحبها حب اخت ورأت ما اصبحت عليه من حسن الرواء بتلك الملابس الجديدة

التي اشترتها لها فقالت نعم أنك تقيمين هنا فاطمئني .

وفي الساعة العاشرة نامت العجوز وابنتها فوقفت جانيت عند رأس العجوز تتمعن في وجهها وتسمع كلماتها المتقطعة التي كانت تقولها دائماً قبيل النوم وهي « مورجابت ، قصر الغرام ، فيتراي » ثم دنت من الفتاة النائمة فلثمت شعرها المسترسل على كتفيها وعادت إلى غرفتها ففتحت الدرج واخذت الرسالة وقرأت ما يأتي .

« عزيزتي جانيت .

« لا تستطيعين أن تعلمي مقدار سروري بهذا الاتفاق العجيب الذي جمعني بك اني وحيد في هذا الوجود وقد انكرني ابي الذي لا اعرف اسمه وماتت امي منتحرة ليأسها من ذلك الاب فعشت وحيداً شريداً ليس لي من يعطف علي فأحبه ولا نصير لي على معارك الحياة وهي هائلة كما تعلمين فلم اكن اتعزى في شقائي الا حين افتكر بك بحيث كنت خير بلسم لجراحي وخير رجاء وعون لي في مستقبل الايام اني لقيتك يا جانيت بعد الفراق الطويل وعلمت انا متساويان بالحظ ووجدتك في اشقى حال ولكني لقيتك وتداركتك باذن الله قبل فوات الاوان .

« اني لا ابسط لك حبي ولا اذكر كلمة عن هذا الغرام الذي يملأ قلبي مخافة أن تكون مساعدتي لمأربه فأنت طليقة حرة غير مقيدة بشرط فاني لا أحب ان اسمع كلمة الحب الا من شفتيك

« اني كنت اتزوجك امام الناس واقسم بالله على صدقي فيما أقول لولا حالتنا الغريبة اذ اية فائدة من اظهار شقائنا لجميع

الناس فيعلمون اننا لقيطان .

« لا شأن للناس بنا ايتها الحبيبة وكل ما استطيع أن اقوله لك الآن اني احبك حباً لا تستطيع وصفه الاقلام واني لم أحب ولن احب سواك في هذا الوجود .

« اني لك بجسمي وروحي وملء جوارحي فاذا ابيت أن اكون حبيبك فلا ترفضي أن اكون اخاك .

« ولا تجزعي علي فاني اؤثر احتمال كل عذاب الدنيا مدى العمر على أن اراك ساعة تتألمين .

« والآن اية فائدة من الكلام فاني احبك وهذه الكلمة وحدها تغني عن كل اسباب وشرح فتصرفي بمستقبلي ومستقبلك كما تشائين .

واني رهين اشارتك فلا اعود اليك الا حين تدعيني »

وقد قرأت جانيت هذه الرسالة مرتين ثم وقفت مفكرة في نافذتها ..

وكان القمر يرسل اشعته الى الحديقة فيموج النسيم تلك الأشعة على أوراق الشجر فتظهر من خلالها كالدنانير .

وقد تم السكون فلم يسمع غير حفيف الاشجار وهينمة النسيم وصفير القطارات من حين إلى حين وقد تساقط الندى على تلك الاشجار فكان يشبه اللالىء فعادت السكينة إلى قلب الفتاة بسكوت الطبيعة ونظرت إلى المستقبل بعين الرجاء وعلمت انها محبوبة وأن لها نصيراً يعينها على مصاعب هذه الحياة وهي لو لقيت جان في غير ظروفها الحاضرة لما كانت النتيجة دون شك

كما هي الان .

ولكنها كانت دون عائلة تكره اباها وأمها لقسوتهما ولا سيما امها اذ لم يكن يخطر لها في بال أن الام تتخلى عن ولدها وسواء كانا من الأغنياء أو الفقراء فقد كان بوسعهما أن يربياها وهي لو تزوجت ورزقت يوماً ولداً لما تخلت عنه ولما تمكن احد سلبها اياه الا بعد قتلها .

اذن فهي دون معين وقد جاءها هذا الصديق فكيف يخطر لها انه يخدعها، اما هو الذي انقذها مما هي وانتشلها من هذه الوحدة بعد يأسها .

وفوق ذلك فهي تحبه منعهد بعيد وطالما تمنت في خلوتها أن يكون لها وأن تكون له وقد اثرت بها رقة كتابه فعادت إلى غرفتها بعد هذا الامعان فأخذت رسالته فقرأتها مرة ثالثة ثم اخذت ورقة فكتبت عليها بيد ثابتة هاتين الجملتين .

« تعال حين تريد فانا ايضاً احبك »

وعندما انتهت من كتابتها سمعت وقع خطوات فخفق قلبها والتفتت إلى جهة الباب فرأت جـــان رودريكوس أو جان موريس واقفاً في الباب وقد وضع اصبعه على شفتيه واتقدت عيناه بأشعة الحب ...

فمدت يدها إلى الرسالة التي كتبتها ولا يزال حبرها طرياً وأشارت له اليها فلم يكد يقرأ هذين السطرين حتى ضمها إلى صدره وكاد يقطع عنقها تقبيلا والف الهوى بين قلبيهما فباتت له وبات لها منذ تلك الساعة .

الفصل الرابع

وحده فاضيه

شارع اكسفورد

لا شك أن الأنكليز شعب عظيم وأن انكلترا من أغنى البلاد فإن تجارتها لا مثيل لها وهي رابضة عى صخرها الفحمي تشحنه بمراكبها إلى كل جهات المعمورة والقطن والنسيج والحديد والآلات والأسماك المقددة والكتب وتحول كل هذا إلى أموال تكدسها بالعملة الإنكليزية والذهب وفيها نوعان غريبان من الناس وهما الفرسان الذين يركضون على الجياد في حلقات السباق فقد نالوا أبعد شهرة في السباق .

وثانيهما اللصوص فان لصوص الانكليز لا مثيل لهم في الأرض فانهم يسرقون الكحل من العين ويهزأون برجال الشرطة على براعتهم كل الهزء وكيفما سرت في تلك البلاد تجد كتابات التحذير من البوليس ولكنهم يسرقون مالك وأنت تقرأ هذا التحذير .

ولكن ما عسى يستطيع أن يفعل لص وحيد يكمن في المحطات وعند ابواب الفنادق وفي المحلات التي يكثر فيها الزحام

وهو في كل محطة معرض للقبض عليه فان كل ما يستطيع فعله هو أن يفوز باختطاف بضعة دنانير من الجيوب يعيش بها بضعة ايام .

وفوق ذلك فان الانكليزي فطر على حب التجارة والأعمال الكبيرة ولذلك بات لصهم كبيراً كعاقلهم وعاملهم وتاجرهم

وقد خطر لأحدهم منذ بضعة أعوام أن يقدم على عمل كبير فاتفق مع شريك متجول وأنشأ محلا كبيراً له فروع كالبنك كريدي ليونيه والبنك العثماني وغيرهما .

ولكنه كان محلا قاصراً على اللصوصية في الباطن وخاصاً بالعمولة وبيع الجوهرات في الظاهر وله دفاتر منظمة وعمال ساهرون وسمعة حسنة وطريقة اشغاله أن يجمع حذاق اللصوص ويرسلهم إلى اوروبا ويمدهم بالمال للسرقات الكبرى ثم يقتسم معهم الكسب بعد خصم النفقات وهو لا يرتكب سرقة على الاطلاق في بلاده بل أن جميع اعماله كانت قاصرة على البلاد الخارجية وأخصها فرنسا فلما جاء بيير لاروش إلى لندرا تعرف بهذا المحل وانتظم في سلك اعماله مع تلميذه فهو الذي ابتكر مسألة الزواج اما مسألة تاجر الجوهرات فهي من مبتكرات مدير المحل وهو تمبلتون .

وكان هذا المحل في شارع اكسفورد وهو من اشهر الشوارع ويذكر القراء أن ادارة المحل قد دعت اليها بيير لاروش من باريس فذهب إلى لندرا مسرعاً واجتمع بالمدير فدار بينهما الحديث الآتي .

قال المدير : اذن لقد تعين موعد الاجراء ؟

فأجابه بيير : وذلك بعد اسبوع .

— حسناً فاني وشريكي لا رغبة لنا في مثل هذه الأعمال وانما نقدم عليها من اجلكم فنقدم لكم المال ونشتري نتائج اعمالكم ولذلك كان عملنا شرعياً معقولا .

— دون شك ! ..

— صف لي روزن هذا فهو يهودي اليس كذلك ؟

— نعم وهو من فرنكفورت .

— أن هؤلاء الناس اشداء اذكياء لا يقفون باجتهادهم عند حد فهل أنت واثق من ثروته ؟

— أن مجوهراته تبلغ قيمتها ثلاثة ملايين .

— لا اظن الا انك تبالغ ومع ذلك فستثمنها وتأخذ حقك

— اربعين في المائة .

— هذا كثير ولكننا قد وعدناك ولا نرجع بوعدنا فاننا لم ننجح هذا النجاح الا لوفائنا واخلاصنا لعمالنا فقل لي الا تزال راضياً عن ولم ؟

— كل الرضى فهو يمثل دور الخدم احسن تمثيل .

— اننا نحتاج اليه فاحرص على أن لا يكون البوليس ريب

— ولنعد الآن إلى روزن فهل هو كبير الجثة ؟

— كلا بل هو معتدل .

— اهو قوي ؟

— كلا ولكن ماذا تفيده القوة ونحن اربعة ؟

– أن التقارير التي وردتنا تشير إلى انه عازب يعيش وحده .
– هو ذاك – وانه بخيل ؟
– أبخل من فأر .
– أن البخل اقرب طرق الثروة فمتى عزمت على الفراغ من شأنه ؟
– في مساء اليوم الرابع والعشرين من هذا الشهر .
– اذن فان البانوس ينقل جثته إلى الهافر وهو من العمال الامناء فثق به كل الثقة .
– أأرسل معه الجوهرات ايضاً ؟
– دون شك فان قوتنا كائنة بتبادل الثقة .
– الا تخاف مفاجأة أو خيانة ؟
– على الاطلاق .
– وإذا قضى الاتفاق على احد عمالكم فقبض عليه في فرنسا .
– وعلى افتراض ذلك فاين وجه الضرر ؟
– أن المحاكم الفرنسية تحكم عليه .
– وبعد ذلك ! .. – يطرحونه في ظلمات السجون
– ولكنه يعتمد علينا وجميع عمالنا يعرفون حق العرفان اننا لا نتخلى عنهم حين الشدة فان القوة الحقيقة في هذا الوجود هي هذه ثم اشار إلى خزانة حديدية تكردست فيها الاوراق المالية وقال هذا هو المال فهو مفتاح الذمم والضمائر وهو ايضاً مفتاح السجون ..

– نعم ايها الصديق فان المال اساس كل شيء في هذه الحياة وما الحياة غير بحر خضم هائج فمن اتقن السباحة فيه أمن الغرق .
– والآن اخبرني عن المهمة الاخرى .
– مهمة الزواج .
– نعم فإلى اين بلغتم بها .
– انها سائرة على محور النجاح بفضل جان فهو ذكي الفؤاد جميل الوجه ذلق اللسان فلم اجد اقدر منه على ارضاء النساء .
– هل افتتنت به الصبية .
– بل اصبحت هائمة به وقد تبودلت بينهما ايمان الحب .
– كم تبلغ ثروتها .
– تبلغ بعد موت ابيها ثمانية ملايين وبعد موت جدها اثني عشر مليوناً .
– لا ابحث عن المستقبل فقد نموت قبلهم بل اريد أن اعلم كم يبلغ مهرها .
– ستقبض يوم التوقيع على صك الزواج مليونين من ابيها ومليوناً من جدها .
– ايكون ذلك نقداً .
– اما يكون نقداً أو اسهماً يسهل تحويلها إلى نقد .
– متى تعرف الحقيقة .
– قريباً – الم يخامر أباها شيء من الشك .
– كيف يداخله الريب وقد ربيت جان تربية الامراء وهو

يعتقد انه غني مثله .

— وماذا يريد أن يصنع بعد اتمام الزواج الذي لا يعقد الا بفضلنا .

— لا أعلم نياته المستقبلة ولكنه يعطيكم دون شك نصف المهر حسب الاتفاق ولكنه لا يحب خطيبته .

— لماذا العل بها عيباً من العيوب .

— بل لو مثل الجمال لما مثل الا بها ولكنه لا يحبها .

— ذلك شأنه بشرط أن يحب المال ويفوز بهذا المسعى بفضل حكمتك فقد اتفقت اليوم مع شريكي على الثناء عليك والاعجاب بدهائك فاذا فارقك تلميذك بعد زواجه تبقي معنا على خير حال .

— اني ممتن لكما .

— وقد كنا معجبين بما صنعته في مسألة رودريكوس فقد كسبنا منها كسباً عظيماً وكذلك أنت وتلميذك ولكنكما اضعتما كسبكما بالبورصة واخطأتما خطأً لا يغتفر .

— اننا كنا نريد التماس الثروة من اقرب ابوابها .

— ولكن اشغال الصدفة كالقمار لايقدم عليها غير الكسالى العاجزين والعاقل لا يطمع الا بالربح المضمون فان مجال الاعمال متسع فقد اعددت خطة لمدة مشروعات سأعهد بها اليك .

— اني رهين امرك — كيف تعيشان هناك .

— أن جان يضطر بسبب هذا الزواج ان يعيش عيش

بسطة ورخاء اذ لا بد له أن يظهر بمظهر يناسب مقامه .

— أأنفق كل ما قبضتموه .

— كلا ولكن لم يبق غير القليل ونحن الآن في حاجة إلى المال .

— كم .

— الف وخمسمائة ليرة .

فنظر تملتون إلى بيير محدقاً ثم قال له :

— لقد انفقنا كثيراً من المال على هذه المهمة وسوف نرى .

وقد قرع جرساً فجاءه كاتب فقال له : اعطني حساب ب ب فذهب الكاتب وعاد بالدفتر وانصرف ففتح تملتون الدفتر وقال له :

— انظر فقد بلغ مـا انفقناه إلى الآن اثنين وخمسين الف فرنك .

— كل هذا مقيد عندي .

— وذلك عدا عن ثمن القصرين وما فيهما من الرياش .

— هو ذاك .

— ومع ذلك فاننا لم نظفر إلى الآن بغير الوعود .

— نعم ولكننا قد خطونا خطوة عظيمة ولا بد لنا من الفوز .

— اتعده مضموناً .

— هذا لا ريب فيه وذلك عدا مهمة روزن فانها نضجت وستجنيها بعد اسبوع أي في الرابع والعشرين من هذا الشهر

– وستقبض حصتك في نفس اليوم ولكن احذر من التأجيل إلى الخامس والعشرين .

– لماذا ؟

– لانه يوم لا يجوز الشغل فيه .

فضحك بيير وقال : اطمئن فاننا من خيار المؤمنين .

– وفي ذلك اليوم أي حين تصل الينا الجوهرات ثمنها فنخصم النفقات ونعطيك اربعين في المائة مما يبقى ولكنك محتاج الآن إلى المال كما تقول فسأعطيك خمسماية ليرة ايكفيك هذا القدر

– لا بد لي من الاكتفاء به الان .

فنادى تمبلتون الصراف وقال له اعطني خمسماية ليرة اوراقاً مالية فرنسية .

وبعد هنيهة جاء الصراف بالمال فدفعه إلى بيير .

وكانت المحادثة قد انتهت فوضع بيير الاوراق في جيبه وقال : إذن نعتمد عليكم في مهمة الزواج .

– باثبات ثروة رودريكوس حين الاقتضاء .

– دونك فاذا احتجتم إلى اثباتها وضعنا المال في بنك لندرا باسم جان رودريكوس وأرسلنا اليكم الوصولات فقل لتلميذك أن ينهج مناهج الحكمة فسيكون من ابناء الاسرات الغنية والان . فكيف حال المعرض عندكم ؟

– انه يبشر بمستقبل باهر فان التأهب له عظيم .

– الم يخطر لك خاطر بشأنه ؟

– لم افتكر به بعد لانهما كي بالمهمتين .

– ارجو أن يكون عام خير وسنفتكر نحن هنا ايضاً بهذا المعرض الذي سيكثر فيه الزحام فاذا خطر لك شيء بشأنه فاكتب لنا عنه . – سأفعل .

– متى عزمت على العودة – الان .

– بطريق كاليه . – هو ذاك .

– اذن اتمنى لك سفراً سعيداً ولا تنس أن تراسلني كل يوم بواسطة الجريدة بطريقتنا .

وعند ذلك افترقا فقفل بيير عائداً إلى باريس .

الرجاء

بينما كان بيير لاروش عائداً من لندرا بعد مقابلته رئيس الشركة الانكليزية كانت مقابلة اخرى جارية في منزل الاميرال دي فيتراي في شارع هوسمان فان بلانش بعد مقابلتها الاخيرة مع زوجها عاودتها الاحزان بشدة فان ذلك الذي كان نائماً في قلبها انتبه فجأة انتباه المنذعر .

وذلك أن هذه المنكودة كانت إلى هذا العهد واثقة من شرف زوجها وكانت تقول في نفسها انه قد يمكن أن يطيل ويسحق قلبها بانتقامه وكبريائه ويتصامم عن صوت ضميره ويسترسل إلى عناده البريتاني . انه قد يفعل كل ذلك ولكنه لا يمكن أن يلقي بطفلة بريئة إلى هوة الفقر والشقاء.

وقد كانت تكره زوجها كرهاً شديداً ولكنها كانت واثقة من شرفه وانه لا يقدم على مثل هذه الجريمة .

ولذلك كانت مرتاحة إلى هذا الفكرة وهي أن ابنتها لا تزال عائشة بحماية الذي اختطفها وأن كل انتقامه قاصر على أن لا يدع امها تراها فكانت حين تفتكر بها تتمثل لها انها عائشة بمدرسة في احد الاديرة بعناية الراهبات اللواتي يشفقن عليها دون شك ليتمها فتراها بعين التصور والحنو جميلة قوية متعلقة تنمو نمو الازهار .

وكانت تقول أن الزمن لا بد أن يلين قلب ذلك الزوج القاسي ويحط من كبريائه ويشفق على زوجته بعد رضوخها واستسلامها وحسن سيرتها وجدها فيرد اليها ابنتها التي طالما بكتها إشارة إلى الغفران والنسيان .

ولكن جميع تلك الاماني قد تلاشت فجأة فان الاميرال نفسه الذي جرحها هذا الجرح لم يعد قادراً على ضمده وهو نفسه قد جاءها اليوم يقول أن ابنتها قد اختفت منذ اعوام وهي لا تعلم إذا كانت ميتة أو في قيد الحياة فكانت تمر بها التصورات الهائلة فتحرمها الرقاد وتتمنى الموت في كل لحظة .

وكان قد مر بها على اجتماعها الاخير مع زوجها اربعة ايام وهي ساجنة نفسها في غرفتها لا تقابل احداً ولا تأذن لاحد بمقابلتها إلى أن دخلت اليها وصيفتها في ليلة وقالت لها:

– اتأذن سيدتي لصديقة لها بزيارتها .

قالت : من هي .

– هي المركيزة جانيت ابان .

– نعم نعم فلتدخل فقد عرفت سري وهي خير تعزية لي

وبعد هنيهة دخلت المركيزة العجوز فأسرعت بلانش إلى استقبالها وقالت لها :

اشكرك يا سيدتي ولا انسى كرم اخلاقك .

قالت اني قادمة لتعزيتك .

– اية فائدة يا سيدتي فاني لا اتعزى .

– من يعلم يا ابنتي وفوق ذلك فانك تجدين تعزية على احزانك لا يجدها كثيرات من الحزانى امثالك .

– كيف ذلك ؟

– ذلك لا ريب فيه فان حزنك شديد يحمل على الاشفاق ولكن عيشك الرخي وتلك الثروة التي تنفقين منها كما تشائين لا بد أن تخفف لواعج احزانك

– بل تزيدها .

– كلا فانك واهمة ولو افتكرت مرة باولئك المنكودات اللواتي يصبن باشد من نكبتك ويذرفن الدموع فوق ما تذرفين ثم لو افتكرت بانك تمسحين دموعك بمنديل يساوي الدينار والدينارين وانهن لا يجدن منديلا لمسح تلك الدموع فيمسحنها بالأنامل لخف ما عندك وانما اقول ذلك على سبيل التشبيه والمقابلة فهل رأيت الاميرال بعد تلك المقابلة ؟

– كلا .

– اني قادمة اليك بنبأ – ما هو ؟

– هو انك لا ترين زوجك قريباً .

– اين هو – عاد إلى طولون .

– أأنت واثقة مما تقولين ؟

– نعم فقد عرفت ذلك منه – كيف

– برسالة ارسلها الي وهي معي .

– رباه انه اذن يئس من لقائها .

– لماذا اليأس .

– انه ما تركني الا بعد أن اقسم لي بان يجد ابنتي ويرجعها الي ثم هرب مني حين يئس من لقائها .

– انك تبتكرين الافكار الداعية الى الهم كي تزيدي في احزانك .

– لو كان بقي له رجاء اما كان عاد الي .

– اطمئني يا ابنتي فان الصدفة أوقفته على اثرها .

فأسرعت بلانش إلى المركيزة فقبضت على يدها وقالت لها بلهفة اسرعي اسرعي يا سيدتي .

– اني لا اخبرك بالتفاصيل اشفاقاً على صبرك فان رافينو يبحث عن ابنتك كما تعلمين وقد عرف منذ بضعة ايام أن ارملة بوديت التي عهد اليها زوجك بابنتك كانت مقيمة في شربورغ فسافر الأميرال توا إلى هذه المدينة .

– وماذا لقي هناك – اقرأي كتابه تعلمي .

ثم دفعت اليها كتاب الاميرال فاخذته بلانش بيد ترجف

وقرأت ما يأتي :

« سيدتي المركيزة .

لا حاجة إلى أن اظهر لك ما كان لنصائحك من التأثير على افكاري فقد رددتني إلى نهج الصواب الذي طالما دفعتني الكبرياء إلى الزيغ عنه . اني بعد اجتماعي بزوجتي تشجعت وذهبت إلى وكيلي المسيو دافينو .. وهنا كتب الحادثة التي جرت بينه وبين الوكيل ثم قال :

ولم يبق عندي شك أن المرأة التي كانت في شربورغ هي بيرين ارملة بوديت التي عهدت اليها بالطفلة التي ولدت في صخرة مورجابت ولكن هذه المرأة فقدت عقلها على اثر نكبة لم اعرفها وبرحت شربورغ منذ ثمانية عشر شهراً إلى باريس فكتبت إلى وكيلي كي يبحث عن المجنونة وعن البنتين اللتين سافرتا معها فان باريس متسعة ولكن لا بد له أن يجدهن فيها فقد كلفته أن ينفق كل مالي في هذا السبيل وعلى ذلك فلابد له من ايجادها في زمن قريب .

وقد دققت بالسؤال عن جانيت حين كنت في شربورغ فعرفت من الجيران أن الناس كانوا يعجبون بادبها وجمالها وحسن صبرها وعلى الجملة فانها جديرة أن يكون لها غير هذا الحظ .

اني سأغيب بضعة ايام على رجاء أن يندمل ذلك الجرح الذي اصيبت به بلانش وأن رجال البحار يكونون من اهل

الايمان وأن تثقي بالله عظيمة فعسى أن لا يطول زمن البعاد »

صديقك

« مالونيان فيتراي »

وقد قرأت بلانش هذا الكتاب ببطء ثم جعلت تنظر إلى المركيزة دون أن تتكلم فقالت المركيزة .

– كيف رأيت يا ابنتي فهذا رجاء جديد .

– رجاء !

– دون شك فقد عرفت الآن انها جميلة اديبة وانها في باريس وأنها كثيرة الصبر الا تعدين ذلك رجاء .

فلم تجبها الكونتس ولكن صدرها كان يخفق بالامل فعادت المركيزة إلى الحديث فقالت : أن الاميرال يفعل كل ما يستطيع فعله ولم يبق سبيل إلى لومه .

فضحكت بلانش ضحكاً عصبياً ولم تجب فقالت المركيزة واني لا اريد غير تعزيتك وتشجيعك فاني اعلم كل ما تكابدينه ولكن الاميرال كابد ايضاً مثل ما تكابدين .

– نعم غير انه انتقم .

– لا أنكر انه انتقم انتقاماً هائلا ولكنك لا تغفرين له وأنت لا تزالي تفتكري بتلك المبارزة وبقتل أودي .

فوقفت بلانش وقد اضطربت اعصابها من التأثير فقالت :أن خطأكم عظيم لحسبانكم اني لا افتكر الا بهذا القتيل الذي لم اكن احبه غير حب اخاه وأقسم على صدقي بالله أنه قتل في مبارزة ولم

يقتله زوجي قتل الغادرين بل قتله قتلا شريفاً حسب مصطلحات الرجال فانا لا الوم الاميرال ولا الوم أودي فكلاهما قد نهج مناهج الاشراف وقد تخلص الاميرال من رجل كان حملا ثقيلاً عليه .

وأن الاميرال يقول أنه يحبني وأنت تعيدين علي هذا القول ولكن اية فائدة لي من هذا .. من هذا الحب فقد بت لا ابالي بشيء في هذا الوجود الا بامر واحد وهو أن أرى ابنتي .

وبعد فقد جاء في الرسالة أن ابنتي في باريس ولكن اين اجدها وماذا اعرف من امرها ومن يضمن لي أنها لا تعيش عيش النكد والشقاء وانها طريدة شريدة تلتمس الخبز فلا تجده .

وهي جميلة كما يقول فما يكون مصير الفتاة الجميلة الفقيرة في مدينة مثل باريس إذا لم تجد عملا شريفاً يضمن لها الارتزاق الا يمكن أن تكون ابنتي قد سقطت في تلك الهوة وهي فقيرة ولا بد لها من أن تعول نفسها وتعول امرأتين لا سيما وأن احداهما مجنونة والثانية فتاة صغيرة .

انها لا بد أن تكون احبت العجوز كأمها اذ هي التي ربتها ولا بد أن تكون احبت الفتاة كأختها إذ ربيت معها وهما عاجزتان عن الكسب فاذا رأتهما جائعتين ولم تجد سبيلا إلى العمل فما يكون مصيرها في هذه العاصمة التي لا يدركون فيها معنى للرحمة والاشفاق ومهما بلغ من ادبها وعفافها الا يغلب الجوع ذلك العفاف كما غلب معظم اولئك البنات التي تغص بهن الارصفة والشوارع المحسبين انهن سقطن في هذه الهاوية الا

بعامل الفقر .

اتعلمين لماذا لم يعد الاميرال . انه لم يخش أن لا يجد ابنتي في باريس اذ لا يمكن أن تضيع صبية معها فتاة وامرأة مجنونة ولكنه خشي أن يجدها وقد دفعها الفقر إلى الزلل وأنا بت خائفة خوفه فاني لا ارجو قرب لقائها حتى اضطرب من الخوف لا من السرور .

فتركتها المركيزة حتى افرغت جراب احزانها ثم جعلت تفند تلك الاوهام وتقول لها :

— أن حنوك قد دفعك إلى هذه المخاوف وأن من كان لها ادب ابنتك وعلمها لا تعدم مرتزقاً شريفاً في هذه العاصمة وأن الباريسين لم تنزع الرحمة من قلوبهم كما تتوهمين .

وما زالت تعالجها بمثل هذه الاقوال حتى اطمأنت وقالت لها إذن بماذا تشيرين علي ؟

قالت بالصبر والانتظار بضعة ايام فلا بد من ايجادها .

— ولكنها ستكون ايام مخاوف ولم يبق لي قوة تعينني على الصبر .

— افتكري بابنتك تصبري .

— لا افتكر الا بها .

— وبذلك الفرح المعظم الذي ستجدينه عند لقاءها .

— افتكر بمقدار بغضها لي إذ لا بد أن تكون حسبتني من غير قلب فكرهتني ولعنتني وكيف لها أن تعلم نكبتي وما ذرفت من الدموع .

— لقد قرب أوان انفراج هذا الشقاء فاصبري يا ابنتي صبر الكرام فان المسيو دافينو من أهل الحذق والاقدام وهو مخلص لكم اشد الاخلاص فلا بد أن يجدها قريباً وأن قلبي يحدثني بان مخاوفك كلها غير مبنية على اساس .

— انك تقولين هذا القول لي بغية تعزيتي لكرم قلبك فهو يعزيني ولكني لا ازال في ريب .

— كفى جزعاً وتوكلي على الله فهو خير معين ودعيني انصرف مطمئنة فاني ذاهبة .

— اتذهبين الآن ؟

— لقد كان علي واجب اتممته وأنت تعلمين أن هـــذا الكتاب وأن كان قد ورد باسمي فهو بالحقيقة مرسل اليك .

— اشكرك ولكن ابقي فاني ارى الليل طويلا ليس له آخر .

— كلا ولكن هذا من اضطرابك واحزانك التي اثارتها عودة الاميرال ولكن اطمئني واذكري المثل القائل « كل شيء فان »

والآن استودعك الله .

وقد ودعتها وحاولت الانصراف فلما بلغت الباب عادت فجأة وقالت : اتعلمين النبأ الجديد ؟

— ما هو ؟

— هو أن الخطبة ستعقد في شنساي .

— اية خطبة ؟

– خطبة جان رودريكوس على ماري نورمان .

– ومتى تكون ؟

– لم تقرر بعد ولكنها قريبة كما يظهر .

– وفقها الله .

– وعند ذلك افترقتا فعادت المركيزة إلى منزلها ودخلت بلانش إلى غرفتها فذكرت ابنتها وركعت وجعلت تبتهل إلى الله وتلتمس منه الرحمة .

المفاجأة

مضى على ذلك بضعة ايام وقد ورد الربيع بوروده ورياحينه وتفتحت اكمام الازهار في شنساي فكانت تشبه الجنان .

وقد رق الهواء وابتسمت الشمس وكثر شدو الطير فما اسعد من يستطيع العيش في الخلاء ويمتع النفس والعين بجمال الربيع !

دقت الساعة الحادية عشرة في قصر نورمان في شنساي وكان موريس نورمان قد ذهب إلى باريس حسب عادته في كل يوم وزار خليلته إذ كان له خليلة على جمال امرأته وبلوغه حد الكهولة كما اخبرنا بذلك بيير لاورش اذ كان اتبع له من ظله وقد تعقبه مرة فعرف واستقصى امره فعرف دخائل سره .

فبينما هو خارج من عند تلك الخليلة إلى البورصة لتفقد الشؤون المالية كانت امرأته متيلد نورمان واقفة في مشرف

مطل على الحديقة تتنشق نسيم الربيع البليل وتمتع النظر بازهاره .

وكانت قد رأت ابنتها ماري تسير متنزهة في تلك الحديقة وقد توارت عنها بين الاشجار الباسقة فلبثت في موقفها من المشرف تنتظر أن تخرج من بين الاشجار فتراها

وقد طال وقوفها ربع ساعة ثم رأتها ظهرت في مكان بعيد في آخر الحديقة قرب بابها الخارجي .

هناك وقفت في ظل شجرة ونظرت إلى جهة القصر فلم تر امامها ما يريبها .

وكانت بيدها رسالة فلما وثقت من انه لا يراها احد وأن نوافذ القصر مقفلة جعلت تقرأ تلك الرسالة بلهف وامها تنظر اليها بنظارة وهي مضطربة لا تفهم معنى ما تراه .

ولبثت ماري تقرأ ولكنها كانت تنظر من حين إلى حين إلى ما حولها نظرة الخائف ثم تعود إلى القراءة .

اما امها فقد ادركت كل الامر واضطربت اضطراب مباغتة لا اضطراب غضب فبرحت موقفها وخرجت إلى الحديقة فسارت في ظلال الاشجار وهي تحذر أن تنبه اليها الانظار .

إلى أن صارت بالقرب منها وهناك داست على غصن خفت أوراقه فالتفتت ماري مذعورة واسرعت إلى تخبئة الرسالة في صدرها وقد احمر وجهها حتى بات كالوردة حين رأت امها على قيد بضع خطوات منها تنظر اليها نظرات الانذهال فقالت لها بلهجة ذعر :

— امي !

فأجابتها قائلة :

نعم ولم يبق سبيل للكتمان فقد عرفت كل شيء ولكنك تخطئين خطأً عظيماً بما تفعلين .

فأطرقت الفتاة مستحية وهي ترتجف ثم نظرت إلى امها فرأتها باسطة لها ذراعيها وقد تغلب عليها الحنو فالقت نفسها بين يديها والقت رأسها على كتفها .

وقد كانت ماري في ربيع الحياة كما كانت الزهرة في ربيع العام اي انها كانت في ذلك العمر الذي لا يأنس القلب فيه الا باشعة الحب كزهرة الربيع التي لا تنتعش الا بندى الفجر.

فهمست امها في اذنها قائلة :

— الحبين يا ابنتي ؟

فأجابتها بصوت خافت ضعيف قائلة : نعم .

فأجلستها على مقعد هناك وجلست بجانبها وهي تنظر اليها بملء الحب وقالت لها :

— اذن لك سر تكتمينه عن امك ؟

— أأجسر على الاعتراف به ؟

— لا تكذبي يا ماري وقولي الحقيقة فهل غلطت غلطة تؤنبين عليها ؟ — نعم .

فاهتزت الام لخوفها ولكن ماري اسرعت فقالت :

— نعم يا اماه وما كان خطأي الا بكتمان امري عليك .

وعند ذلك اخبرتها بكل امرها فروت لها كيف انها حين

علمت اول يوم بقدوم جيرانهم إلى شنساي دفعها الفضول إلى رؤيتهم من الحديقة وكيف انها رأت جان رودريكوس وانها باتت تتنزه في ذلك المكان كل يوم وتجده واقفاً في النافذة كأنه ينتظر مرورها ثم كيف تولد الميل بينهما وكيف حملها هذا الميل على قبول رسالة منه واجابته عليها وهي تعلم أنها مخطئة فيما فعلت ولكن حسنات هذا الفتى قد غلبتها فقد كان شديد الحب شديد الاحترام لم يتجاوز مرة سور الحديقة اليها بل كان يكتفي بالرسائل التي اتفقا على وضعها في مكان خفي من الجدار وكانت ماري قد بدأت اعترافها بلهجة الخائف المضطرب إلى أن شجعتها نظرات امها فاندفعت في حديثها ثم قالت : لقد حاولت مراراً أن اخبرك بما كان ، غير أن الحياء كان يعقد لساني على اني لا انكر خطأي ولكن ذلك كان فوق طاقتي وانا اعلم يقيناً انه لا خوف علي حين اكون معه .

وهذا كتابه اتى اليوم فاقرأيه تعلمي عواطفه الشريفة .

فاخذت امها الرسالة بعد أن تمت قرأتها ثم قالت لها :

— لقد كان يقضي عليه واجب الادب أن يخابر اباك بشأنك لا أن يخابرك .

فدافعت ماري عنه خير دفاع ثم عانقت امها وهذا العناق خير سلاح تغلبها به وقالت :

— انك تحكمين عليه حسب مصطلحاتنا وعاداتنا فان مثل هذه المراسلات غير جائز عندنا واما في بلادهم فهو غير ممنوع فانا وحدي المخطئة وهو معذور اذ جرى على عادات بلاده

الاميركية وفي كل حال فاقرأي رسالته يا امي تدركي شريف قصده .

فتحت امها الرسالة وقرأت ما يأتي :

« عزيزتي ماري .

قرأت رسالتك امس بفرح لا اصفه اذ لا انصفه وقد حفظته غيباً فان كل كلمة من كلماته العذبة كانت تنطبع على صفحات قلبي . لله ما اطيب قلبك ونحن متفقان في الافكار فاني لا احلم الا بالاقامة في مكان هادىء مطمئن لا ارى من حولي فيه غير الوجوه الضاحكة والقلوب المطمئنة .

واية لذة اعظم من لذة احسان المرء إلى الناس حين تساعده الثروة على هذا الاحسان .

ولكن كيف ابرح هذه القرية الجميلة التي اذ لم يكن لي من جمالها سوى اني رأيتك فيها لأول مرة لكفاها جمالا في عيني، اني ما تعلقت بالحياة ايتها الحبيبة الا منذ تلك اللحظة فقد كنت إلى ذلك العهد يتيماً اذ مات ابي وامي وانا صغير فنشأت غريباً وحيداً منذ حداثتي .

وما زلت اطوف في اميركا وأوروبا طوف التائهين إلى أن اتيت إلى بلادكم الجميلة ورأيتك فيها فعرفت معنى الحياة وصار لي مأرب في هذا الوجود .

نعم اني مدين لك بالحياة نفسها فانت التي افهمتني معناها على انك اسعد مني يا ماري إذ لك أم تحن عليك وأنت ابنتها الوحيدة فكيف ابعد بك عنها وأسيء اليها هذه الاساءة ، نعم

ايتها الحبيبة فانك إذا رضيت بي ورضي بي ابوك لا ابرح هذه البقعة الطيبة ولا ابتعد ساعة عن جوارها .

ولكن ثروتك ترعبني يا ماري وأخشى أن اتهم بحب المال اذ اين لهم أن يعرفوا حقيقة ما يجول في قلبي .

ولا اريد بذلك اني اتمنى أن تكوني فقيرة ولكنك لو كنت فقيرة لاحببتك فوق ما احبك الآن ولكنت خطبتك من ابويك من عهد بعيد .

إلى اللقاء ايتها الحبيبة واعلمي أن روحي ترفرف عليك وهي بين يديك في كل حين وفي كل مقام واني احبك حباً لا يحيط به وصف ولا يعادله غير ما يكنه قلبي لك من الاحترام»

وقد قرأت امها بملء الامعان تلك الرسالة التي كأنها لم تكتب الا لتطلع عليها اذ تضمنت كل ما يرضيها ولا سيما باعرابه عن نيته بالاقامة بجوارها وأنه لا يريد أن يسافر بابنتها إلى تلك البلاد النائية ..

وكانت تعلم انه وافر الثروة فلم يبق لديها شك انه غير طامع بالمال وانه يحب ابنتها حباً صادقاً فلم ترجع الرسالة اليها بل ادخلتها إلى جيبها كأنها تريد أن تحفظها عهداً عليه بعدم الابتعاد بابنتها .

اما ماري فانها خافت من احتفاظها بالرسالة وقالت لها بلهجة المتوسل :

— ارجو أن لا تفشي سري على الاقل .

— لمن افشيه ؟ — لأبي .

— ولكنك لم تنتهجي المنهج الذي علمتك اياه يا ماري .

فأطرقت الفتاة برأسها خجلا فقالت لها امها :

— اذن لقد كتبت له ؟

— نعم .

— وقد تحدثتما مراراً بحيث بت تعرفينه حق العرفان .

— نعم يا اماه فهو من اطهر الناس قلباً وأعظمهم كرماً .

— ان هفوتك عظيمة يا ابنتي ولكن اصلاحها ممكن .

— اذن أنت توافقين ؟

— أتحسبين اني أريد غير سعادتك ؟

— لله ما اشد حنوك !

— ولكني لست وحدي صاحبة الأمر .

— نعم فان لأبي الكلمة الاولى فما عساه يقول ؟

— سأرى ما يكون ولكني لا اريد هذه المراسلات الخفية .

— سأمتنع عنها .

— اين هذا الصندوق الذي تضعان فيه الرسائل ؟

فسارت بها ماري إلى جدار عرشت عليه الاعشاب فأزاحت العشب عن مكان منه وأرتها ثقباً في الجـــدار وقالت لها هذا هو .

فقالت مدام نورمان : يا للشباب ؟

اما ماري فقد ابتسمت ابتسامة رضى اذ تبينت أن امها باتت نصيرة لها فلم يبق بد من الفوز اذ بات لها حليف على ابيها إذا ابى هذا الزواج .

وعند ذلك دق جرس القصر مؤذناً بالغداء فتأبطت الام ذراع ابنتها وسارت بها وهي تقول :

— لقد وجب أن نضع خطة فهل تتبعين نصائحي ؟

— دون شك فمري يا اماه امتثل .

— أتحبين هذا الفتى ؟

— اني إذا كنت لا احبه فاني اميل اليه كل الميل .

— لا تواربي يا ماري — اقسم لك .

— قولي الحقيقة فانك تحبينه ؟

— حباً طاهراً .

— وانك تريدين الزواج به ؟

— لا شك اني افضله على سواه .

— اقتنعت جيداً يا ماري ؟ — نعم

— أن هذا الموقف الذي اوقفت نفسك فيه لا يمكن البقاء عليه فقد اخطأت بالكتابة اليه اذ انه يمكن أن يستفيد من رسائلك .

— ولكنك تسيئين اليه يا امي بهذه الظنون فهو من اجل الناس ادباً وأشرفهم عـاطفة فـلا يسيء إلى من احبته اصدق حب .

— اذن اريد أن تكتبي له ايضاً — أنا !

— نعم ولكنك تكتبين له رسالة تكون الأخيرة .

— ماذا اكتب له ؟ — ما أمليه عليك .

وكانتا قد وصلتا إلى المنزل فدخلت بها إلى غرفتها وقالت

لها اجلسي واكتبي
فامتثلت الفتاة وأملت عليها امها ما يأتي .

« سيدي ،
أن امي عرفت كل امرنا وأنا التي اخبرتها بكل نواياك فاعترفت لها اعترافاً تاماً بالحقيقة بجملتها بحيث لم يبق عليك الا ان تقول لأبي وامي ما قد تكون اخطأت في قوله لي . لا تتردد وأية فرصة خير من هذه الفرصة ؟ فاقبل تحياتي ودعائي لك بالتوفيق .

وقد رأت ماري أن هذا الإنشاء لا يخلو من الجفاء بالقياس إلى ما تعودت أن تكتبه اليه ولكنها لم تجد بدأ من الامتثال .

وعند ذلك ذهبتا إلى قاعة الطعام وبعد الغداء ذهبت إلى الحديقة فوضعت الرسالة في الصندوق السري بعد أن اضافت اليها ما يأتي :

« أن امي اكتشفت المكان الذي تخبيء فيه الرسائل وقرأت رسالتك الأخيرة بجملتها ولكنها طيبة القلب فغفرت لي وهي التي املت علي هـذه الرسالة التي كتبت فيها هذه الحاشية .

لا تتأخر عن مقابلة ابي وثق انه سيلاقيك بالاحتفاء .
فان امي نصيرة لنا وأنت تعرف المثل القائل :
القصة السعيدة نهايتها سعيدة . اذن إلى اللقاء القريب » .

وفي الساعة السادسة من ذلك اليوم تسلق جان السور وأخذ الرسالة من موضعها وعاد بها إلى استاذه بيير الذي كان ينتظره

فلما قرأها برقت عيناه بأشعة الرجاء وقال له :
لقد احسنت تمثيل دورك يا جان وتمت الخدعة فلم يبق شك بالانتصار . — لم يتم شيء بعد .

— لم يبق عليك غير أن تبذل الجهد الأخير فقد باتت الأم والبنت من حزبك وهما حليفتاك على الأب فيجب أن تضرب الحديدة وهي حامية .

— حسناً فسأرى موريس نورمان .

— متى ؟ — غداً

— لماذا لا تقابله هذه الليلة ؟

— لاني مشغول .

— احذر فما حبط مشروع الا وكان النساء سبب حبوطه ؟

— العلك تشير بذلك إلى جانيت ؟

— هو ذاك .

— اذن فاطمئن فاني أحب جانيت وهي تحبني اصدق حب فلا خوف علينا .

— هذا الذي ارجوه .

وفي الساعة التاسعة برح جان القصر إلى حيث تقيم جانيت فوصل اليها بعد نصف ساعة ولقيها تنتظر قدومه في النافذة فقالت له بصوت منخفض :

— اهذا أنت ؟ — قال نعم .

— قالت اسعد .

وبعد هنيهة كان عندها وهو يعد نفسه اسعد البشر فان

ماري كانت تجارته وثروتـه امـا جانيت فقد كانت غرامه وسعادته .

أب وابـن

كان جان رودريكوس وعد استاذه بيير لاروش أن يزور نورمان في اليوم التالي وهو يوم احد لم يتقدم ذلك اليوم الذي تقرر فيه القضاء على بائع الالماس الا باسبوع .

وكان جان بعد أن لقي جانيت لم يعد يهتم بالامر الا لجمع المال بغية ارضاء عشيقته .

ولكنه عول على أن تكون هذه الجريمة آخر جرائمه فيقبض حصته من مهر ماري وحصته الثانية من بائع الألماس ثم يهرب بعشيقته إلى مكان قصي ويعيش معها اهنأ عيش .

ففي اليـــوم التالي وهو يوم الاحد المعين للزيارة كانت ماري جالسة وراء النافذة وهي تنتظر بفارغ الصبر قدوم جان اذ كانت واثقة من قدومه بعد ان كتبت له تلك الرسالة ولم يخامرها شيء من الشك وكيف تداخلها الريبة بفتى يظهر لها في كل لحظة انه هائم بها وهي لم تتجاوز العشرين من العمر .

وكانت امها جالسة بجانبها تحادثها فلما بلغت الساعة العاشرة دون أن يحضر تبين القلق على وجه ماري فابتسمت لها امها وقالت لها :

— لا تخشي يا ابنتي فاني لك خير نصيرة وهو لا بد

أن يحضر .

اما موريس نورمان فقد كان جالساً في غرفة اشغاله يطالع الجرائد .

وفيما هو على ذلك دخل احد الخدم يحمل صينية من الفضة عليها رقعة زيارة فتناولها موريس وقرأها ثم سأل الخدم : أهو هنا .

قال : نعم يا سيدي انه في الردهة .

قال : ليدخل

وبعد هنيهة دخل جان رودريكوس فاستقبله موريس احسن استقبال وأجلسه بجانبه .

— اني أزورك يا سيدي الآن لشأن دقيق ما تجرأت عليه الا لاني وحيد في هذا الوجود .

فاجابه موريس بلطف قائلا : أأنت وحيد ؟

— نعم يا سيدي ، فقد مات اهلي عني صغيراً لم اكد اعرفهم وانما اتجاسر على مكاشفتك بما اتيت لأجله لما عرفته عن مكارم اخلاقك وهو ينحصر بجملة وهي :

اني أحب الآنسة ماري وأتشرف بطلب يدها منك .

فحدث سكوت يشبه سكوت الطبيعة بعد العاصفة وحسب جان وقد رأى موريس اسند رأسه إلى يده انه يفتكر بهذا الطلب الخطير .

ولكنه كان مخطئاً فان موريس كان يحدث نفسه بامرين فكان يقول في نفسه :

« لقد سمعت هذا الصوت ورأيت هاتين العينين »
وقد كان الامر بعيداً على هذه الذكرى ولكنها شغلته عن زائره وعن الغاية من زيارته .

اما جان فانه مضى في حديثه فقال :

– ولا بد لي يا سيدي قبل أن اطمع بجوابك من أن اخبرك بما يجب أن تعرفه عن اسرتي وعن حالتي .

اما اسرتي فهي من الاسرات الشريفة وأن السفارة الاميركية تشهد بها خير شهادة .

– لقد عرفت ذلك .

– وأما ثروتي فلا تعد عظيمة .

فعاد موريس إلى مناجاة نفسه فقال : ترى أين سمعت هذا الصوت وأين رأيت هاتين العينين ؟

وقد ذكر عند ذلك خليلته القديمة فاضطرب وقال في نفسه ما هذا الذي تولاني العلي اصبت بالجنون ثم التفت إلى جان وقال له :

– اين ولدت ؟

– في أورليان الجديدة .

– وفي اي سنة ! – سنة ١٨٦٢

– ماذا كانت تدعى امك ؟

– ماتيلا بالاكيوس – وأبوك ؟

– جوزيف بيدرو رودريكوس .

– متى فقدتها ؟

– لقد مات ابي بعد ولادتي بعامين وكذلك امي فقد قتلها الحزن عليه .

فقال موريس في نفسه : اذن لا شك اني اصبت بعارض جنون ثم سأل جان قائلاً :

– اذن اخبرني عن مقدار ثروتك ولا تؤاخذني إذا دققت في هذا البحث فاني اعتقد أن المال اساس كل هناء في هذا الوجود .

– لا يخالفك احد يا سيدي في هذا الرأي .

– ألك عقار في اورليان الجديدة ؟

– نعم – كم يساوي ؟

– نحو ستين الف دولار .

– اي ثلاثمائة الف فرنك .

– بالتقريب – اتريد أن تبيعه ؟

– نعم – لماذا ؟

– لأني عولت على الأقامة في فرنسا وعدم الخروج منها فإن ابي كان اسبانياً ولكنه ولد في بيون فهو اذن فرنسي .

– اتريد أن تكون فرنسياً .

– إذا كان هذا شرطاً من شروط الزواج ارضى به لا محالة

– سنعود إلى هذا البحث ولنتم الآن بحثنا في العقار .

– أن لي قصراً في شنساي وآخر في باريس .

– ومن النقد ؟

– هذه هي قائمة كتبت فيها ما امتلكه من الاسهم وما

اودعته في المصارف .

فأخذ موريس القائمة وجعل يقرأها بامعان ويقول في نفسه انه سيكون دون شك خير زوج لا بنتي فان ربع هذه الاسهم المالية وحدها يبلغ مائة الف فرنك .

فقال جان : انها ثروة قليلة دون شك ولكني ارجو أن تكفي للعيش بسعة .

— بل هي ثروة كبيرة فكم يبلغ ريع ارضك في اورليان

— نحو ثلاثين الف فرنك في العام .

— اتحب استبقاءها ؟

— إذا اشرت علي بذلك فعلت .

فرد موريس القائمة اليه وقال :

— اني مرتاح إلى طلبك يا سيدي ولكن مثل هذه الامور تحتاج الى التمعن والاستشارة وأعدك أني سأفعل .

— اتأذن لي أن ارجو ؟

— دون شك فانك غني ولا تزال في مقتبل الشباب .

— ولكن ثروتك تخيفني فان ثروتي لا تذكر في جانبها .

— ومتى كانت الثروة تخيف يا بني ؟

— اريد يا سيدي أن المدموازيل ماري يكثر طلابها لهذه الثروة ولما لها من الادب والجمال .

— أن الطلاب كثيرون ولكن الفالحين قلائل وسأفتكر بامرك كما وعدتك فان عمرك سبعة وعشرون عاماً كما تقول ؟

— سأبلغ هذا العمر بعد بضعة ايام .

— وليس لك عائلة ؟

— كلا واأسفاه وسأكون سعيداً حين اجد لي عائلة .

— ستكون سعيداً باذن الله .

وعند ذلك نهض جان يحاول الانصراف فشيعه موريس إلى الباب الخارجي وهنالك قال له :

— لا تنس ما قلت لي وهو انك ترضى أن تكون فرنسياً

— اني ارضى مقدماً بكل ما تقترحه علي من الشروط فليست المصلحة التي تقودني بل الحب .

وعند ذلك افترقا فذهب جان في شأنه وعاد موريس إلى المنزل وهو يقول في نفسه :

— اين اجد لها مثل هـــذا الزوج ولكن ما هذه النظرات وما هاتان العينان .

وقد وضع يده على جبينه كأنه يريد أن يطرد خيالاً يعذبه إلى أن وصل إلى غرفته وكانت امرأته تنتظره وحدها فيها فسألته ماذا حدث ؟

— انه خطب إلي ماري — وهل رضيت به خطيباً .

— اظن أن رضاي به لا يرضي فرنند الذي لا تزالين تفتكرين به كما اظن .

— لست انا التي تريد الزواج وإذا كنت قد دافعت عنه فما ذلك الا لاني كنت اعتقد أن سعادة ابنتي بزواجه فاني احترمه وأشفق عليه لأنه يحب ابنة عمه .

— وتحسبين انه يحبها .

- نعم وسيتعذب كثيراً لزواجها بسواه .
- وماري .
- انها تحترمه وتحبه حب اخاه .
- وجارها — انها تحبه
- من انبأك بذلك .
- لا حاجة إلى اخباري فقد عرفته من نفسي فان الام لا تخفاها خافية من عواطف ابنتها .
- ومع ذلك فلا بأس من أن تسأليها كي نكون على ثقة .
- لا فائدة من ذلك فماذا اجيب الخاطب .
- قلت له ستتمعن . — ولكنك قد تمعنت كما اظن.
- ربما — فماذا خطر لك .
- انه زوج صالح فقد بسط لي حالته بأتم الجلاء وأيقنت أن ثروته تبلغ ثلاثة ملايين .
- وهي ثروة كافية .
- بل كنت أود أن تكون ملايينه خمسة بدلا من ثلاثة ولكن فتيان اليوم يحبون الزواج حين يكون لهم مثل هذه الثروة .
- اذن فان الامر ميسور من هذا القبيل .
- بل من كل قبيل فانه يرضى بجميع ما اشترطه عليه .
- كلها ؟ — دون استثناء .

فتنهد تنهد الارتياح اذ كانت تخشى من معارضة زوجها وتركته وانصرفت فعادت إلى ابنتها فأخبرتها بهذا النبأ السار

وبينما كانت الأم وابنتها تتداولان بهذا الحديث كان الاستاذ وتلميذه يتداولان ايضاً فان جان عاد تواً إلى بيير فسأله بيير قائلا : ما وراءك من الاخبار ؟

- لقد جرت الامور خير مجرى .
- ومتى يكون الجواب ؟ — في وقت قريب .
- أتحسب انه يجيبك بالرضى ؟ — هذا لا ريب فيه .
- بورك فيك يا بني فقد اعطيتك مهلة عام ولكن هذه المهلة ستنقضي قبل العام فتنال ما تتمناه من الثروة .
- بل أن مرجع الفضل اليك فانت قدت خطواتي في هذا السبيل .
- يسرني اعترافك بالجميل يا جان .
- ولكن هذه الجريمة ستكون آخر جرائمي ؟
- دون شك فان مهمة اليهودي ستنقضي قبل مهمة الزواج

وكانا عند ذلك على المائدة فرفع جان كأسه وقال :

- اني اشرب نخب سيدي الاستاذ .

فأخذ بيير كأسه ايضاً وابتسم ثم قال :

- واني اشرب نخب تلميذي العزيز .

وكان الانكليزي شريكهما الذي يمثل دور الخادم يخدمهما على المائدة فقال في نفسه :

اني لا اعلم ما يبغيه هذا الخبيث من موريس نورمان ولا ادري إلى اية هوة يريد أن يقذف هذا الفتى ولكني على غناه وفقري لا اتمنى أن أكون مكانه .

الفصل الخامس

بعض الجلاء

كان ذلك المنزل الذي اختاره جان لخليلته من اجل المنازل ولا سيما تلك الحديقة الغناء التي كانت تحدق به .

وكانت الحنونة تلقى فيه كل اسباب الراحة وكذلك ابنتها الصغيرة فانها لم تكن تصدق ما تراه وقد انتقلت فجأة من جهنم إلى الفردوس فكانت تسأل جانيت في كل حين عن دوام هذا النعيم كي تطمئن ثم تسألها عن هذا الفتى التي كان يزورها في كل ليلة وإذا كان هو السبب في هذه النعمة .

فتضطر جانيت إلى استعمال الاكاذيب في جوابها وتخلو إلى نفسها فتبكي بكاء كثيراً وتندم الندم الشديد على زلتها .

ولكنها لا تلبث أن ترى جان حتى يمحى ذلك الندم ويتبدل الحزن بالسرور وذلك البكاء بالابتسام .

ذلك لأنه اخذ بمجامع قلبها وباتت تحبه حباً ليس بعده حب

وقد اقامت ليلة تنتظره وقد تأخر عن ميعاده حتى الساعة العاشرة فجاء ودخل إلى المنزل وهو مجهم الوجه فلم يعانقها حسب عادته بل القى جرائد كانت معه على مقعد وجلس على

كرسي وهو يقول :

— لقد كنت اخشى أن لا اصل .

وكانت هيأته تدل على اضطراب شديد فذعرت جانيت وقالت له :

— ماذا اصابك .

فاظهر الدهشة وقال لها : لماذا تسأليني هذا السؤال .

— لأن هيأتك تدل على اضطراب شديد .

— ولماذا اضطرب .

— لا ادري ولذلك اسألك .

— ربما اكون قد اخفتك .

فحاولت أن تبتسم وقالت : كلا ولكني اراك حزيناً

— بل اني متكدر — لماذا

— لأني مضطر إلى فراقك الآن .

-- افتفارقني طويلا .

— كيف استطيع فراقك عهداً طويلا وأنت حياتي .

— احق ما تقول .

— كيف ترتابين بقولي — إذن لماذا تفارقني .

— لأنهم ينتظرونني في منزلي في باريس لشأن خطير .

— من هذا الذي ينتظرك .

— اصدقاء لي من لندرا حضروا على غرة .

— ايقيمون هنا زمناً طويلا .

— كلا بل يسافرون غداً .

- إذن متى تعود الي .

- غداً — دون شك فان كدري عظيم لفراقك الآن .

ثم قبل جبينها وقال لها : لو لم اكن احبك ما كنت احضر اليك من باريس لأراك خمس دقائق .

- وأنا ايضاً احبك لكرم اخلاقك وحنوك على فتاة فقيرة مثلي ولكن احذر أن تحزنني .

- لعلك تغارين علي .

- اي حب يكون بغير غيرة فانك كنزي الوحيد في هذا الوجود فاذا سلبتك مني امرأة اخرى فماذايكون مصيري وماذا يبقى لي .

- فهز كتفيها وطمأنها وأكد لها مواثيقه أنها ستكون امرأته قريباً امام الله .

ثم نظر في ساعته وقال لها :

- أن استاذي طلب الي أن اعود وأنا اعدرجاءه بمثابة أمر فان هذا الاستاذ يأمرني كما يشاء اذ لا يزال يعتقدأنني ابن خمسة عشر عاماً .

ثم ودعها وانصرف فشيعته إلى باب الحديقة وعادت إلى مربيتها فالفتها على عادتها تهذي وتغني وتقول من حين إلى حين هذه الكلمات .

- البحر .. الضابط .. صخرة مورجابت .. جانيت .

فدنت جانيت منها كي تستلفت اليها نظرها قائلة اماه .

فالتفتت العجوز اليها وقالت لها : اهذا أنت ؟

- نعم فاني ساهرة عليك فماذا تصنعين ؟

فابتسمت العجوز وقالت : لا اعلم .

- انك شديده الضعف ويجب أن تنامي.

- لا استطيع النوم هذه الليلة — لماذا !

- لأن افكاري تعذبني .

- بماذا تفتكرين فانك كنت تتكلمين عن الماضي فاجتهدي أن تتذكري وان ابنتك تلتمس منك ذلك .

- لماذا تقولين انك ابنتي فما انا امك .

- ولكني احبك اكثر مما لو كنت فاجتهدي نفسك قليلاً وقولي من الذي عهد بي اليك .

وقد حدقت بها وحصرت كل ارادتها بنظرها كي تهيج ولو لحظة تلك الذاكرة المضطربة فاجابتها العجوز قائلة : من؟

- اهو ابي ؟

- كلا كلا — اذن من هو

- لقد ذكرت الآن .. أن اباك مات .. ان الأب قتل .

انه نائم في اعماق المياه .. هناك .. اما الآخر .. من هو .. اني لا اعلم .

- تذكري — لا استطيع

وهنا عاد اليها هذيانها فعادت إلى الغناء .

وقد خامر قلب جانيت شيء من الرجاء في البدء وأملت أن تعود إلى المجنونة ذاكرتها ولكن جهدها ذهب عبثاً فصبرت على العجوز حتى نامت وذهبت إلى غرفتها وكانت الساعة قد

بلغت الاولى بعد انتصاف الليل فخلعت ملابسها وحاولت الرقاد فأرقت لاضطرابها ولم تستطع النوم .

وفيما هي على ذلك رأت تلك الجرائد التي جاء بها جان وقد نسيها عندها فاختارت من بينها جريدة الفيغارو وجعلت تطالع فيها فقرأت فصولها ومقالتها الادبية والافتتاحية وانباءها السياسية إلى أن وصلت إلى اخبارها المحلية فلم تكد تقرأ الخبر الأول منها حتى ارتعشت واختلج صدرها اذ قرأت هذا الاعلان الذي نشر في اول المحليات استلفاتاً للأنظار وهو .

« يطلب الافادة عن ارملة من ولاية بريتانيا تدعى بيرين بوديت فمن عرف اين هي فليخبر المسيو دافينو في شارع الجو وله مكافأة حسنة » وقد كان الاسم واضحاً جلياً لم يبق لديها شك بانهم يسألون عن مربيتها ثم انهم لا يسألون عن المرضع الا بغية الوصول إلى الرضيع إذن فهم يبحثون عنها نفسها ولكن ترى من هذا الذي يبحث عنها بعد أن انكرها وتخلى عنها عشرين عاماً .

وقد قرات هذا الاعلان السري عشر مرات فكثرت ظنونها وعولت على أن تستشير جان في امرها فنامت وقد قررت أن تذهب اليه صباح غد لتستشيره بما يجب أن تصنع .

كان اليوم التالي يوم السبت وهو اليوم المعين لانهاء مهمة بائع الجوهرات ولذلك قضى بيير على تلميذه أن يسهر تلك الليلة عند خليلته لأعداد ما ينبغي اعداده من المهات .

وقد عاد من عند خليلته في منتصف الليل تواً إلى منزله في باريس ولقي استاذه لا يزال ينتظره وهو يسير في غرفته ذهاباً واياباً مفكراً فقال له افتكر بمهمة الغد .

— كلا فقد قررتها وأعددت لها عدتها ولكني افتكر بالمهمة الثانية وانها ستسير بعد الآن على جناح السرعة .

— حسناً فاني انا ايضاً اريد الفراغ من هذه الشؤون .

— وبعد ذلك ماذا تصنع .

— أذهب من باريس إلى مكان لا تدركني فيه الأرصاد .

— اتذهب وحدك — كلا .

— مع من .

— مع خليلتي ثم معك إذا اردت أن تلبث معي .

— ذلك لا ريب فيه لاني لا افارقك يا بني ولكن ماذا نصنع بالاخرى .

— اقبض مهرها .

— حسناً فاقبض المهر ثم نرى ما سيكون لنا من هذا المهر ومما ستقبضه من مال روزن ما يكفينا العيش إلى آخر العمر عيش الأغنياء .

– اذن لقد تقرر امر هذا الرجل .

– دون شك   – متى ؟

– غداً في الساعة التاسعة يزورنا وفي الساعة التاسعة ونصف يقضى الامر وفي الساعة الثالثة نكون في شارع برجوليس .

– أي شأن لنا في هذا الشارع .

– لا بد من الذهاب اليه لحضور تدشين المعرض وقد استأجرت لك لوحاً بجانب لوح خطيبتك .

– كيف عرفت نمرة لوحها .

– من احد خدم ابيها .

– انك الشيطان بعينه ايها الاستاذ ولكن اتحسب أن حقيبة روزن فيها من الجوهرات ما يستحق هذا العناء .

– لقد رأيتها بعيني فاذهب الآن ونم فما عليك الا أن تستقبله غداً في الساعة التاسعة .

وقد افترقا فنام جان تلك الليلة نوماً مضطرباً وفي صباح اليوم التالى اقبل بائع الجوهرات وسأل عن جان رودريكوس فادخلوه اليه .

•

كان خدم القصر مؤلفين من ثلاثة رجال اشداء وكلهم من عصابة الشركة الانكليزية فكانوا مع بيير وتلميذه خمسة وهم متفقون تجمعهم غاية واحدة كما تجمع الكف الاصابع .

اما روزن فانه دخل إلى جان وكان بيير عنده فوضع حقيبته على المائدة وقال له مشيراً إلى استاذه :

– أن هذا الاستاذ قد اخبرني . وذلك طبيعي فان من كان له ثروتك وشبابك لا يأتي إلى باريس كي يضجر .

ثم ابتسم وقال : اهي شقراء ام سمراء ؟

– لماذا هذا السؤال .

– لاختار لها حلياً توافق لونها   – انها شقراء .

فأخرج من الحقيبة عقداً مرصعاً بالماس وفي وسطه ياقوته فقال : أن هذا العقد يوافقها كل الموافقة وقد اشتريته بنصف قيمته من احد المسرفين وسأبيعك اياه بربح زهيد فاني لست من اهل الطمع .

– كم يساوي ؟   – سبعة آلاف فرنك ؟

– ما هذا الغلاء !

– انك تستطيع أن تثمنه عند من تشاء ولكني اقسم لك انه لو كان في مخزن بيشرون لما اشتريته الا بثلاثة اضعاف هذه القيمة .

– ربما ولكني لا احب الأسراف لا سيا وقد اتيتني في ساعة ازمة !   – انك تمزح يا سيدي دون شك .

– كلا فقد وردتني انباء من البورصة تفيد أن جميع الاوراق المالية في هبوط .

– إذا هبطت اليوم فهي سترتفع غداً .

– هذا الذي اتمناه .

ـ اذن لا رغبة لك في شراء هذا العقد ـ كلا

ـ كما تريد غير انك مخطيء فانها خير فرصة تغتنم .

ـ ربما غير اني قليل العناية بهذه الامور .

ـ ولكن لا بد لك قريباً أن تمتني بها ـ لماذا

ـ لأن يوم الزواج قرب موعده ولا بد من الهدية : انظر يا سيدي إلى هذا الخاتم الجميل وإلى هذين القرطين وهذا السوار فانها متناسبة اتم التناسب وقد اشتريتها بابخس الاثمان .

فنظر جان اليه نظرة الفاحص ثم قال له : كم ثمنها .

ـ عشرة آلاف فرنك فقط .

فقال جان لاستاذه : ماذا تقول .

ـ انها نقود تلقى في البحر اذ لا فرق عندي بين الزجاج والماس ولكن لا بد لك من الهدية يوم الزفاف فهذه مصطلحات الناس ..

ـ وما رأيك في الثمن .

ـ لم يرد ذكر هذه السفاسف في ما لدي من الكتب ولكني اتوسم الصدق بهذا التاجر .

ـ أذن سأعطيه ثمانية آلاف فرنك .

فأقسم روزن بالتوراة والتلمود والوصايا العشر انها صفقة غير رابحة وانه لا يستطيع أن يخفض درهماً من الثمن وانه لم يطلب هذا الثمن البخس الا على رجاء أن يكون من زبائنه وما زال به حتى اقنعه فقال له لقد رضيت بهذا الثمن .

ـ الا تريد يا سيدي أن ترى ما عندي من الزمرد والياقوت

واللآلىء فان لدى منها ما يدهش الابصار .

ـ سنرى ذلك فيما بعد .

ـ بل ارجوك يا سيدي أن تنظرها الآن إذا لم يكن على سبيل الشراء فعلى سبيل الفرجة .

وانما قال ذلك بغية اغوائه كي يستميله إلى الشراء فبسط كل ما لديه من تلك الحجارة الكريمة على المائدة وبيير ينظر اليها نظرة المندهش

ولكن جان لم يظهر اكتراثاً لها وقال له : لا احتاج الآن الى غير ما اشتريته ولكني سأشتري منك بعد شهر بعض هذه الجوهرات .

ـ اتعدني بذلك يا سيدي

ـ ولماذا افضل سواك عليك .

فشكره روزن وأعطاه جان حوالة بقيمة ما اشتراه فوضع الحوالة في جيبه ورد الجوهرات الى الحقيبة وتأهب للانصراف ، ثم ودعه شاكراً وخرج من غرفه الى رواق طويل يؤدى الى الردهة فأقفل جان الباب ووقف وراءه مصغياً فلم تكن غير هنيهة حتى اضطرب وتبينت في وجه علائم الرعب فانه سمع صيحة الم شديدة في الرواق .

وقد اضطرب بيير ايضاً اضطرابه فان اقل هفوة تفسد خطته وقد خشي عواقب هذه الفضيحة ولكن القصر كان بعيداً عن الجيران ولا يصل الصوت منه الى الشارع ولم يكن في المنزل الا رجال العصابة واليك ما حدث فان بائع الجوهرات لم

يكد يتوسط الرواق حتى بادره رجل قوي وبيده مطرقة من حديد فضربه بها ضربة هائلة على رأسه فصاح تلك الصيحة وسقط على الارض لا يعي فأسرع ذلك الوحش فلف حبلا على عنقه وأتم قتله بالخنق .

وبعد هنيهة خرج بيير وجان إلى الرواق وأيقنا من موت اليهودي فاخذا حقيبته وعاونهما الخدم فنقلاه إلى الغرفة .

وبعد نصف ساعة كان احد رجال العصابة يسير به في طريق الهافر وقد وضعه في صندوق من صناديق السفر الكبيرة مع كل مجوهراته حيث كان ينتظره ذلك اليخت الخاص بالشركة الانكليزية وقد فرغت تلك العصابة الجهنمية من مهمتها الاولى ولم يبق غير مهمة الزواج

اما جان فانه بعد نقل بائع الجوهرات إلى الغرفة خرج منها وذهب إلى الردهة .

وحين وصل إلى بابها وقف مندهلا خائفاً إذ رأى خليلته امامه ولكنه أمن خوفه حين رأى احد الخدم يشير اليه من ورائها اشارة مفادها .

« لا تخف فانها لا تعلم شيئاً » غير انه كان مخطئاً فان جانيت لم تقف على تفاصيل الجناية ولكنها ايقنت من حدوث جناية في هذا القصر الفخم الذي دخلت اليه

وذلك انها قررت الليلة السابقة بعد أن قرأت ذلك الاعلان أن تأتي إلى عشيقها في الصباح فتستشيره بشأنه .

وقد ركبت في الصباح القطار البخاري وجاءت به إلى

محطة باريس وهناك ركبت مركبة وأمرت السائق أن يذهب بها إلى باسانو وعند وصولها إلى منزل عشيقها رأت رجلا يقرع بابه وعلمت انه يهودي من شكله .

فاوقفت مركبتها على قيد بضع خطوات من الباب وانتظرت فيها إلى أن يخرج لأنها كانت تود أن ترى عشيقها وحده .

غير انها سئمت الانتظار في المركبة لطول مدة اقامته فخرجت منها وقرعت باب المنزل .

وقد فتح لها خادم وسألها عما تريد .

فقالت له اريد المسيو رودريكوس .

وكان هذا الخادم من رجال العصابة فأدخلها إلى غرفة في جانب الردهة وقال لها : تفضلي بالانتظار يا سيدتي قليلا ثم خرج من الغرفة وأقفل بابها فانه كان يعرف انها خليلة جان وقد باغتته بالدخول حين فتح الباب فخاف أن يثير ظنونها إذا قال لها : انه غير موجود في المنزل اذ قد تكون متفقة واياه على هذه الزيارة أو تقول له اني اريد أن انتظره فلا يسعه مخالفتها

وكان الموقف حرجاً فانه قد سمع صوت جان يودع اليهودي فرأى أن خير ما يفعله أن يسجنها في هذه الغرفة بقية الانتظار دون أن تعلم انها سجينة وبعد هنيهة صاح اليهودي تلك الصيحة الهائلة حين فوجيء بالضربة فسمعت الفتاة تلك الصيحة ورجف قلبها من الرعب وايقنت من حدوث امر غريب في هذا المنزل لا سيما وأن الخادم حين استقبلها لم يخف عنها .

وعند ذلك تبادرت اليها كل الظنون السيئة فذكرت أن

(١٤)

عشيقها كان يدعى جان موريس في شربورغ فصار يدعى جان رودريكوس في باريس وانه كان فقيراً هناك فبات هنا غنياً من اصحاب القصور فكيف غير ذاك الاسم ومن اين جاء بهذه الثروة .

وقد اسرعت إلى الباب فوضعت اذنها عند قفله وجعلت تصغي فلم تسمع شيئاً ولكن صيحة ذلك المنكود كانت لا تزال تدوي في اذنها فاقامت مضطربة خائفة

وقد نسي الخادم امرها لانهاكه في معاونة رفاقه .

ثم سمعت وقع خطوات في الردهة ورأت من خلال ستائر النافذة انهم ينقلون صندوقاً كبيراً فلم يدم ذلك اكثر من عشر دقائق وبعد نقل الصندوق إلى المركبة التي ذهبت به إلى المحطة عاد الخادم ففتح الغرفة التي كانت فيه جانيت وقال لها :

— تفضلي بالمسير معي يا سيدتي فان المسيو رودريكوس ينتظرك واني اسألك المعذرة يا سيدتي لابطائي بالرجوع اليك فقد حدثت حادثة في المنزل هي أن احد اصحاب سيدي سقط على السلم اذ عثرت رجله ولكنها كانت سليمة بحمد الله فلم تعقه عن السفر إلى لندرا .

فأظهرت جانيت عدم الاكتراث اذ كانت قد وضعت خطة لنفسها وتجاهلت كل ما حدث اما جان فانه حين رآها صاح صيحة دهش قائلا : اهذا أنت ؟

وكانت علائم الاضطراب باديه عليه فقالت له : اظن أني ازعجتك بحضوري .

فابتسم وكان قد اطمأن لاشارة الخادم وقال لها : كيف يخطر لك أن حضورك يزعجني فادخلي . .

ودخل واياها إلى غرفته فجعلت تنظر إلى ما حواليها نظرة الباحث وهي معجبة اذ لم تجد اثراً للخصام فقال لها :

— ما بالك تنظرين هذه النظرات وعن أي شيء تبحثين

— اني لا ابحث عن شيء ولكني اعجب بهذه الرياش الفاخره فمن الذي كان عندك الآن ؟

— اصحاب لي من لندرا وهم الذين اخبرتك بهم ليلة امس

— نعم لقد ذكرت فهل انت عازم على الانصراف الآن ؟

— نعم فسأتغدى مع استاذي في النادي .

— ما كنت أود أن أزعجك .

— كيف تزعجيني ايتها الحبيبة فاخبريني ما الذي دعاك إلى زيارتي .

— ساخبرك بذلك فيما بعد أي بعد أن تعود .

— لماذا لا تخبريني الآن ؟

— لأن ما اخبرك به يحتاج إلى وقت طويل وما هو من الامور المستعجلة . — اذن ماذا تصنعين ؟

— اعود الى مربيتي

— ولكن هيأتك تدل على الحزن .

— هو ذاك فاني حزينة عليها فان المرض قد اشتد بها وأخاف أن افقدها قريباً .

— ولكنها تستريح من عذابها فهل تريدين أن ارسل اليها طبيباً .

— لقد عادها طبيب القرية واية فائدة من المعالجة فلقد

اصبت بما قلته فان الموت يريح المرضى بل يريح جميع الناس .

— ما هـذه اللهجة التي تتكلمين بها يا جانيت وما يدعوك اليها .

— لا شيء وانا ذاهبة فاني اعيقك عن الغداء كما ارى .

وقد همت بالانصراف ولكنه قبض على يدها وأرجعها ثم حدق بها وقال انك تكذبين وانك تكتمين عني امراً .

فارتعشت جانيت وقالت في نفسها : العله يريد قتلي ولكنها دفعت هذا الخاطر وقالت له :

— كلا اني لا اكتمك شيئاً .

— اتعديني بذلك ؟ — دون شك .

— وقد حاولت الانصراف ولكن بيير دخل عند ذلك وقال لتلميذه وقد رأى جانيت اسرع يا جان لقد حان الوقت وهم ينتظروننا ثم قال له بصوت منخفض دعني واياها فصافح جان يد جانيت وخرج من الغرفة .

فالتفت بيير إلى الفتاة وقال لها متكلفاً الطيبة والمسكنة : اسألك العفو عن ذنبي بسلبك اياه ولكنهم ينتظروننا وقد حان الموعد . وقد سأل نفسه ترى ما الذي جاء بها إلى هنا ثم قال لها : أن جان اخبرني بكل شيء وارجو أن تكوني سعيدة وهو انما اخبرني بامره لاني ربيته منذ طفولته فهو لا يكتمني شيئاً وعلمت منه انه يعبدك فكنت الومه حتى رأيتك فعذرته ورجائي أن تعذريني يا ابنتي فاني من رجال العلم ولا افهم بلغة القلوب ولكن من يراك يتعلم هذه اللغة بلحظة فهل لك حاجة

في باريس تريدين قضاءها ؟

وكانت جانيت تحدث نفسها وهو يحدثها فتقول :

— أن الجناية قد حدثت لا شك وقد قال لي جان انه كان عنده اصدقاء له من لندرا في حين أنه لم يكن عنده غير اليهودي وهذا اليهودي انه دخل ولم أره قد خرج واضطراب الخادم وجان كان ظاهراً حين رآياني فاذا كان هناك جناية وهو الارجح فلا بد أن يكون هذا الكهل شريكاً فيها إذا لم يكن هو الذي دبرها .

فلما سألها هذا السؤال اجابته قائلة :

— نعم كانت لي حاجة في باريس .. ولكني كنت استطيع الانتظار ..

— انك تقيمين في الخلاء على طريق شنساي ؟

— هو ذاك .

- أن جان يحبك حباً لا يوصف فهل زرته الآن لمهمة !

— كلا ولكني كنت اريد أن استشيره بامر .

— اتستشيرين جان يا ابنتي فانه منذ رآك اختبل لبه فلم يعد جديراً باسداء النصائح فهلا استشرت رجلا مجرباً مثلي ؟

وكان يكلمها بلهجة اب رؤوف وعيناه تدلان على السلامة والدعة بحيث كاد يزيل شكها به وبعد فاي خوف إذا اخبرته بالسبب الذي جاءت من اجله واستشارته بشأنه فقالت له :

— اني إذا اذنت لي استشرتك فلا ريب عندي بحسن رأيك

— نعم الأذن لك يا ابنتي فقولي وأوجزي .

فاخرجت الجريدة من جيبها ودلته على الاعلان فقرأه وقال بيرين .. بوديت .. ما هذا ؟

— انها امرأة بريتانية ربتني وهي مقيمة معي .

— انها مجنونة اليس كذلك ؟

— نعم .

— لقد ذكرت الآن فانك لا اهل لك مثل جان

— هو ذاك .

— اذن تحسبين هذا الاعلان خاص بك ؟

— هذا الذي اظنه .

— إذن أنت تظنين أن اهلك قد ندموا لتخليهم عنك فجعلوا ينشدونك بواسطة المسيو دافينو .

— هذا الذي خطر لي .

— والآن فانك تريدين نصيحتي ؟

— نعم يا سيدي

— نصيحتي اليك أن تعودي إلى منزلك وأنا سأرى المسيو دافينو وأكلمه بشأنك ثم اخبرك بما يكون .

— إني اشكرك يا سيدي .

— ولكنه قد يكون غائباً عن باريس فانه كثير الاسفار فاذا ابطأت عنك فلا تقلقي وإذا لقيته وعلمت منه نبأ ساراً اسرعت اليك لفوري . — لا اعلم كيف افيك هذا الجميل

— بكتمان هذا الامر عن جميع الناس حتى عن جان .

— سأفعل — وانا سأرى المسيو دافينو .

— إذن إلى اللقاء يا سيدي .

ثم ودعته وانصرفت فهز رأسه وقال في نفسه :

— ترى ما هذا السر وما دخل دافينو فيه .

وعند ذلك دخل جان فسأله قائلا : كيف وجدتها يا استاذي ارأيت ابدع من هذا الجمال .

— أن اشد الناس جمالا اشدهن خطراً ولكنها لا تعلم شيئاً لحسن الحظ .

— أأنت واثق ؟ — كل الثقة .

وكذلك كان الخادم وجان ولكن الثلاثة كانوا مخطئين .

الخطبة

في الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم نفسه كان جان واستاذه في القاعة التي اعدت فيها حفلة تدشين المعرض وقد غصت باصحاب المقامات العالية .

وكان لوجه محاذياً للوج ماري نورمان فكان لوجها شبه طاقة من الزهر اذ كانت فيه متيلد نورمان وابنتها ماري وصديقة لها حسناء تدعى برت وابوها موريس .

وقد رأت ماري جان في اللوج بجوارها فخفق قلبها سروراً ودلت صديقتها عليه ثم قالت لها : كيف ترينه ايتها العزيزة ؟

— انه الجمال ممثلا فاذا كان له من جمال النفس ما له من جمال الوجه كنت لا محالة من اسعد النساء .

وقد التقت النظرات فابتسمت له ماري الطف ابتسام فاشارت اليه اشارة خفية أن يحضر .

فاختلج فؤاده اذ ايقن أن هذه الدعوة لم تكن عبثاً وأخبر استاذه بما رأى فأمره أن يذهب في الحال اليها .

فامتثل وذهب إلى ذلك اللوج وهناك قالت ماري لصديقتها على مسمع من الحضور .

اعرفك ايتها العزيزة بالمسيو جان رودريكوس خطيبي .

فكان هذا القول بمثابة اعتراف بالخطبة وكاد جان يطير سروراً فالتفت إلى ابيها وقال له : اشكرك اجزل شكر يا سيدي .

امـا ماري فانها اسرعت قبل أن يتكلم ابوها فقالت لخطيبها سيكون عندنا حفلة رقص في هذه الليلة وانك ستحضر اليس كذلك .

فاجابها بالامتثال وسأله ابوها قائلا :

— من هذا الذي يصحبك اهو استاذك القديم ؟

— قال نعم وهو يرجو أن تعذروه لعدم تشرفه بتقديم احترامه لكم فانه شبه الأرانب البرية وهو لا يروق له غير مطالعة كتبه ولكنه من اطيب الناس فطرة .

وبعد هنيهة خرج جان من اللوج وعاد إلى استاذه فاسرع إلى سؤاله قائلا : — ماذا ؟

— لقد قضي الامر وفقاً لما تريد .

— اتمت الخطبة رسمياً ؟

— نعم وسأتعشى عندهم في هذا المساء .

— ومتى نقبض المهر ؟

— سأخبرك بذلك غداً .

فنظر بيير إلى موريس نورمان نظرة الباشق إلى فريسته وقال في نفسه : لم يبق لك مناص من يدي ايها المتعجرف وسأسقطك عن عرش كبريائك .

وفي تلك الليلة اجتمع كثير من المدعوين في منزل نورمان وأعلنت خطبة جان رودريكورس على ماري نورمان فتسابق اليها المهنئون ..

وكان بين الحاضرين فرنند نورمان ابن عم ماري وهو يحبها حباً عظيما تقدم لنا وصفة وكان يعتمد على امها بتسهيل عقد الزواج بينهما .

وقد عرف القراء أن امها كانت تميل اليه كل الميل وانها خابرت زوجها بذلك مراراً فأبى مصاهرة ابن عمه لفقره .

فلما علم فرنند بتلك الخطبة علم انه قضي القضاء المبرم على كل امانيه وكاد يجن من يأسه اذ لم يبق له شيء من الرجاء .

وبعد العشاء اقترحت مدام نورمان على المدعوين أن يتنزهوا برهة في الحديقة قبل الشروع في الرقص فاغتنم فرنند هذه الفرصة وذهب إلى ماري فقال لها بلهجة خطيرة :

— لي كلمة اقولها لك يا ماري اتريدين ؟

فعجبت للهجته الكئيبة وقالت : : كيف لا اريد يا فرنند فماذا تريد أن تقول فاني مصغية اليك .

– ارى أن هذا الزواج قد تقرر نهائياً .
– هو ما تراه يا فرنند فقد اعلن رسمياً .
– شهد الله اني لا اتمنى لك غير السعادة والهناء .
– ومن يشك في ذلك يا فرنند ؟
– على انى لو كنت واثقاً من نيل هذه السعادة لما فهت بكلمة ولكن ... – ماذا ؟
– اني من المحامين يا ماري وأنت تعلمين أن هـــذه المهنة تدعو اصحابها إلى الظنون لكثرة ما يرونه من اساليب الخداع والجرائم الخفية فهل تعرفين هذا الغريب حق العرفان ؟
– ارجو أن لا تكون ظنونك منحصرة به .
– كلا كلا ولكني اكون من القانطين إذا اصبت لا سمح الله باقل تنغيص فانك صديقتي منذ الحداثة وانا وحيد في هذا الوجود لم يكن لي بد من عطف أكيد على من احن اليه وأنت تعلمين عطفي عليك من عهد بعيد .
– هذا لا ريب فيه وهو متبادل بيننا ولكن لا تخش يا فرنند .
– أأنت واثقة به ؟
– كل الثقة – أتحبينه ؟
– نعم فلم يبق سبيل للاخفاء فلا تخشى يا فرنند فان ابي قد بحث عنه ادق بحث ولا شك انك ستكون من خير اصحابه متى عرفته وتعمقت في عشرته فيتم سعدي ويأتي دورك بعدي
– كيف ذلك ؟

– اني اجد لك زوجة جديرة بك .
– أني لن اتزوج وانما اردت مقابلتك الآن لأودعك .
– كيف تودعني ألعلك مسافر ؟
– نعم ولكن غيابي لا يطول .
– ما هذا السفر الفجائي .
– لقد اضطررت اليه لمهمة عرضت لي .
– ولكني ارجو أن تعود قبل عقد الزواج.
– متى يكون هذا العقد .
– بعد شهر .
– بعد شهر فقط !
– نعم فقد عين له اليوم الخامس من شهر يونيو .
– أن رجاءك بمثابة امر وسأحضر

رجاء وريب

لم تكن ماري مخطئة بما توهمته فان الاميرال لم يعد إلى باريس الا لخوفه وقد كان شجاع القلب كثير الصبر ولكن الرجل مهما بلغ من حسن صبره وكمال مروءته وطول اناته لا يستطيع أن يعيش مع امرأة في خصام دائم وحرب لا مهادنة فيها لا سيما بعد أن يكون قد اساء إلى هذه المرأة اساءة لا تغتفر واصابها باحزان لا تداويها الايام .
وفوق ذلك فان الاميرال كان من أهل الشرف والكبرياء فهو

لا يطيق أن يعيش مع امرأته عيش الأذلاء الصاغرين ويكره أن يعاملها بالعنف والشدة .

فما عساه يصنع في هذا الموقف الحرج إلا أن يترب ويجري على النهج الذي خطة لنفسه وينتظر .

وكان قد بات واثقاً من أن جانيت في باريس فخاف أن يبحث بنفسه وعهد إلى وكيله بهذا البحث وهو يعتقد أنه لا بد أن يجدها ولذلك كتب إلى وكيله دافينو كتاباً مسهباً وعهد اليه أن يبذل آخر درهم من ماله في سبيل ايجادها .

اما دافينو فقد كان من أهل العزم فكان أول ما فعله انه نشر ذلك الاعلان في جميع الجرائد وقد اطلعت عليه جانيت كما تقدم .

فلم يمض على نشره يومان حتى جاءته امرأة عجوز كانت بوابة في ذلك المنزل الذي تقيم فيه جانيت قبل أن تنتقل إلي المنزل الذي استأجره لها جان بما كانت تعلمه عن تلك المجنونة التي كانت تقيم مع بنتين احداهما صبية والاخرى في سن الحداثة فدقق في سؤالها وكان يكتب مذكرات بكل ما سمعه منها فايقن أن الفتاة هي نفسها واطمأن قلبه حين علم من تلك العجوز انها لم تكن سيئة السيرة ولكن وجهه تجهم حين علم انهن تركن ذلك المنزل وأن العجوز لا تعرف المكان الذي اقمن فيه غير انه كافأها مكافأة حسنة وسر من نتيجة هذه الاعلانات فواظب على نشرها وهو واثق من الفوز وكتب إلى الاميرال يخبره بما وقف عليه .

واما جانيت فانها خرجت من منزل عشيقها وهي منقبضة تقول في نفسها .

- رباه ما هذه الجناية التي حدثت في المنزل اذ لا شك عندي في حدوثها فان تلك الصيحة الأليمة لا تزال ترن في اذني .

ويا ويح نفسي مما جنيت عليها أأحتمل ما لم يحتمله بشر من الشقاء صيانة لعرضي ثم احب جانياً اثيما .

وفيما هي تسير الهوينا مرت بها مركبة كان فيها جان واستاذه وهما يبتسمان وعليها علائم السكينة والارتياح فجمدت في مكانها وحياها جان الطف تحية فقالت في نفسها :

- كيف يمكن أن يكون هذان الرجلان جانيين وهما باسمان ساكنان فاذا كان هناك جناية الا يضطربان لها على الاقل أن كل ظواهرهما تدل على البراءة ولكني سمعت الصيحة ولا يزال اثرها في ذهني .

وقد عادت إلى منزلها كئيبة حزينة واخذت تفكر في عشيقها فتقول :

انه كان فقيراً معدماً في شربورغ فكيف نال هذه الثروة العظيمة في مده لا تزيد على خمسة اعوام وأي كسب شريف يبلغ هذا الحد في هذه المدة الوجيزة ثم ما باله يكتم عني مصدر هذه الثروه وقد وعدني باخباري اكان يكتمه عني لو كانت ثروته هذه جاءته من مورد شريف :

وقد لبثت تتنازعها هذه الافكار المقلقة إلى أن انتصف

الليل وسمعت وقع خطوات جـــان ثم دخل اليهـــا وقبلها دون أن تقبله ولكنة لم ينتبه إلى ذلك لانشغال باله فقال لها :

– انك لم تكوني تتوقعين حضوري هذه الية ؟

– هو ذاك .

– اتحسبين اني استطيع أن اقيم ليلة دون أن اراك ؟

وأقام معها ساعتين يتحدثان بامور مختلفة ثم نهض وقال لها اني سأغيب يومين أو ثلاثة تمر بي مرور الأدهار .

– لماذا هذا الفراق الطويل !

– لأني أريد أن اهتم بهنائك فاني آخذ بمشروع سأخبرك عنه فيما بعد وهو يتعلق بنا فاني لا احب أن افارقك لحظة .

– اتقول الحق ؟

– بل اقسم لك على صدق ما اقول فماذا تصنعين في مدة غيابي وكانت عيناه تضيئان حباً فقالت له :

– ماذا عساي اصنع غير التفكير بك إلى أن تعود .

وبعد انصرافه وضعت رأسها بين يديها وقالت :

-- رباه الا يمكن أن اكون منخدعة .. ولكن ما كانت تلك الصيحة أني كنت اود أن اخسر عشرة أعوام من عمري ولا اكون قد سمعتها واكن قضي علي بالعذاب قدر الله لي العذاب فلو اسكنت جناته لكنت اعذب .

كان اعضاء تلك الشركة الانكليزية يشبهون تلك العقبان الكواسر التي لا تتغذى الا بلحوم الطير فانهم قتلوا ذلك اليهودي المنكود لسلبه ماله وحملوه فى صندوق سفر إلى اليخت الذي كان ينتظرهم في ميناء الهافر فاقلع بهم وبالجثة والمجوهرات حتى إذا بلغ بهم عرض البحر اخرجوا الجثة من الصندوق فدفنوها بين الأمواج وعادوا بالجواهر إلى مدير الشركة فنزع الحجارة الكريمة من الحلى كي لا تعرف وبعد أن ثمنها وزع بنفسه الحصص على الشركاء فاصاب بيير وتلميذه نصف مليون فرنك اي اربعين بالمائة حسب الاتفاق.

وقد كان بائع المجوهرات يقيم في منزل بسيط في باريس ولم يكن عنده احد من الخدم لشدة بخله وحرصه على ثروته وخوفه من السرقة فكان بواب المنزل يصعد اليه كل يوم وهو فيه فينظفه حتى إذا اتم ترتيبه ذهب في شأنه واقفل اليهودي الباب وانصرف وكان من عادته أن يعود إلى منزله كل يوم عند الظهر وفي المساء فمضى اليوم الأول والثاني دون أن يعود فاضطرب البواب وذهب إلى قومسير البوليس في الشارع الذي كان فيه واخبره باختفاء اليهودي فسأله القومسير قائلا :

ماذا كان يشتغل هذا الرجل .

– انه تاجر مجوهرات .

– الم يعلم المستخدمون عنده اين ذهب .

يخرج ولذلك فقد كانت تلك الصيحة المؤلمة صيحته وكان ذلك المنزل مغارة لصوص وكانت هي عشيقة لص سفاك وهذا المنزل الذي تقيم فيه والرياش الفاخر الذي تمتع به والاموال التي تنفقها انما هي من لص وانها تأكل من فضل الجنايۃ والدم المسفوك .

وعند ذلك رعبت رعباً عظيماً وحسبت نفسها حالمة أو انها اصيبت بالجنون كمربيتها ولكن الجرائد التي كانت بين يديها كانت تثبت لها تلك الحقيقة الهائلة فتعود إلى قراءتها وهي ترجو أن ترى سبيلا إلى الشك .

غير أن الحقيقة كانت ظاهرة اتم الظهور بحيث لم يبق عليها الا أن تفتكر بما يجب أن تصنعه اذ بات يستحيل عليها أن تقيم يوماً واحداً في هذا البيت أو تنفق درهماً من المال الذي اخذته من ذلك الأثيم فكان أول ما خطر لها ذلك الاعلان الذي قرأته منذ ايام فقالت في نفسها :

– لماذا لا اذهب تواً إلى المسيو دافينو فقد يكون الخلاص بهذه المقابلة .

وكانت الساعة قد بلغت العاشرة من الصباح فلبست ثيابها مسرعة وبعد ساعة كانت في باريس تقرع باب دافينو وكيل الاميرال دي فيتراي .

لقاء غير منتظر

عندما كانت جانيت في منزلها تقرأ تلك الجريدة التي كشفت النقاب عن ذنوب عشيقها كان دافينو وكيل اشغال الكونت دي فيتراي جالساً في مكتبة وقد دخل اليه رجل يدعى باروا ;هو المندوب السري الذي انتدبه للبحث عن عن ارملة بوديت فلما خلا به سأله قائلا : ما وراءك من الاخبار

– لم اوفق بعد إلى امر جديد سوى أني لقيت امرأة بوابة بجوار البيت الذي كانت تقيم فيه المجنونة مع البنتين فأخبرتني بامرها وأنها لقيتها ايضاً .

– تباً لها من منافقة فانها لم تذكر لي شيئاً من ذلك كي تنال الجائزتين على اني لم اعلم منها إلى اين ذهبن بعد مبارحتهن المنزل ولم اتوفق إلى لقاء السائق الذي ذهب بهن لكن لا بد لي من بلوغ الرهن وكل ما علمته أن جميع الذين عرفوا الفتاة متفقون على امتداح جمالها وادبها .

– ماذا عزمت أن تصنع ؟

– عزمت على مواصلة البحث ولا بد لي من ايجادها .

– ابحث يا بني ولا تقصر ابحاثك على باريس فقد تكون في الضواحي وبعد فماذا حدث في امر بائع الالماس ؟

– انه رجل ابله كان يجمع ثروته كلها في حقيبته فلم تغفل عنه عين اللصوص .

– اتحسب انه قتل ؟

– ذلك لا ريب فيه عندي ولاشك أن قاتليه من حذاق اللصوص . – ألك ما تقوله لي غير هذا ؟

– كلا سوى انه يجب أن لا تقتصد في سبيل البحث عن الفتاة .

– ومتى رأيتني مقتصداً ؟ فهل فرغ منك المال ؟

– نعم .

– خذ هذه الورقة بألف فرنك ولكني لا امهلك اكثر من اسبوع .

– سوف ترى يا سيدي ورجائي أن اوفق إلى لقائها قبل هذا الزمن .

ثم تركه وانصرف وبعد انصرافه بلحظة دخل اليه رجل آخر وهو صاحبنا بيير لاروش فقال له :

– هل أنت هو يا سيدي المسيو دافينو ؟

– قال نعم – اني اتيتك بأنباء تهمك .

– في أي شأن ؟ .

– في شأن اعلان قرأته في الجرائد اتفاقاً .

– تفضل يا سيدي بالجلوس وقل لي ما تعلمه .

فجلس بيير وبدأ حديثه فقال :

– اني استاذ فتى من كبار الاغنياء اقيم في قصر في شارع باسان ولكن ليس هذا الذي اتيت من اجله فانك تبحث يا سيدي عن ارملة بوديت .

– هو ذاك .

– لقد عرفت هذه المرأة منذ بضعة أعوام حين كنا نقيم في جرساى فقد كان زوج هذه المرأة لا يزال حياً في ذلك العهد وكان يبيعنا السمك ونركب قاربه حين نريد التنزه .

وقد مات هذا الرجل قبل أوانه لفرط ادمانه على الخمر وغادرت امرأته جرساي فعادت إلى فرنسا تصحبها بنتان رأيتها مراراً كثيرة وقد عهد إلى الارملة بتربية كبرى هاتين البنتين واخبرتني بشيء من امرها فتأثرت لحكايتها وبالاختصار فانها حين برحت جرساي ذهبت تواً إلى شربورغ

– هذا اكيد .

– اذن لم اخبرك بنبأ جديد .

– كلا فاني اعرف هذه التفاصيل .

– سأخبرك بغيرها فقد قلت لك اني رأيت هذه الفتاة مراراً كثيرة وكانت بارعة الجمال وافرة الذكاء بحيث طبع رسمها في ذهني ثم توالت الايام والسنون دون أن أراها إلى أن قرأت ذلك الاعلان فذكرتها وأسفت لحالها واتفق لي بعد ذلك بهنيهة اني كنت ماراً بمركبتي في ضواحي شاتليت فرأيت فتاة ايقنت اني اعرفها واني رأيتها مراراً من قبل بل ايقنت انها هي بعينها بعد أن اجهدت ذاكرتي وبعدت عنها نحو مائة متر فحاولت ان اعود فأدركها ولكن اتفق لسوء الحظ اصطدام مركبتين سد الطريق بضع دقائق ففات الاوان ولم استطع ادراكها .

وانما كذب عليه هذه الكذبة لأن اجتماع جانيت بأهلها

يحبط مشروعه فاراد أن يحول انظار الباحثين عن المكان التي كانت فيه .

اما دافنيو فقد قال له : هل أنت واثق ايها الاستاذ انها كانت بعينها ؟

ـ كل الثقة ـ متى كان ذلك ؟

ـ منذ يومين ولا بد أن تكون مقيمة في ضواحي شاتلبت واسمها جانيت فلو كنت اعلم ان البحث عنها لخيرها لضمنت لا اجدها في مدة اسبوع .

ـ اننا نبحث عنها لخيرها ولخير امها .

ـ الا تزال امها في قيد الحياة ؟

ـ نعم وهي لم تتجاوز الاربعين ولها جمال نادر .

ـ لماذا لم تبحث عنها من قبل ؟

ـ لاسباب خطيرة منعتها عن البحث بالرغم عنها .

ـ لا شك انها غنية ما زالت قد عهدت إلى مثلك بمهات

ـ ربما كانت غنية ولكن سرها لها .

ـ لقد فهمت فان في حياتها سراً لا يجب افشاؤه ولا احاول الاطلاع على هذا السر فان كل ما ابغيه خدمة هذه ال

وقد حاول بيير أن يقف على شيء من سر مولدها باساليب دقيقة ولكن دافينو كان ادق منه .

غير انه علم أن أمها غنية وانها لا تزال في قيد الحياة ولم عليه الا أن يعرف أسم امها فخدمته الصدفة كما ترى و انه دخل خادم إلى دافينو وقال له بصوت منخفض .

لقد اتت الكونتس دي فيتراي تصحبها المركيزة سانت بيران فسمع بيير اسم دي فيتراي فنهض مستأذناً بالانصراف وهو يقول :

ـ هذا هو عنواني يا سيدي فاذا احتجت الي في امر فانى رهين اشارتك فشكره رافينو وشيعه إلى الباب وهناك لقي امرأتين احداهما عجوز والاخري صبية وقد دخلتا بعد انصرافه إلى غرفة دافينو فلما رأى جمال الصبية قال في نفسه : لا شك انها أم جانيت فهي جميلة كما وصفها وملابسها تدل على الثروة .

وكان في الردهة التي مرتا بها كاتب يكتب على منضدة فدنا منه وسأله بلطف قائلا :

ـ يخال لي ايها الصديق اني عرفت هذه السيدة الحسناء اما هي الكونتس دي فيتراي ؟

ـ نعم ـ امرأة الاميرال ؟

ـ هي بعينها وهذه العجوز التي تصحبها المركـــيزة جانيت ابان .

فشكره وانصرف ولو بقي دقيقتين ايضاً لرأى زائرة ثالثة قد دخلت إلى غرفة دافينو فان جانيت كانت تسير في عطفة الشارع حين كان بيير يسير في الشارع الذي يقابله فلما قرعت الباب وسألت البواب عن المسيو دافينو قال لها انه مشغول الآن فتفضلي يا سيدتي بالانتظار .

الأم وابنتها

كانت مدام دي فيتراي لابسة ملابس السواد وقد أصفر وجهها وتبين التعب في عينيها خلافاً للمركيزة فقد كانت تنظر إلى الامور نظرة الشيوخ المجربين الذين يهذون بالمصائب الانسانية لكثرة ما رأوه منها .

ولكنها مع ذلك كانت تهتم لأمر الكونتس اهتماماً شديداً حتى انها كانت تزور دافينو في اكثر الأحيان للوقوف على ما اتصل به من الابحاث .

وكان رافينو يجلها اجلالاعظيما ويحب الكونتس حب المشفق عليها لنكبتها فلما دخلتا اليه قالت له المركيزة .

– لقد جئتك بالكونتس على رجاء أن تطمئنها فان يأسها قد بلغ اقصى مداه وقد اتينا نسألك عما فعلت فانك لم تخبرنا بشيء منذ ايام .

– ذلك يا سيدتي لأني لم اقف على امر جديد فأخبركم عنه .

– رباه ما اشد الانتظار ؟

– ولكن لا بد لك من الصبر يا سيدتي .

– أن هذه الكلمة يسهل قولها عليكم انتم الرجال فانكم تشغلون عن احزانكم باعمالكم ومطامعكم اما نحن النساء فلا شاغل لنا غير هذه الافكار التي تزيد في عذابنا فيجب الاسراع ولا ارى الامر صعباً إلى هذا الحد فان المراد ايجاد فتاة موجودة في باريس .

اما هي فيها ؟

– ذلك لا شك فيه .

– وإذا كان فان باريس ليست متسعة إلى هذا الحد .

– ولكنها ليست صغيرة ايضاً يا سيدتي .

– إلى اين وصلتم في البحث ؟

– لقد قربنا واهتدينا إلى اثر .

فقالت له الكونتس : اتعتقد انك تجدها ؟

– دون شك !

– اذن لقد عرفت شيئاً عنها فماذا تصنع اهي فقيرة ؟

– نعم يا سيدتي .

– أتعيش وحدها ؟

– كلا بل هي مع امها .

اريد بذلك يا سيدتي انها مقيمة مع امرأة كان لها بمثابة ام ومع فتاة تعتبرها كاختها .

– من اين عرفت هذه الأخبار ؟

– من مصادر مختلفة .

– كم كنت اود أن اسمع أنا هذه الأقوال عنها .

– صبراً يا سيدتي فاني أرجو أن لا تمضي بضعة ايام حتى تعلمي الخبر اليقين وعند ذلك دخل الخادم وهمس في اذن دافينو بضع كلمات فقالت له المركيزة ، ألعلها زيارة لم تكن تتوقعها ؟

فاشار دافينو برأسه اشارة ايجاب ثم قال للخادم قل لها أن تدخل وأن من طبع النساء حب الوقوف على الحوادث فقالت

المركيزة له: اننا سننتظر في هذه الغرفة بجوارك إلى أن تفرغ من شانك مع هذه الفتاة إذ لي ما اقوله لك ايضاً .

فابتسم دافينو ولم تكد المرأتان تحتجبان حتى دخلت الفتاة فدهش دافينو لما رآه من جمالها فقد زادها جمالا ذلك الثوب الاسود التي كانت تلبسه كأنها تريد الاقتداء بامها

وبعد أن قدم لها كرسياً وتمن هنيهة بوجهها الصبوح قال لها : ماذا تريدين يا ابنتي أن تقولي لي ؟

– اني اتيت بشأن ارملة بوديت .

– العلك تعرفينها ؟

– رباه .. نعم .. حق العرفان .

– ربما كنت مقيمة معها .

– كلا .. ليس الآن ... فقد كنت مقيمة بقربها مدة .. في منزل واحد .

– اكان ذلك من عهد بعيد ؟

– منذ بضعة أشهر .

– والآن ... – انها غيرت محل اقامتها ؟

– الا تزالين ترينها . – ولكن ...

– اتعرفين عنوانها ؟

– كلا ... ولكني استطيع أن أعرفه . إذا كان ذلك واجباً فقد كانت تقيم في فندق منذ بضعة اسابيع بعد أن أقامت في اقبح شوارع مونمارتر .

– كيف عرفت ذلك ؟

– لا بد لي من الايضاح كما ارى فاني متصلة بفتاة ... بابنتها التي ربتها .

– ماذا تدعى هذه الفتاة ؟

– جانيت .

وكانت المنكودة تجيب بلهجة المضطرب لأنها كانت تكره الكذب ولم تتعوده ولكنها كانت مضطرة كما يظهر إلى أن لا تقول كل الحقيقة وكان رافينو ينظر اليها نظرة الفاحص وقد رابه تلجلج لسانها وقد فتحت المركيزة باب الغرفة التي كانت فيها مع الكونتس دون أن يسمع لفتحه صوت فان اسم جانيت قد رن في اذنها وإذن تلك الأم فقطعت انفاسها كي تسمع كل ما يقال عن ابنتها !

اما دافينو فانه سأل الفتاة قائلا : ماذا تعرفين عنها ؟

– إذا كنتم تريدون لها الخير في هذه الابحاث فاني اجتهد أن اراها واخبرها .

– إذن لماذا نبحث عنها يا ابنتي فهل تعلمين اين تقيم ؟

– لقد قلت لك اني استطيع أن اعلم .

– كيف حالها وحال من يقيم معها ؟

– لقد لقيت من الشقاء ما لم يلقه بشر فان جانيت كان عليها وحدها أن تعول أرملة بوديت التي ربتها مع ابنتها فاقامت في باريس ثمانية عشر شهراً لم تستطيع في خلالها أن تكسب لأنها لم تستطيع الاستخدام في المنازل لاضطرارها إلى الاعتناء بالعجوز وابنتها الصغيرة .

— ولكن هذه العجوز ليست امها والفتاة ليست اختها .

— أن ام الولد الحقيقية يا سيدي هي التي تربيه فان بيرين بوديت هي التي ربت صديقتي جانيت فكانت لها خيراً من ام وكانت جانيت من ابر الناس بها فاذا اصابت رغيفاً اقتسمته مع العجوز وابنتها وذلك انها لم تعرف عائلة غير هذه العائلة .

اما عائلتها الحقيقية فانها لا تعرفها وهي قد تصفح عنها لتخليها عنها ولكنها لا تحبها .

— اذن أن صديقتك تكره امها الحقيقية .

— لقد لقيت جانيت شقاء كثيراً كما قلت لك وهي تتعذب الآن عذاباً شديداً أتعجب معه كيف انها لا تزال على صوابها فهي حين كانت تفكر بأمها كانت تحكم عليها حكماً صارماً وتعدها من غير قلب فاذا كانت امها موجودة فخير لكم أن لا تكلموها عنها .

وكانت تتكلم بلهجة تدل على تأثير شديد بحيث خامر دافينو الشك بل بات واثقاً أن هذه الفتاة هي نفس التي يبحث عنها لا سيا وقد رآها تشبه الكونتس دي فيلاري ببعض الشبه بالعينين ولون البشرة والقامة والشعر فقال لها :

— اصغي الي يا ابنتي فانك هنا مع رجل صديق لامك .

وقد علمت أن أم هذه الفتاة التي تبحث عنها كانت معذورة وهذه هي حكايتها ببضع كلمات فانها زوجة رجل شهير شديد الحرص على شرائع الشرف .

— اني لست تلك الفتاة بل اني صديقتها .

— ليكن ما تريدين فان هذه الفتاة ولدت بهفوة من امها فهاج غضب الزوج حين عرف بهذه المذلة ولكنه علم بعد ذلك أن امك ...

— ليست هي امي يا سيدي .

— ليكن فان هذه الام الكونتس لم تسقط تلك السقطة الا بعد حوادث شديدة قضت عليها بتلك الهفوة فعرف الكونت عذرها ومرت به السنون فلطفت حدته ثم ندم على اخفاء البنت عن امها وعد نفسه ظالما فاراد اصلاح خطائه ولذلك فانهم سيستقبلونك بملء الترحاب .. اريد انهم سيستقبلون صديقتك فلتحضر ولتظهر نفسها وانا اضمن لها المستقبل الزاهر فان اهلها من كبار الاغنياء وزوج امها من أشهر الرجال .

— ولكنك قلت يا سيدي انه شديد التمسك بشرائع الشرف .

— هو ذاك غير أن سر هذه الولادة بقي مكتوماً عن جميع الناس فلم يعلم به غير الزوجين وبعض الاوفياء المخلصين بحيث بات اسم الكونت وزوجته سالماً من كل وصمة !

فكانت المنكوده تصغي اليه ويقع كلامه على قلبها وقوع الرصاص الذائب فقد هالها شرف هذا الكونت الخطير فقالت له بصوت يرتجف : وإذا كانت هذه الفتاة لم تعد جديرة بأهلها

— لماذا ؟

— لانها قد يكون دفعها الشقاء كما يدفع سواها من البائسات إلى تلك الهوة الشائنة فكيف يكون مقامها بين قوم

يحرصون على شرف العائلات ثم عقبت على كلامها بلهجة المتهكم فقالت :

– وإذا كانت وجدت نفسها لقيطة شريدة لا نصير لها بل ليس لها ما تأكل فاتخذت لها عشيقاً وباعت نفسها بيع السلع

– أن تسامح الأمهات وحنوهن لا حد له .

– اصغ الي جيداً يا سيدي فان هذا العشيق قد يكون ايضاً بلغ اسفل درجات المجتمع الانساني وكان من كبار المجرمين

– لنفرض امكان حدوثه فاذا كان فكيف يرضى هذا الكونت الشريف أن تقيم هذه الفتاة الموصومة بمثل هذا العار في منزله أيجسر أن يمد لها يده بصدقة يتصدق بها عليها ومهما بلغ من شرفه وجاهه أيستطيع انقاذ تلك الفتاة من تلك الهوة التي القاها فيها بانتقامه ؟

فاضطرب دافينو لما رآه من تأثير الفتاة وقال ، أبلغ بها الشقاء إلى هذا الحد ؟

– ربما ؟ – ومع ذلك لا يجب القنوط .

– فنهضت جانيت وقالت :

– اذن سأخبر صديقتي بما سمعته منك .

– اتعدينني بذلك ؟

– نعم وهي ستتخذ بعد أن تتمعن ما يجب أن تتخذه من الوسائل فقد صبروا طويلا على رحمتها بعد ذلك الظلم وإذا كانوا يتعذبون لفراقها فما هذا العذاب غير عقاب لهم من الله . والآن استودعك الله يا سيدي لما سمعته من اقوالك ولو سمعت هذا

القول منذ بضعة أيام لكنت سعيدة بسماعه اما اليوم فهو يقتلني

وقد اختنق صوتها ولم تعد تستطيع الكلام فانصرفت حتى إذا وصلت إلى الباب خرجت امها من الغرفة التي كانت فيها وهي شبه والهة ففتحت ذراعيها ونادتها قائلة .

– جانيت ؟

فالتفتت جانيت وقد اضطربت اضطراباً شديداً حين رأت هذه المرأة تدعوها اليها بملء جوارحها فترددت هنيهة ثم عادت اليها عزيمتها فقالت :

– من أنت يا سيدتي فاني لا أعرفك ؟

– أنا الكونتس بلانش دي فيتراي .

– لم اسمع هذا الاسم قبل الآن .

وقد كانت كاذبة فان المجنونة طالما رددت امامها اسم فيتراي .

اما الكونتس فانها قالت لها بصوت يتهدج .

– اني امك يا جانيت .

– ولكنك مخطئة يا سيدتي فما أنا الا الصديقة التي تذكرينها ورفيقتها في ايام شقائها واختها في مصائبها وخجلها وسأخبرها بكل ما سمعته ورأيته وانا لا اعلم إذا كنت ترينها في مستقبل الايام بل يقيني انك لن ترينها فانها تعتبر نفسها غير خليقة بأم مثلك .

ثم تركتها وانصرفت مسرعة دون أن تلتفت اليها فصاحت الام ... جانيت وسقطت على الأرض مغمياً عليها .

فلما استفاقت من اغمائها بحثوا عن جانيت فلم يجدوها فانها اسرعت بالخروج فركبت أول مركبة لقيتها وذهبت إلى المحطة واليأس ملء قلبها لقد عرفت الآن أن امها الكونتس دي فيتراي زوجة الاميرال دي فيتراي اشهر رجال فرنسا في ذلك العهد :

في حين انها هي لم تكن الا تلك الشقية المنكودة عشيقة ذلك اللص الاثيم فماذا تصنع ؟ الا أنها لم تفتكر بشيء بل قالت انه سيزورني هذه الليلة فاقرر امري .

الاعتراف

وذهبت المنكودة إلى المنزل وهي تكاد تجن من يأسها وتقول باكية بحرقة القانطين: ماذا لو عرفتني امي قبل سقوطي . وكم كان مقدار سروري لو عرفتها من قبل اما الآن فقد يأست منها ..

ويا ويح نفسي من هذا البخت العاثر فان هذه الام لم تبحث عني الا بعد أن سقطت في مهاوي الذل .

اني دافعت عن نفسي اعواماً وتجرعت كؤوس الشقاء مراراً واحتملت ما لا يحتمله انسان إلى أن اصابني القدر بهذا الضعف وقضي الامر .

نعم أن هذه الذلة ستكون امنع حاجز بيني وبين هذا الكونت الشريف وأنا الآن انتظر هذا الرجل الأثيم الذي

القاني الشقاء ونكد الحظ بين يديه .

ولم تكن قد رأت جان منذ ثلاثة ايام فلما بلغت الساعة الحادية عشرة وهي جالسة في غرفتها تبكي بكاء الاطفال سمعت صوت مركبة عشيقها فاصفر وجهها حتى بات كالاموات ثم دخل إلى الردهة .

فقامت اليه فأخذت بيده ودخلت به إلى غرفتها فاقفلت الباب وقالت له :

تعالى فاني اريد أن اكلمك فاجلس بجانبي ولنتحدث .

وكانت علائم الاضطراب الشديد بادية عليها فهاله امرها وقال ماذا حدث ؟

— تسألني عما حدث وانت تعلم .

— من اين لي أن أعلم .

— اذن سأعلمك فهل أنت قادم من قصرك في شنساي ؟

— هو ذاك ؟ — أكان عندك حفلة ؟

— كلا بل كان عندي بعض اصدقاء دعوتهم إلى العشاء

— أنه قصر جميل دون شك يشبه قصرك في باريس .

— ماذا تعنين بذلك ؟

— لا اعني به شيئاً سوى انه يثبت انك من الاغنياء فان لك قصراً في باريس وقصراً في الخلاء وخليلة تنفق عليها .

فابتسم جان وقال ، إلى اين تريدين أن تصلي ؟

— إلى هذا الحد وهو أنك غني .

— نعم أني من الاغنياء .

– ولكنك لم تخبرني بعد من أين اتيت بهذه الثروة .
إذا كنت تريدين أن تقفي في مواقف القضاة فسلي لاجيبك
ولكن هذا التحقيق يطول .
– ارجوك أن لا تمزح . – لماذا ؟
– لأن قلبي لا يتسع المزاح.
– اذن مري بما تشائين فماذا تريدين ؟
– اتذكر بعد التقائنا يوم دفعني الشقاء إلى زيارتك في
قصرك في باريس . – لماذا تذكرين الشقاء ؟
– صبراً .. فانك قلت لي يومئذ أن حياتك يكتنفها
سر من الاسرار . – ذلك ممكن
– وقد وعدتني انك تبوح لي بهذا السر .
– هو ذاك .
– اذن فاعلم أن وقت الاعتراف قد حان وانا اريد أن
أعرف سرك .
فقطب حاجبيه وقال : تريدين ؟
– نعم اريد الا يحق لي على الاقل أن اعرف اسم الذي
وهبته نفسي ومن ابن تأتيني هذه النقود التي انفقها الم تقل لي
مراراً أن الاقدار قد وصلت بين حظينا .
فابتسم ابتسام المشكك وقال لها :
– هو ذاك فاننا لا نفترق ولا تكونين لسواي وانـا في
قيد الحياة .
– انها كلمات معقولة باتت مبتذلة فدعها الآن وقل لي

كيف دعيت جان رودريكوس ؟
– اتصرين على معرفة ذلك ؟
– كل الاسرار . – لماذا ؟
– لا سكن اضطرابي وآمن من مخاوفي فاني منذ ايام لا انام
– ما هذا الشأن الخطير ؟
– انه اشد خطورة مما تظن .
– وإذا ابيت أن اجيبك ؟
فغيرت لهجتها واجابته بعنف قائلة :
– اذن اخبرك أنا بما اعلم ومتى عرفت ذلك باتت مخاوفك
اشد من مخاوفي .
فحدق بها تحديقا طويلا كأنه يريد النظر إلى اعماق قلبها
وقال لها : قولي ما تعلمين ثم ارى إذا كان يجب أن اجيبك .
فحدثت به هي ايضاً وقالت له :
– انك لست جان رودريكوس فقد سرقت هذا الاسم
ولم تأتك هذه الثروة من احد المحسنين بل انك تدعى جان
موريس كما كنت تدعى من قبل في شربورغ .
– اخفضي صوتك .
– والذي اعلمه ايضاً أن رجلا دخل إلى منزلك في باريس
ولم يخرج منه حياً . – اسكتي .
– وأنك قتلت هذا الرجل بمعاونة شركاء .
فاصفر وجهه وقال لها بلهجة المتوعد : احذري .
– ومما عساي اخاف العلك تقتلني كما قتلته فانك تخدمني

بذلك اجل خدمة وقد اشتد بي الشقاء حتى بات الموت في جانبه رحمة اتمناها .

نعم اني كنت اتقي الموت من قبل أما الآن فقد بات رحمة بعد أن اصبحت خليلة لص سفاك اثيم .

فوقف جان جامداً مبهوتاً لا يجيب فنظرت اليه نظرة كئيبة وقالت :

— رباه انه لا يدافع عن نفسه بكلمة ولا يعارضني بحرف اذن انا غير مخطئة وهو قد أحسن اذ ايه فائدة من الكذب .

ثم سقطت على كرسي خائرة القوى وقالت :

— نعم اني سقطت إلى اسفل الحضيض ولم ابلغ في يوم في ايام شقائي ما بلغته الآن من اليأس ... رباه اي ذنب جنيته .. رباه اني بشر وهذا فوق احتمال البشر .

فدنا منها جان وقال لها برفق ..

— جانيت .

فاجابته بعنف قائلة : — ماذا تريد ؟

— انك سألتني أن اقول الحقيقة وسأقولها لك .

بجملتها ؟

— نعم بجملتها فإني قد أكون من أشد الاشقياء ولكني لا احتمل أن أكون حقيراً في عينيك ، نعم اني ادعى جان موريس وانا شبه لقيط فان ابي انكرني وانا لا أعلم شيئاً عنه فقد يكون غنياً وقد يكون من الفقراء وهو الذي اغوى امي وكانت معلمة في احد المنازل فلما تمكن من اغوائها وعلم أنها

حملت بي طردها فولدتني وانتحرت ليأسها وليس لي من العمر غير ستة أشهر .

وقد كفلني رجل من اهل الحقد كان فقيراً معدماً يكره الوجود واهله فدربني على كره الاغنياء وعلى الحسد وعودني على الاسراف وعلمني أن المال هو كل شيء وغاية كل حي .

ولكنه علمني العلوم واللغات فكنت في بدء عهدي صالح السيرة حسن الفطرة وكنت اشتغل في شربورغ براتب قدره مائة فرنك كل شهر .

وهو راتب يسير بالقياس إلى علومي فان الكناس يكسب فوق هذا المقدار .

وفي ذلك الحين رأيتك واقسم بالله اني كنت اريد أن اعيش عيشا شريفاً مما تكسبه يداي وأن اعيش واياك ما حيينا فأكون لك خير قرين .

وهنا بدأ دور أستاذي وقد كان في ذلك العهد في لندرا فأكرهني على الذهاب اليه وكان قد اتصل بجماعة من اصحاب الملايين لم يكسبوا ملايينهم الا بطرق الخداع والضلال وكانوا كأنهم فوق الشرع لشدة خداعهم وعلو مقامهم إذ كانوا يديرون الاعمال بشكل خفي دون أن ينغمسوا فيها فلم تصل يد القضاء اليهم بالرغم عن جرائمهم .

فأدخلني أستاذي في سلك هذه العصابة وارسلوني إلى البلاد الاميركية في مهمة خاصة يصحبني ذلك الاستاذ الذي كان يعبث بضميري لاتمـــام اغراضه . فلما قضينا المهمة ذهبنا إلى

درليان الجديدة يصحبنا فتى من الاغنياء كان معه مائة الف دولار .

حتى إذا بلغنا إلى مكان معتزل خاصمني لخلاف حدث بيننا فتبارزنا وتركته هناك قتيلا .

– أقتلته بمبارزة قانونية !

فأطرق برأسه وقال : كلا فقد وعدتك أن اقول الحقيقة .

– ايها الشقي ماذا فعلت ؟

– اننا كنا نطلب الثروة وقد عرضت لنا وكان هذا الفتى يدعى جان رودريكوس فقتلته ودفنته في تلك الارض المقفرة وكان لون شعره يشبه لون شعري وله من العمر مالي وجميع اوراقه وماله في جيوبه لانه كان عازما على الهجرة إلى فرنسا ولم يكن له اهل فاكرهني استاذي على أن اتسمى باسمه فاخذنا المال والاوراق وعدنا إلى لندرا وانا ادعى جان رودريكوس .

وهنا قامرت بحصتي على رجاء المزيد من الكسب بغية الخلاص من قيود هذه العصابة ولكني خسرت كل ما كان معي وعدت إلى الاذعان لامر العصابة .

وما نحن الآن في باريس غير آلة لتنفيذ اغراضها فهي تأمر ونحن نمتثل ولا خوف علينا فانهم يحموننا .

– اذن هم الذين قضوا على ذلك الرجل ؟

– اي رجل !

– صموئيل روزن .

– اتعرفين اسمه وكيف عرفته ؟

– قرأته في احدى الجرائد .

– نعم أن العصابة قضت عليه .

– ماذا جرى له ؟

– ماذا يهمك ؟

– اريد أن اعلم .

– انه مات .

– أقتلته أيضاً !

– كلا ، اذ يكفيني قتل رجل برىء .

– من الذي قتله ؟

– أحد رجال العصابة .

– اذن قتلتموه بغية سلبه .

– هو ذاك .

وستقبض حصتك من السلب ؟

– ربما .

فاطرقت جانيت مفكرة وقال لها : اهذا كل ما تريدين أن تسأليني عنه ؟

– نعم .

– اذن لقد جاءدوري فلا بد لي بعد أن اظهرت ذنوبي أن اظهر عذري فاعلمي اني قتلت هذا الفتى الأميركي ولكنه اهانني فوجب قتله لأن اخلاق القوم هناك غير هنا وقد اخذت ماله ولكني لو تركته في جيبه وهو ميت لأخذه سواي وتسميت باسمه لاني مضطر اليه .

– لماذا !

– لانه اسم عائلي وهو خير من اسمي الدال على اني من اللقطاء .

— ولكن بماذا تعتذر عن قتل روزن وسرقته ؟

— لست انا الذي امرت به وإذا كنت تركتهم يقتلونه فربما كان ذلك من اجلك .

— من اجلي انا ؟

— نعم فاني لم يكن باقيا لدي شيء من المال حين لقيتك بتلك الحالة فكان كل همي أن يكون لي مال لاجعلك به سعيدة فاني احببتك في شربورغ وهو الحب الأول الذي يرسخ في القلوب مدى الحياة فكان خيالك لا يبرح ناظري اين كنت ولم اكن احلم الا بالثروة وبعد أن لقيتك كي اخلص من قيود العصابة واعيش واياك سعيدين .

وقد ارسلت الينا الاقدار ملايين هذا اليهودي فغنمناها وسأتخلص بها من اسري ولا خوف علي من الافتضاح فليس بيننا من يشي برفيقه وهو شريكه في الجريمة وبعد فان الحياة جهاد لا يفوز بها غير القوي وهذه الطبيعة فانها تسيء إلى بنيها اكثر مما يسيء المرء إلى اخيه بهذه الانسانية فهذه العواصف والبحار والحروب والنار لا تشفق على الناس فكيف اشفق انا عليهم العل ابي اشفق علي وانا من دمه وقطعة منه ! بلى هذا أنت فقد تخلت عنك امك ونبذك ابوك والتمست الاعمال فلم تجديها وعلمت يقينا انك لا تنالين قطعة خبز من هؤلاء الناس الا ببيع النفس فهل تلومينني إذا اشتريت سعادتك بجريمة ؟

فاطرقت جانيت مفكرة ولم تجب وكانت الحدة قد بلغت منه وهو يعترف بذنوبه فقبض على ذراعها وهزه وهو يقول

— ما بالك لا تجيبين !

قالت ، لا أعلم ... لا أعلم ...

— اتضعفين إلى هذا الحد فترضين بشقائك دون مقاومة ، اني لست بجبان فاني امشي إلى الثروة مشي الفاتحين إلى الحروب الذين يقتلون الناس ويغنمون البلاد بحجة أن الحق للقوة وانا غير آسف لما بدر مني لأني نجحت ولكني لو لم انجح فماذا كان مصيرك ؟

— كان يساعدني الله

فهز كتفيه وقال : وأنا فعلت ما قدِّر لي .

— انك تكفر

— لا احب الكفر ولكن الله قدر لي ما كان ولو اراد لي الخير لما وقعت في شرك هذه العصابة الهائلة ونعم اني لص سفاك كما تقولين ولكن هذا الذنب الاخير الم يكن من اجل سعادتك فانا لا يمكنني أن أعيش بدونك وأنت التي سترشدينني إلى مناهج الصواب ! . . .

وقد حاول أن يضمها إلى صدره فدفعته عنها وقالت له ماذا تقول !

قال : اقول انك ستكونين ملاكي الذي يهديني إلى الصراط المستقيم فاكون جديراً بحبك الشريف واني اود أن أخسر نصف حياتي في سبيل نسيان الماضي .

— اتقول الحقيقة يا جان !

– واية فائدة لي من الكذب فاني منذ لقيتك لا يخطر لي الا ان اسافر بك إلى محل بعيد نعيش فيه آمنين هانئين ويشهد الله اني حين رأيتك وددت لو كنت فقيراً شريفاً كما كنت في شربورغ ولكن قدمي كانت قد زلت ولا يسعني خيانة اخواني وأنت عندي خير من كنوز الارض .

– أأنت صادق في ما تقول !

– اقسم بالله !

– اذن برهن لي على صدقك .

– كيف تريدين أن يكون البرهان !

– يكون بأن تدع هذا المال ، مال الجريمة ، لشركائك فيها فاني بعد بضعة ايام سأكون وحدي مع اختي فقد اثبت لي الطبيب أن مربيتي المسكينة لم يبق لها غير ايام معدودة وانك مهما كنت فلا تزال مقيما في قلبي فاصغ الي يا جان انني واياك في مقتبل الشباب فلنشتغل ولنعش عيشاً شريفاً ولنسافر إلى اقصى بلاد المعمورة إذا شئت فاني اتبعك إلى حيث تريد بهذا الشرط

فنظر اليها نظرة اشفاق وقال :

– الم يكفك ما لقيته من الشقاء ام تحسبين أن الشقاء يهون خارج باريس !

– جان انك تعلم يقيناً اني احبك كما تحبني ولكن هذه الثروة الاثيمة تروعني فدعها لسواك ولا تأخذ منها غير ما نحتاج اليه لنصل إلى بلد نشتغل فيه كما يشتغل جميع الناس فاذا

رضيت بذلك كنت لك اتبع من ظلك ولا اذكر لك كلمة عن الماضي وقد وهبتك نفسي فلا استرد ما وهبت بل اكون لك شريكة في السراء وخير مؤنسة في الضراء .. جان انك لا توافقني على ما اقول اليس كذلك !

– ما هذا الجنون .

– ليس ما اقوله جنوناً بل هو هناء المستقبل فاننا نشتغل ونتعاون ونعيش عيش الشرفاء واكون مع اختي شبه ملاكين يحرسانك ... قل يا جان .. قل انك رضيت ! ...

– حسناً لقد رضيت ولكنك لو خبرت العالم حق الاختبار لعلمت أن من حق القوي أن يسود فأن الحق للقوة .

– دع العالم الآن والاختبار ولا تصغ الا لصوت الضمير اي الفرق بين الخير والضلال ! ...

– إذا كان هذا امرك ...

– لا آمرك بشيء فانت حر طليق ولكنك انقذتني مرة من الشقاء فوجب علي أن انقذك من العار ولك الخيار في أن تدعني وتأخذ هذا الذهب الذي اعطيتني اياه فان منظره يروعني ولمسه يحرق اصابعي فاستنصرك بالله وكفى بالله نصيراً

– أأنا افارقك !

– هل تحبني حقيقة يا جان !

– كيف تسألني هذا السؤال !

– اذن عدني وعداً .   – ما هو !

– هو أن تعتزل هذه العصابة .
– سأفعل .
– وأن تكون شريفاً في مستقبل الايام .
– سأكون .
– وإذا صدقت كنت وإياك على ما تشاء .
– هذا كل ما اتمناه !...
– وإذا شئت كنت حليلتك أو خليلتك ولكن على ان لا تحب سواي .
– لا يتسع قلبي لحب سواك . – اتحبني دائماً
– إلى الابد . الم اقل لك انى اضحي الدنيا في سبيلك
– اذن نسافر ! .
– بعد بضعة ايام أو بضعة اسابيع الى أن افرغ من اشغالي وفوق ذلك انك لا تستطيعين الآن مفارقة مربيتك .
– هذا اكيد .
– اذن لا بد من الانتظار .
– ولكني اخشى أن يكون الخطر محدقاً بك .
– لا خوف علي ..
– وسنختار بلداً بعيداً ننسى فيه جميع الناس ونعيش هانئين .

فاجابها بقبلة وعقدا الصلح وعند افتراقهما جدد الوعود فاشترطت عليه الوفاء واشترط عليها كتمان سر سفرهما عن

الجميع وعن استاذه على الاخص .
وبعد انصرافه اطرقت مفكرة وهي تقول :
– اني اريد تصديقه ولكن الشك لا يزال يخامر قلبي .
اما هو فانه كان يسير في مركبته ويقول :
– اني احبها وساجعلها غنية بالرغم عنها واسافر بها الى اقصى البلاد وإذا كانت قد ساعدتها الصدف على معرفة سر بائع الألماس فهي لا تساعدها على معرفة سر الزواج وآمل أن أستطيع تحقيق كل آمالي .

الفصل السادس

جمع الشمل وحزن سري

واقامت جانيت في منزلها وهي معذبة اشد العذاب لأنها لم تكن واثقة من صدق عشيقها وكان صوت امها لا يزال يرن في اذنها فتشفق عليها اشد الاشفاق ولكنها ايقنت انها لن تراها بعد الآن لأنها علمت من نفسها انها لا تجسر على لقائها والاعتراف لها بذلها وفوق ذلك فقد كانت تحب جان اصدق حب وقد وعدها بان يرجع عن غيه القديم .

وكانت مربيتها قد ضعفت ضعفاً عظيماً والطبيب يزورها في كل يوم ولا يصف لها دواء اذ لم يبق فائدة من الادوية .

ثم أن بيير لاروش يرسل اليها في كل يوم رسالة مبهمة بشأن البحث عن عائلتها وكل يوم يمطلها بوعد ولا غرض لـه من ذلك الا التسويف وابعادها عن باريس إلى أن يتم عقد الزواج حتى افضى بها الأمر إلى الشك به ايضاً فكان هذا الريب الجديد عذاباً شديداً يضاف إلى عذابها .

ففي احد الأيام بينما كانت بجانب مربيتها سمعت صوت مركبة وقفت عند باب المنزل ثم رأت رجلين خرجا منها ودخلا إلى المنزل وكانا جان واستاذه بيير لاروش فذعرت جانيت حين

رأت هذا الرجل لأنه هو الذي اضل عشيقها وافسد اخلاقه وكانت هذه أول مرة يزورها فاخذ ينظر إلى المنزل ورياشه ويظهر اعجابه من حسن اتقانه ثم قال لها بعد الاحاديث المألوفة اني أراك منقبضة الصدر أليس كذلك ؟

قالت : هو ذاك .

– لقد اخبرني جان باشتداد علة مربيتك ولابد أن يكون انقباضك لهذا السبب ولكن اصدقيني الخبر يا ابنتي أليس لحزنك سبب غير هذا !

وقد نظر اليها محدقاً كأنه يريد أن يكشف خبايا قلبها فقالت جانيت في نفسها : لا شك انه يريد أن يعلم إذا كنت عارفة بسر العصابة ولكنها كانت مخطئة فانه كان يريد أن يعلم إذا كانت قد وصل اليها خبر الزواج فان كل من يحب يغار ولا يعلم غير الله ما يقدم عليه صاحب الغيرة .

ولكنه اطمأن إذ أيقن انها لا تعرف شيئاً من امر هذا الزواج وعند ذلك خرج جان ليتفقد المريضة فاغتنم بيير هذه الفرصة وقال لها : أوصلتك رسائلي !

– نعم .

– اني قابلت المسيو دافينو وهو من الحـــذاق الخبيرين الذين لا يسهل استطلاع اسرارهم ومع ذلك فقد تمكنت من أن اقف منه على بعض التفاصيل .

– كيف ذلك !

– ذلك انك كنت مصيبة بما ظننته من انهم يبحثون عنك

فلم يظهر على الفتاة شيء من علائم السرور أو الارتياح فعجب بيير منها وقال لها : ألا يسرك أن تهتدي إلى امك !

— سأفقد الأم التي ما عرفت سواها .

— ولكن امك الحقيقية في قيد الحياة وهي تنوب عنها فان سر مولدك قد انجلى بعض الجلاء فان امك غنية ومن اصحاب المقامات العالية الم يعرف جان شيئاً من حكايتك !

— كلا . — ألم تخبريه بشيء !

— كلا فانك منعتني عن اخباره

— انه سيدهش دهشاً عظيما .

— متى !

— حين تخبريه بهذا التغيير الذي لم يكن يتوقعه .

— اتعتقد هذا الاعتقاد !

— دون شك فانه سيفرح فرحا عظيما فلا تخبريه بشيء الا حين النهاية .

— كما تريد فان الموت في منزلي الآن فكيف افكر بغير هذه المريضة العزيزة .

وعند ذلك حضر جان فتأبط ذراعها وخرج بها إلى الحديقة يتبعهما بيير مقصراً عنهما لاشتغاله بفحص الازهار فقال لها ، لقد اخبرتني امرأة البستاني بكل ما قاله الطبيب فقد قال انه لم يبق رجاء وستكونين حرة بعد بضعة ايام .

— وا أسفاه !

— وانا كذلك أكون قد انهيت اشغالي فنسافر .

— كما تريد . — اما الآن فاني مضطر إلى فراقك

— إلى اين أنت ذاهب

— إلى باريس وثقي أيتها الحبيبة اننا سنكون بعيدين عنها في وقت قريب ولدي كثير من الشؤون في انتظار ذلك لا بد لي من اتمامها فلا تبالي بكل ما تسمعين عني فلا اهتم الا بك وبمستقبلك وكل ذلك يتم في ثلاثة أو اربعة ايام .

— الا اراك في خلالها !

— كلا .

فاطرقت مفكرة ثم قالت بعد سكوت قصير : واذا حدثت نكبة !

— أية نكبة تتوقعين !

— موت مربيتي .

فقطب حاجبيه وقال : أن الطبيب قد يكون منخدعاً ومع ذلك فاذا صدق ظنه فابعثي إلي رسولا او كتاباً أو رسالة او برقية .

— إلى قصرك في باريس ! — نعم !

وقد اقام معها برهة ثم ودعها وانصرف مع استاذه فعادت إلى غرفتها وهي تقول :

— لماذا يخامرني الشك بهذين الرجلين واية فائدة لهما من خديعتي .

تألقت الانوار وزينت الابواب بالرياحين واصطفت المركبات خطاً طويلا عند باب قصر موريس كولمباي واشرأبت الاعناق من نوافذ الجيران لتتفرج على زوار هذا القصر الذي غصت قاعاته بالمدعوين إلى حفلة عقد قران جان رودريكوس على ماري كولمباي وقد توافد إلى هذه الحفلة جميع معارف هذه الأسرة ما خلا فرنند كولمباي ابن عم ماري فانه لم يكن قد عاد من رحلته .

وكان في جملة الذين حضروها الاميرال دي فيتراي وامرأته فقد اتيا متأخرين ولما أعلن قدومهما أسرع موريس كولمباي إلى استقبال صديقه القديم فقال له :

– اشكرك ايها الصديق لهذه الزيارة فمن اين اتيت ؟

– من طولون وقد وصلت الآن .

وبعد محادثة قصيرة اختلطوا بالناس والتفت المركيزة بالاميرال ودار الحديث بينهما عن جانيت فقال لها الاميرال : لقد بت الآن واثقا من ايجادها .

قالت : كيف ذلك العل المسيو رافينو وجد اثرها ؟

– كلا فانه لم يهتد بعد إلى السائق الذي قاد النسوة الثلاث

– إذن من اين جاءت هذه الثقة ؟

– لقد وردتني وانا في طولون هذه الرسالة السرية

ثم اعطاها الرسالة فقرات فيها ما يأتي .

إذا اراد الاميرال دي فيتراي أن يأتي إلى منزل موريس كولمباي ليلة كتابة شروط زواج ابنته يأتيه رجل فيكشف له ذلك السر الذي يبحث عنه مقابل خدمة يسأله اياها .

فقالت له المركيزة ، متى سافرت ؟

– حين وصلتني هذه الرسالة .

– وأنت الآن تبحث عن هذا الرجل ؟

– كلا فاني لا أعرفه ولكني انتظره .

ولم يكد يتم جملته حتى جاء رجل كهل وقال له ، هل أنا بحضرة الاميرال دي فيتراي يا سيدي ؟

قال : انا هو .

– اتريد يا سيدي أن تأذن لي بمقابلتك ؟

– دون شك فما أتيت الا لهذا .

– وعند ذلك استأذن من المركيزة وذهب بالرجل إلى مكان معتزل وكان الرجل بيير لاروش !...

وهنا سأله بيير قائلا : هل وردتك رسالة برقية في طولون

قال : نعم .

– انا الذي ارسلتها اليك .

– ما كان قصدك من ارسالها ؟

– أن ابادلك خدمة بخدمة .

– تفضل بالايضاح .

– انك تبحث عن فتاة ؟

– اني عهدت إلى المسيو دافينو أن يبحث عن عجوز ارملة

من بلادي .
— وهذه العجوز تدعى ارملة بوديت ؟
— لقد عرفت ذلك من الجرائد .
— هو ذاك ، ولكنك لا تبحث عن هذه العجوز الا على رجاء ايجاد فتاة عهد بها اليها من عهد بعيد .
— كيف عرفت ؟
— هو ذاك ، فالى اين تريد أن تصل ؟
— إلى مبادلة الخدمة التي ذكرتها لك .
— ما هي ؟
— سوف تعلمها يا سيدي ولكني ابدأ فأقول اني لا اطلب مالا فقد يمكن أن يكون خطر لك أن مرسل هذه الرسالة يريد مالا مقابل كشف هذا السر .
— هذه هي الحقيقة فقد خطر لي هذا الخاطر واني مستعد لدفع المال .
— لقد اخطأت فراستك يا سيدي ، فما انا ممن يرتزقون من هذا الباب .
— إذن .
— أن حالتنا تكاد تكون واحدة .
— أنت وانا أمذا ممكن .
— سوف تعلم فانك تبحث عن فتاة ضحيت لسبب ليس من شأني البحث عنه وانا ايضاً اعرف غلاماً دفعت الكبرياء وحب الذات اباه إلى التخلي عنه وهو في المهد وأنا أريد أن اخبر هذا

الفتى باسم ابيه .
— لأية غاية ؟
— لغاية لا احب اظهارها وربما كانت غاية انسانية .
— إذن لا أتداخل في هذا الشأن .
— أنت حر ولك الخيار .
— قل ماذا تطلب .
— اولا ان تقسم لي بشرفك انك لا تطلع احدا على ما اخبرك الا في الساعة الاولى بعد ظهر غد .
— لماذا هذا الاحتياط ؟ — لانه يرضيني
— اتعد ذلك سبباً ؟
— لك الخيار كما قلت لك فهل ترضى ؟
— ارى انه لا بد من الرضى .
— ان هذا الفتى سيكون في موقف حرج على او حوادث يخبرونك بها أو تجري امامك .
— امامي .
— نعم دون ان تتوقعها او تستطيع منعها
— هذا عجيب .
— ولكنه سيكون فهل تتعهد لي بشرفك ان تساعد هذا الفتى مهما كانت الحالة التي ستوجد فيها ولا اريد بذلك المساعدة المالية فهو غني ثم ان مساعدتك اياه لا تمس شرفك اقل مساس .
— اهذا كل ما تطلبه ؟
— تقريباً .

ثم اخرج من جيبه غلافاً ضخماً يحتوي على اوراق مختلفة وقال له : هذه هي الاوراق التي تثبت اتصال هذا الفتى برجل محترم من اصحابك .

— من اصحابي !!   — نعم انا اخبرك بذلك .

— تمم حديثك .

— وهذه الاوراق مؤلفة من صك ولادة الفتى ورسائل الأم ووصيتها إلى ابنها .   — وبعد ذلك ؟

— وفي هذا الغلاف تجد اسم الفتى وعنوانه فهو يقيم في باريس .   — افرغت من قولك

— نعم وان المهمة بسيطة كما ترى لا يراد بها خدمتي بل خدمة هذا الفتى الذي ستعرفه غداً .

— اذن يجب ان اساعده .

— بكل قواك كأنك تساعد نفسك .

— ويجب ان اعطيه هذه الأوراق !

— له دون سواه ويوجد منها صورة ثانية فاذا اضعتها تصل إلى الفتى من مصدر آخر .

وكان هذا القول شبه انذار لم يخف عن الاميرال فنظر إلى بيير نظرة الفاحص وقال له :

— لماذا لا تعطيه اياها انت ؟

فهز بيير كتفيه وقال له : ان ذلك بامكاني ، لكني لو اردته ما كنت محتاجاً اليك .

— لقد اصبت ولا دخل لي بسرك !

— اذن لقد اتفقنا فانك لا تفتح هذا قبل الساعة الأولى بعد ظهر غد .   — سأفعل .

— اتقسم لي بشرفك !   — اقسم .

فاخرج بيير غلافاً آخر من جيبه فدفعه اليه وقال :

— والآن فهذا ما يتعلق بالفتاة التي تبحث عنها فانك تجد في هذا الغلاف المعنون باسمك جميع ما تريده من معلومات عن هذه الفتاة التي هي ابنة الكونتس دي فيتراي .

— من اخبرك بهذا !

— لقد عرفته وهذا الغلاف لا يحق لك فتحه قبل الساعة التاسعة ونصف .

— لماذا هذه المهلة .

— لاني لا بد لي منها لاتمام مشروعي .

— ولكن ما هذا المشروع ؟

— كل ما أستطيع قوله انه لا يضرك في شيء ولا يضر الفتاة على الاطلاق بل يفيدك فماذا تريد أكثر من ذلك وفي هذا الغلاف تفاصيل وافية عن حالة الفتاة الحاضرة .

— أهي بعيدة من هنا ؟   — كلا ؟

— وأرملة بوديت ؟

— مقيمة معها .

— اهذا كل ما تريد قوله !

— نعم فقد كتب على كل غلاف الموعد الذي يجب ان يفتح فيه كي لا تنسى وقد بقي لي كلمة .

– ما هي !

– هي انك لا تخبر احداً من أين اتتك هذه الاوراق

– حتى المرسلة اليه . – هو على الاخص .

– حسناً اليس لك خدمة اخرى تسألني اياها !

– كلا !

– قل ولا تخف فانـك خدمتني خدمة لا يفيها ثمن بايجاد الفتاة .

– أن الصدفة وحدها اوقفتني على اثرها .

– ألا أعرف اسمك على الاقل .

– اية فائدة من ذلك فانه اسم استاذ بسيط لا يلتفت اليه امثالكم .

– الا اراك بعد الآن .

– دون شك . – متى .

– غداً ولكني لا ازيدك شيئاً على ما قلته .

– وهناك افترقا فاختلط بيير بالمدعوين فجال بينهم جولة ثم وقف في باب احدى القاعات ينظر إلى موريس كولمباي ويناجيه في نفسه فيقول: اليوم عقد الشروط وغـداً الزواج فالى الغد .

وهكذا الاميرال فانه لقي امرأته فابتسم لها وقال لها :

– تأملي واصبري إلى الغد وكذلك جان رودريكوس فانه كان ينظر إلى خطيبته نظرات تفتنها ويقول إلى الغد .

●

أن خير الجياد جياد الرهان وهي تلك الجياد التي تركض كأنها سابحة على بطونها وتثب فوق الخنادق وتجتاز الحواجز غير مكترثة لكبوة تكسر اعضاءها .

وخير ما يشبه به بيير لاروش انه كان مثل هذه فقد كان له في جسمه الصغير ارادة لا تغلب وعزيمة شماء لا تقف في سبيلها الحوادث فقد كان رجلا شديد الخطر شديد الاساءة شديد الحقد لا يبالي بما يعترضه من الاخطار في سبيل انتقامه .

فلما قابل الاميرال كان على اهبة الوصول إلى مقصده وبلوغ الغاية من ذلك الانتقام الذي يسعى اليه من عدة اعوام إذ كان قد وضع لغم انتقامه تحت ذلك القصر الفخم فلا تمضي ساعات حتى ينفجر .

ولذلك برح القصر آمناً مطمئناً إلى منزله وهو فرح القلب فقد وضع إحدى رجليه على عنق عدوه ولم يبق له إلا أن يسحقه فقد كان وضع توقيعه باسم بيير لاورش بصفته شاهداً في ذيل صك الزواج ولم يبق بد من زواج ماري كولمباي بجان رودريكوس ذلك الفتى الذي رباه كي يجعله آلة لانتقامه فيزوجه بابنة كولومباي ويطعن قلب ابيها بخنجر مسموم .

ولكنه لا يطعن عدوه وحده بما سيفعل بل انه سيقتل ايضاً الرجل الوحيد الذي أحبه ورباه منذ طفولته فانه إذا انتقم من الأب قذف بالابن إلى الحضيض وهذا الابن هو جان رودريكوس أو جان موريس رفيقه وحبيبه الذي كان يعده بمثابة ولده .

وهذا الذي كان يؤلمه ويقرع ضميره ولكنه كان يتعزى على

ذلك بقوله أن الأب غني فسينقذه بملايينه ثم يتغلب فرح الانتقام على هذه العاطفة فلا يفتكر الا به . وقد وصل إلى المنزل فذهب إلى غرفة الخادم الوحيد الذي بقي فيه من رجال العصابة فوجده نائما فأيقظه وقال له : أتنام الآن ؟

فصحى من رقاده مرعوباً وقال : لقد أحسنت بايقاظي كنت احلم حلما هائلا .

— بماذا كنت تحلم ؟ — بالمشنقة !

— تباً لك ابله فهل اعددت صناديق السفر .

— أتسافر غداً . — دون شك .

— بقطار الاكسبريس .

— نعم فهو يسافر في الساعة الثانية بعد الظهر ورفاقنا الآن في الطريق .

— والعريس أيبقى وحده في باريس

— بضعة ايام

ثم تركه ودخل إلى غرفته كي يستريح بالنوم ولكنه لم يستطع الرقاد . وبعد انتصاف الليل بساعة وقفت مركبة عند باب المنزل فعلم انها مركبة جان فتنهد وقال : مسكين أنت يا جان ولكن لا بد لي من الانتقام .

حتى إذا أصبح الصباح خرج من المنزل فركب مركبة وسار بها تواً إلى منزل جانيت . وهناك اعطى السائق رسالة وامره أن يعطيها للبستاني فذهب السائق بها واختبأ بيير داخل المركبة وبعد هنيهة عاد السائق فعاد به إلى باريس .

اما الرسالة فقد كانت معنونة كما يأتي :

« إلى المدموازيل جانيت .

« مستعجل جداً »

فوات الأوان

لقد وفى الاميرال بوعده ولم يفتح ذلك الغلاف الذي يكشف النقاب عن سر طالما بحث عنه ولو حدثت هذه الحادثة لرجل من الذين يسمونهم اشرافاً في هذا العصر لما صبر لحظة على فض الغلاف غير أن الاميرال كان من اولئك الاشراف القدماء فلو علم أن موته بالصبر لما اخل بوعده ولما فتح الغلاف قبل الساعة التاسعة ونصف . وقد بات تلك الليلة على احر من الجمر وصحا عند الفجر فجعل يعد الدقائق والثواني .

وفيما هو ينظر إلى الساعة وقد بلغت الثامنة ونصف دخل اليه خادم غرفته وانبأه بقدوم باروا وهو الرجل الذي عهد اليه دافينو بالبحث عن جانيت .

فلما دخل اليه سأله الاميرال قائلا .

هل عثرتم على امر جديد .

— أن المسيو دافينو ارسلني اليك لأنه يعلم أن صبرك قد نفذ ولكن ما حيلتي فان الاقدار كانت تماكسني .

— اني لا اشكوك .

— ولكني اشكو نفسي فان ثلاث نساء لا يجب أن يختفين

عن مثلي لا سيا وقد عرفت نمرة المركبة التي ذهبن بها إلى منزلهن الجديد وهي رقم ٨٤٣١ .

— كيف عرفت ذلك

— بالصبر الطويل فقد ذهبت إلى المحافظة فكتبت جميع نمر المركبات واسماء اصحابها وذهبت اليهم جميعهم فسألتهم عن النسوة الثلاث فأجابوني بجملتهم انهم لم يوصلوا اولئك النسوة ما خلا صاحب المركبة رقم ٨٤١٢ فلم يبق شك انه هو الذي أوصلهن ولكن الأقدار تعاكسني كما قلت لك يا مولاي .

— كيف ذلك !

— ذلك أن سائق هذه المركبة قد مات .

فنظر الأميرال إلى الساعة نظرة الجازع وقال : وبعد ذلك قال : أن الذي اخرنا عن الاهتداء اليهن هو أن للفتاة قد تعرفت بأحد الفتيان فاقامها في مكان معتزل في ضواحي باريس

فقطب الاميرال حاجبيه وقال : كيف عرفت ذلك .

— اني لا افتخر يا سيدي باني اهتديت إلى ذلك بحذقي ولكن الصدفة قد ساعدتني فان لامرأتي صديقة زوجها من الاطباء فنظر الاميرال إلى الساعة فقال له باورا : الملك مستعجل يا سيدي .

— كلا فـاني منتظر السـاعـة التاسعة ونصف فامضى في حديثك .

— وقد ذهبت امس امرأتي لزيارة صديقتها وهي مقيمة في ضواحي باريس ولم يكن الطبيب في المنزل فسألتها عنه فأجابتها

انه ذهب لعيادة عجوز مجنونة تقيم مع ابنتين . فلم تحفل امرأتي بهذه الحادثة ولما عاد الطبيب عادا إلى الحديث بهذه المجنونة فعرفت امرأتي انها تدعى ارملة بوديت وانها تقيم في فوكرسون

وكانت امرأتي تعلم اني ابحث عن هذه المرأة فعادت إلى باريس مسرعة واخبرتني بما علمته فاخبرت دافينو .

فارسلني اليك .

— تقول انها تقيم في فوكرسون ؟ — نعم

— اما هي في طريق روكنكور ؟

— هو ذاك . — اتصحبني اليها

— دون شك

فأمر الاميرال احد الخدم أن تعد له مركبة ودخل إلى امرأته فقال لها :

— اسبقيني إلى منزل كولباي لحضور العرس فأني ذاهب للاهتمام وساوافيك إلى الكنيسة .

فسألته بصوت مضطرب قائلة : هل عرفت شيئاً :

— ألم اقل لك بالأمس اصبري إلى الغد .

— حقق الله امانيك .

— وقد خرج الأميرال مسرعاً فركب مركبة وسارت بهما إلى منزل جانيت .

وقد حانت الساعة التاسعة ونصف وهما على الطريق ففتح الأميرال الغلاف وقرأ فيه حكاية جانيت فان بيير كتبها له بتفاصيلها دون أن يذكر اسم عشيقها ودله على المنزل الذي فيه

وذكره بما أوصاه في الليلة السابقة .

وفي الساعة العاشرة ونصف وصلت المركبة إلى المنزل وسأل الأميرال البستاني قائلا : اهنا منزل أرملة بوديت .

– نعم – هل يمكن أن اراها .

– نعم يا سيدي ولكنها في أشد حالات الانحطاط .

– وابنتها المدموازيل جانيت – نعم

– انها ذهبت إلى باريس بقطار الصباح منذ ربع ساعة على اثر كتاب ورد اليها ولا شك ان هذا الكتاب يحمل انباء سيئة

– ما الذي حملك على هذا الاعتقاد .

– انها لم تكد تقرأه حتى اضطربت اضطرابا عظيما فلبست ملابسها وهي لا تعي واسرعت إلى السفر ولكن مالي ولهذه الأقوال فاذا كنت تريد أن ترى العجوز فتفضل بالدخول ولكنك لا تستطيع ان تقف منها على شيء .

وكان هناك فتاة صغيرة واقفة بالقرب من البستاني عند شجرة فسأل الاميرال البستاني قائلا : اهذه هي الأخت .

وكانت علائم الحزن الشديد بادية عليها فقال لها برفق :

– ما بالك يا ابنتي ؟

فترقرق الدمع في عينيها وقالت : ان امي مريضة واختي سافرت .

– إلى اين – لا اعلم .

– الا تعود – لم تقل .

– اتريدين ان تذهبي بي إلى امك ؟

فلم تجبه ولكنها سارت امامه اليها وهناك لقي العجوز مضجعة في سريرها وقد ذهبت الايام والاحزان بجمالها فقد كان يعرفها منذ ثلاثين عاماً حين كانت من الجميلات وكان وجهها قد اصفر جداً بحيث كانت ادنى إلى الموت منها إلى الحياه .

وكانت امرأة البستاني بجانبها فسألها عن جانيت فقالت له انها اقامت كل الليل بجانب امها وانها آية الحنو والاخلاص فلم تفارقها لحظة ولكنها تلقت كتاباً في هذا الصباح فأضاع رشدها فبرحت المنزل على اثره وهي هائمة ولا بد من حدوث مكروه

– إلى اين ذهبت .

– لم تقل كلمة :

فاضطرب الاميرال وقال في نفسه : نعم لا بد من حدوث مكروه وهو لم يكن يعلم شيئاً ولكن هذا الرجل الذي قابله وهذه الرسالة التي وردته إلى طولون وهذا الاقتراح الذي اقترحه عليه بيير في منزل كولمباي وعرفانه حقيقة امر جانيت وهو يعتقد انه خفي عن جميع الناس كل ذلك كان يدله على ان وراء الاكمة ما وراءها وقد تمعن ملياً فلم يجد حلا لهذه الاسرار المكتنفة بهذه الحادثة فدنا من العجوز وقال لها وهو يحدق بها بنظراته النافذة ، بيرين . فالتفتت العجوز اليه وكرر مناداتها وقد أخذ يدها بيزيديه وهو يحدق بها فحدثت عند ذلك اعجوبة وهي ان العجوز رد اليها صوابها فجأة ولعل ذلك كان بسبب النزع الاخير .

فنظرت اليه منذهلة ثم قالت له بصوت خافت : اهذا انت

— نعم انا هو واني ابحث عنك منذ عشرة اعوام فقولي كل ما تعلمين . — اريد ان اتكلم عنها

— نعم عنها ، عن جانيت .

— انها ملاك في صورة انسان . انها مثال كرم الاخلاق والمروءة الخالصة اني على فراش الموت وسأموت قريرة العين نعم انها ملاك فاغفر ..

— لقد غفرت . — احميها واحمي ابنتي ماري .

— نعم . — اقسم لي . — اقسم بالشرف .

— والآن فاذا اردت ان اموت سعيدة فقبل جبيني فاني احبك منذ عرفتك ولكني لم اجسر على اظهار حبي . استودعك الله .

فدنا الاميرال منها ولثم جبينها المصفر فاضطربت لهذه القبلة اضطرابا يشبه آخر شعاع من اشعة الشمس عند المغيب وسمعها الاميرال تلفظ هذه الكلمات الثلاث بما يشبه الهمس . جانيت ماري .. هو .

ثم اطبقت عيناها وانقطع صوتها وذهب بانفاسها الموت .

اليوم العظيم

في تلك الساعة التي قطع الموت فيها انفاس الارملة امام الاميرال دي فيتراي كانت دار المحافظة في باريس غاصة بالناس وقد احتشدت الجماهير عند الابواب وفي الشارع بسبب زواج

كبير كان يعقد في تلك الساعة .

والزواج هناك نوعان الزواج المدني الذي يعقد في دار المحافظة في باريس وعليه المعول ويجيء بعده الزواج الكنسي الذي يراد به مجرد البركة :

وكانت مركبة الزوجين قد حضرت يجرها جوادان من خيرة الجياد وقد افرغت عليها اكاليل زهر الليمون .

فلما خرجت العروس من المركبة تجر ذيل ثوبها الابيض ارتفعت اصوات الاعجاب وابتسمت ماري ابتسام المنتصر .

ودخل العروسان إلى قاعة فسيحة في دار المحافظة وفي اثرهم اعضاء العائلة واخص الاصدقاء ، فان هذه القاعة لم تتسع لجميع المدعوين إلى أن تم عقدهم فدنا المحافظ من ماري وسألها هذا السؤال الذي لا بد منه قائلا :

— ماري كولباي أترضين أن يكون جان رودريكوس زوجاً لك ؟

فأجابته بصوت ضعيف مضطرب قائلة : نعم ارضى .

وسأل الزوج مثل هذا السؤال فأجابه بالرضى .

وكانت ام العروس تضطرب اضطرابا لا تدرك له معنى ولم تصب بمثله حتى يوم زواجها فان هذه الكلمة ، كلمة نعم التي تربط الزوجين برباط وثيق ، كلمة عظيمة طالما اسفت الزوجات لقولها بعد اسبوع وربما بعد يوم .

وكذلك جدها سانت كلير فقد كان يحب حفيدته ماري حبا عظيما ويتمنى بذل كل ملايينه في سبيل سعادتها ولكنه كان

خائفاً من هذا الزواج لاسباب لم يعلمها فكان ينظر إلى جان رودريكوس نظرات تدل على الاستياء لأنه قد سلبه اعز عزيز عنده .

ولم يخل من هذا الاضطراب الاب نفسه موريس كولمباي على شدة عزيمته فانه نظر إلى جان والمحافظ يسأله فاضطرب اضطراباً عظيماً وقال في نفسه :

— لقد ذكرت الآن هاتين العينين فانهما عينا روز ... تلك المعلمة التي خدعتها وهجرتها فانتحرت بعد أن ولدت غلاماً

ولكن لم يبق سبيل للتقهقر فأن الكأس قد صبت ولم يبق بد من شربها .

هوذا قرانكما قد تم واصبحتما زوجين باسم القانون .

وقد قضي الامر ووقف بيير لاروش بالقرب من الزوجين يفرك يديه سروراً دون أن يكترث به احد وكذلك هو لم يكن يكترث لاحد ولكنه كان ينظر إلى موريس كولمباي وقد جاء احد الموظفين في المحافظة وناوله القلم ليوقع على صك الزواج فتناوله وكتب امضاءه بيد ترتجف ثم جاء دور الشهود والاصحاب فكان بيير ينظر من حين إلى حين إلى ساعة معلقة تحت صورة كبيرة لرئيس الجمهورية ويحسب الوقت الذي يقتضي لقدوم جانيت من منزلها إلى الكنيسة فانه كان قد اتخذ كل ما ينبغي اتخاذه من الوسائل ، وبعد أن تمت التوقيعات خرج العروسان إلى الكنيسة بنفس الحفاوة التي جاءا فيها إلى المحافظة وقد ضمت الكنيسة جميع المدعوين وكان بينهم الكونتس

بلانش وهي مطرقة حزينة راكعة امام ايقونة العذراء تصلي فان تلك الفتاة التي رأتها عند رافينو كانت ممثلة امام عينيها وهي تعتقد انها ابنتها جانيت بعينها .

ولم يكن الاميرال قد حضر بعد فكانت تنظر من حين إلى حين باحثة عنه بين المدعوين واخذ الكهنة بالصلاة وقاربت الحفلة النهاية وقد غصت الكنيسة بالمدعوين وبفريق كبير من اهل ذلك الشارع على اختلاف طبقاتهم وهم معجبون بجلال هذه الحفلة النادرة .

حتى إذا اوشكت الصلاة أن تنتهي دخلت فتاة صبية إلى الكنيسة وهي جانيت فكانت لابسة ذلك الثوب الاسود الذي لبسته حين ذهبت إلى دافينو وهي منبوشة الشعر مضطربة الحواس فجعلت تخترق صفوف الناس إلى الهيكل حيث كان العروسان وهي تشبه المجانين .

غير أن الزحام كان شديداً فلم تكن تستطيع المرور الا بعناء عظيم وهي تارة تخترق الزحام بالعنف وتارة بالتوسل والاستعطاف .

إلى أن وصلت بعد الجهد العنيف حيث كان العرسان راكعين والكاهن يباركهما وبعد أن تمت البركة وقف جان ونظر إلى الحضور فرأته جانيت وغطت وجهها بيديها وقالت بصوت مختنق سمعه الذين كانوا بجوارها :

— يا لك من شقي ! .

أن هذه الرسالة التي ارسلها بيير لاروش إلى جانيت كانت

محتوية على ما يأتي :

« لقد خدعوك ايتها المسكينة فقد كنت تحسبين انك محبوبة ولكنك واهمة فان عشيقك يهزأ بك .

واذا كنت تريدين البرهان على صدق ما اقول فاقرأي هذه المقالة التي ارسلتها اليك في طي هذه الرسالة وقد قطعتها من جريدة الفيغارو فتتبين لك الحقيقة » .

صديق

اما المقالة المقتطعة من الجريدة فكانت كما يأتي :

« في الساعة الحادية عشرة من صباح غد يعقد في كنيسة العذراء زفاف آنسة من اهل الجاه والثروة العظيمة فان اباها موريس كولمباي من اشهر رجال القضاء واغنى الباريسيين وامها ابنة ميشيل سانت كلير المتمول العظيم .

اما العروس فانها بارعة الجمال لم تتجاوز ثمانية عشر ربيعاً ويبلغ مهرها ثلاثة ملايين فرنك وهي فوق ذلك وريثة ابيها وجدها واما الزوج فهو من خيرة الجالية الاميركية وهو فتى غني اديب يقيم في باريس منذ بضعة اشهر وقصره في شارع باسانو

وقد قضي الاتفاق أن يشتري قصراً في الخلاء في فرسايل بجوار قصر هناك للمسيو موريس كولمباي فدعا الجوار إلى التعارف ثم إلى الحب ثم إلى الزواج واسمه جان رودريكوس فنهنيء العروسين ونرجو لهما الرغد والهناء .

وكانت جانيت حين وصلت اليها هذه الرسالة جالسة بجانب مربيتها فلما فتحتها وقرأت سطورها الاولى التفتت إلى البستانية وقالت لها :

ـ من اين هذه الرسالة ؟

ـ قلت لا اعلم . — من الذي جاء بها ؟

ـ سائق مركبة . — اين هو ؟

ـ لقد ذهب لفوره .

فأخذت المنكودة تقرأ مقالة الجريدة وهي لا تصدق ما تقرأ حتى انتهت إلى آخر سطر من المقالة فلم تعد تعي من يأسها فانها ارادت أن تضحي بنفسها من اجل هذا العشيق الذي كانت تهواه بملء جوارحها وتريد أن تنتشله من تلك الهوة التي سقط فيها بجنوها وحبها فاذا به يخدعها شر خدعة ويتزوج وهو منذ يوم كان عندها يبسط لها آيات حبه ويعدها بالزواج فكيف يكون صاحب هذه الرسالة من الصادقين لا سيما وانه تنكر ولم يذكر اسمه في ذيل الرسالة .

ولكن الجريدة تقول أن الزواج يعقد اليوم وقد عينت الكنيسة والساعة وذكرت اسمي الزوجين فكيف يكون ذلك كذباً .

ولما انجلت لها الحقيقة تمثل لها جان فتحول ذلك الحب فجأة الى ذعر ثم استحال الرعب الى كره عظيم فان هذا الرجل قد سحق كبرياءها بقدميه وافترى عليها افتراء لا ترضى به نفس شريفة وقابلت بين عواطفها وعواطفه وبين سلامتها وشره وبين تضحيتها وهزئه وإستخفافه فكادت تجن من يأسها وأسرعت الى غرفتها فلبست ذلك الثوب الاسود اذ كان أول ثوب اصابته يدها .

ثم خرجت من المنزل هائمة لأنها بالرغم من تلك المقالة التي قرأتها كانت تريد أن تتحقق من ذلك ولم تكن الساعة ساعة قدوم القطار فركبت مركبة وسارت بها تواً إلى منزل سانت كلير ذلك الشيخ الذي كان أول المحسنين اليها حين لقيها في قهوة الفردوس واراد انقاذها من تلك الهوة .

وهناك لقيت بواب المنزل وسألته عن سانت كلير .

فذكر البواب انها جاءت مرة من قبل وقال لها : اراك قد عدت .

— ارجوك أن تجيبني هل هو في المنزل ؟

— اتريدين أن تكلميه ؟

— نعم نعم وفي شأن خطير .

— اذن يجب أن تنتظري ايتها الحسناء . — لماذا ؟

— لأنه مشغول الآن بزواج حفيدته ؟

— اتعرفين ذلك . — نعم فمن هو زوجها ؟

— رجل غريب يدعى جان رودريكوس .

وقد نظر البواب في ساعته وقال : انهم الآن دون شك في المحافظة وسيخرجون منها إلى الكنيسة . فعضت جانيت يدها من اليأس وقالت رباه ماذا اصنع ؟

فقال لها البواب على سبيل التهكم .

— انك إذا كنت تريدين منع هذا الزواج فقد فات الاوان فان العروسين قد اعدا معدات السفر فليس بعد التهنئات غير الرحيل .

فشكرته جانيت وانصرفت ثم عادت اليه وقالت له .

— اين هي دار المحافظة ؟

— اتريدين أن تحضري العرس .

— ارجوك أن تجيبني .

فراب البواب أمر هذه الفتاة لما رآه من يأسها وخطر له أن يخدعها حذراً من حدوث مكروه فأجابها قائلا :

— أن المحافظة في ساحة اللوفر .

وقد دلها على شارع مناقض للمكان الذي كانت فيه المحافظة على رجاء أن يتسع له الوقت لأخبار البوليس بشأن هذه الفتاة إذ خطر له انها قد تكون خليلة الزوج وانها قد تريد الانتقام

اما جانيت فانها ركبت مركبة وقالت لسائقها سر بي إلى ساحة اللوفر فامتثل السائق وذهب بها حتى وصل إلى الساحة فوقف وقال لها إلى اين تريدين الذهاب يا سيدتي ؟ إلى دار المحافظة .

— قال بعدنا جداً عنها فهي في شارع الجو .

فادركت جانيت لفورها أن البواب خدعها لأنها ارعبته بظواهر يأسها وعلمت أن الوقت قد مضى فلا تجدهم في المحافظة وعلى ذلك فقد سارت ماشية إلى الكنيسة ورأت الكاهن يبارك جان وزوجته كما تقدم .

وبعد أن رأت ذلك المنظر التفتت إلى احد الواقفين بجوارها وقالت له : ايطول اقامتهم في الكنيسة .

— نصف ساعة بينما تتم الصلاة والتهنئات .

فخرجت مسرعة من الكنيسة وبعد دقيقتين كانت عند باب مركز البوليس فدخلت وسألت احد الحجاب عن القومسيير .

فقال لها الحاجب : اتريدين أن تكلميه ؟

— نعم . — اتريدينه هو بالذات ؟

— هو بعينه إذا كان ذلك ممكناً .

— لأي شأن . — لشأن هام

فدخل الحاجب إلى غرفة القومسيير ثم عاد وادخلها اليه .

* * *

كانوا يعنون من قبل بغرفة التعذيب تلك الغرفة التي كانوا يعذبون فيها الناس في عهد ديوان التفتيش بالـكي بالنار والضغط بالآلات على الاعضاء إلى غير ذلك من انواع التعذيب الهائلة .

اما الآن فقد قضى التمدن الحديث على هذه العادات الهمجية وحل محلها تلك الاسئلة التي يلقيها بعض القضاة وبعض مديري البوليس على المتهمين .

ولكن اتفق لحسن حظ جانيت أن هذا القومسيير الذي دخلت اليه كان من أهل الرفق والبشاشة .

غير أنه كان كثير الانشغال فلما دخلت قال لها دون أن يلتفت اليها :

ماذا تريدين اسرعي بالقول فاني مشغول .

- قالت : اني أتيت يا سيدي لأمر خطير .

— أوضحي هذا الأمر الخطير فاننا لا نجد غير امور خطيرة وقد اسند رأسه إلى كوعه وعيناه شاخصتان إلى تقرير كان

امامه فقالت له :

— اني آتية يا سيدي من كنيسة العذراء .

— عليها اشرف السلام .

— وهم يعقدون فيها عقد زواج .

— بارك الله الزوجين . — آتية لاقول لك ..

— قولي ما تشائين اذ لا شأن لنا غير استماع الاقوال ولكن بشرط أن تسرعي .

فلم تجبه الفتاة بشيء ولكنها تنهدت فالتفت اليها وقال لها افرغت من حديثك فانك تقولين انهم يتزوجون في الكنيسة .

— إذا كان ذلك يسؤك فلا نبحث فيه .

— كلا لست هذا الذي اريده ولكني لم افهم شيئاً من مرادك اخباري بهذا الزواج .

— هذا الزواج يجب منعه . — كيف

— بجميع الوسائل الممكنة .

— لماذا ؟ — لأنه جريمة .

— فهز القومسيير رأسه وقال : أن الزواج قد يكون بلاهة ولكنه لا يكون ذنباً الا في حوادث نادرة .

— وهذا الزواج احدى تلك الحوادث .

— لماذا لأنه لا يرضيك .. ماذا تدعى هذه العروس

— مدموازيل كولمباي .

— ماذا تقولين اهي ابنة المستشار . — هي بعينها .

— وهذا الزواج نفسه هو الذي تعدينه جريمة ؟

– نعم يا سيدي اعني أن ....

فاشفق القومسيير لاضطرابها وقد حسبها مجنونة فقال في نفسه مسكينة انها على ابدع جمال ثم قال لها :

– ماذا تدعين يا ابنتي ؟

– جانيت . – جانيت ماذا ؟

– لا استطيع أن اقول لك .. لا اعلم .

فقال في نفسه لقد صدق ظني اذن فهي مجنونة ثم قال لها :

– تقولين أن ليس لك غيرهذا الاسم العلك فقدت الذاكرة

– كلا يا سيدي .

– إذن كيف لا تعرفين اسمك فاين ولدت ؟

– لا اعلم .

– كيف تريدين أن أعلم انا .. كم يبلغ عمرك ؟

– عشرين عاماً تقريباً .

– كيف ذلك الا تعرفين عمرك ولا تذكرين اسمك ولا تعلمين المكان الذي ولدت فيه اذن فان الجناية اقل مما اظن .

– ارى انك تحسبني مجنونة يا سيدي .

– ربما تكونين قد فقدت ذاكرتك .

– اقسم لك يا سيدي اني صحيحة العقل .

– اي مجنون يعترف بجنونه .

– انك مخطيء يا سيدي بهذا التوهم .

– هذا ما أتمناه يا ابنتي فأثبتي لي كمال عقلكِ .

– اني إذا كنت لا اعرف اين ولدت ولا اعرف اسم ابي

فما ذلك الا لأني دون اهل .

– من الذي رباك .

– امرأة صالحة هي الآن على فراش الموت .

– اين تقيمين ؟...

– في فوكروس في ضواحي باريس بطريق رو كنكورو

فكتب القومسيير هذه الاسماء في مذكرة وقال لها :

لقد قلت أن زواج ابنة كولمباي جناية فما تعنين بذلك فترددت جانيت وقد انفت من خيانة عشيقها الذي انتشلها من الشقاء واحسن اليها ولكن جان رودريكوس تمثل لها تلك اللحظة راكعاً مع عروسته امام الهيكل فعضت الغيرة قلبها وقد ذكرت ايضاً أن ذلك العجوز سانت كلير الذي كان اول المحسنين اليها لأشرف الغايات سيهان ويدنس لزواج حفيدته بهذا اللص فتحمست وعولت على الكلام ولكنها مع ذلك لم تتكلم .

وقد ادرك القومسيير ترددها فقال لها :

– تشجعي يا ابنتي وقولي الحقيقة – سيدي

– إذا لم تتكلمي عدت إلى حكمي القديم فيك واعتبرتك مجنونة .

– كلا لست بمجنونة

– ذلك خير لك ولي فاني إذا اعتبرتك مجنونة اضطررت الى نقلك الى المستشفى وليس ذلك ما ترضينه .

– ولكني لا اريد الذهاب إلى المستشفيات .

– اذن تكلمي فأنك ما اتيت إلا لهذا .

- هذا اكيد ؟
- انك كنت تريدين منع هذا الزواج .
- ولا ازال اريده فان الواجب يقضي بمنعه .
- ولكن أسرعي قبل فوات الاوان ولا بدلذلك من براهين فما هي براهينك ؟

فضمت يدها وتلجلج لسانها فقال لها :

- كفى وقولي لماذا تعتبرين هذا الزواج جناية ؟

فأجابت بصوت مختنق قائلة : ذلك لأن الذي سيتزوج الآنسة كولباي غير جدير بها لأنه ... من اللصوص .

- لص - وقاتل :
- قاتل ... احذري فان الامر خطير وعاقبة الوشاية عظيمة .
- لم اكذب في حياتي يا سيدي .

فوضع القومسيير يده على جبينه شأن المفكر وهو يعجب لهذا الاتفاق الغريب فان موريس كولباي كان من اشهر رجال القضاء فلا يخدعه لص ولكنه كان قد تبين الصدق من لهجة الفتاة فقال لها :

- اخبريني الحقيقة بجملتها يا ابنتي فماذا يدعى الزوج
- انه دعى نفسه جان رودريكوس .
- كيف تقولين دعى نفسه ؟
- لانه كان يدعى جان موريس .
- من اين عرفت هذه الأمور ؟ - منه .

- اذن أنت تعرفينه ؟ - من عهد بعيد !
- العلك كنت خليلته ؟ - نعم .
- إذن اعترفي أن الغيرة قد اضلت صوابك - كلا
- انك قلت يا ابنتي كلمة هائلة وهي كلمة قاتل فعلى أي شيء تعتمدين في هذه التهمة فانك تتهمين نفسك ايضا فان خليلة القاتل تكون مشتركة معه في الجريمة .
- اني لا اخاف مثل هذا التهم يا سيدي فان ضميري يؤنبني لهفوة ارتكبتها مكرهة ولكنه لا يقرعني لجناية . وقد حدثت جناية في باريس من عهد غير بعيد :
- ما هي ؟ - اختفاء احد تجار الالماس ؟

فبرقت عينا القومسيير وقال صموئيل روزن ؟

- هذا هو فقد قرأت هذا الاسم في الجرائد أتعلم ماذا حرى له .
- اننا لا نزال نبحث عنه دون أن نجده .
- إذن انا اخبرك بحقيقة امره .
- أنت .. قولي فاني مصغ اليك ولكن أوجزي المقال
- صموئيل روزن مات .
- ما الذي يحملك على هذا الظن .
- لقد ذهبت يوماً إلى شارع باسانو ؟
- لماذا ذهبت إلى هذا الشارع ؟
- لأن قصر جان رودريكوس فيه
- أي شأن كان لك هناك .

— لقد ذهبت اليه لالتماس رأي جان فقد قرأت في الجرائد اعلاناً يتعلق بالمرأة التي ربتني فان المسيو دافينو كان يبحث عنها فان امي عهدت اليه بالبحث عني .

— أن ما ترويته لي يشبه الحكايات .

— ولكنه الحقيقة — اتمي حديثك ؟

— لقد ركبت مركبة من المحطة وجئت إلى مــنزل جان رودريكوس في شارع باسانو فلما وصلت اليه رأيت رجلا قد دخل اليه ولم اكن اعرفــه ولكن هيأته كانت تدل على انه من اليهـود وهو يحمل بيده حقيبة سوداء فصبرت في المركبة إلى أن يخرج هذا الرجل ولكني استبطأته فدخلت انا ايضاً إلى المنزل فلم يستقبلني لفوره حسب عادته بل أن احد الخدم وهو انكليزي ادخلني إلى غرفة واقفل بابها علي فسمعت بعد هنيهة صيحة هائلة كانت صيحة واحدة لم اسمع شيئاً بعدها ثم رأيت من خلال ستائر النافذة ثلاثة رجال قد خرجوا وهم يحملون صندوقاً كبيراً فلما انصرفوا به عاد الي الخادم وذهب بي إلى جان رودريكوس .

— ولكن الزواج ...

— صبراً يا سيدي فستصل اليه اما جان فانه دهش حين رآني ولكنه ثاب من دهشته في الحال فاقمت عنده هنيهة وعــدت إلى منزلي وليس لي غير الشك ولكني وقفت بعد بضعة ايام على الحقيقة الهائلة فعلمت اني خليلة لص سفاك .

— انه امر خطير فهل تستطيعين أن تدليني على هذا الرجل

— في الحال ...

— الا تزالين مصرة على شكواه .

— اني اقول الحقيقة .

— قد يكون اثباتها صعباً خلافاً لما تتوهمين .

— ربما ولكني اقول ما رأيته وما علمته .

— ما الذي علمتيه ؟

— أني حين عاد الي جان اخبرته بما خامرني من الريب والرعب فاعترف لي بكل ما جناه معتذراً من ذلك بانه يريد أن يكون غنياً فان اباه تخلى عنه وهو في المهد وطرد امه فماتت انتحاراً وقد قال لي أنه لا يريد الثروة الا لسعادتي وانه سيهرب بي ولا يحب سواي .

— ولكن إذا كان لا يحب سواك كما تقولين فكيف يتزوج

— انه لا يتزوج ابنة كولمباي بل يريد مهرها وبعد فماذا تريد أن اقول لك انه كان كاذباً وقد خدعني .

فقال في نفسه أن مهر ابنة كولمباي يبلغ ثلاثة ملايين وحكاية هذه الفتاة غريبة ... ولكنها قد تكون صادقة ثم قال لها :

— اتقسمين لي انك تقولين الحق . — اقسم بالله ؟

— ما دعاك إلى شكوى عشيقك هذه الشكوى التي تقضي عليه القضاء المبرم

— لقد كنت فقيرة معدمة ليس لي قطعة خبز واخي وامي غرثان من الجوع فانتشلني رجل من هذا الشقاء وهذا يدعى

ميشيل سانت كلير وأن جان رودريكوس يتزوج حفيدته فلما قرأت ذلك في الجريدة عزمت على منع هذا الزواج ولكن قد فات الاوان ولو تمكنت من انقاذ هذه الفتاة بغير هذه الوسيلة لما لجأت اليك .

وكان النهار قد انتصف فنهض القومسيير وقال لها هلمي معي فتبعته المنكودة وهي تضطرب حتى وصلا إلى الكنيسة وكان العروسان على اهبة الخروج منها فنظر القومسيير إلى جان وقال للفتاة أهذا هو ؟

قالت : نعم هذا هو .

تعارف هائل

لا بد لنا من الرجوع إلى ما حدث قبل بعض دقائق لقص ما سيحدث فان حفلة الاكليل كانت قد تمت ولم يبق غير توقيعات الشهود والاصدقاء على صك الزواج والتهاني . وقد كتب العروسان اسميهما وكتب والد العروس اسمه وبعد ما أتم توقيعه جاء بيير وهو يبتسم فاخذ القلم من يده وقال له :

– وأنا ايضاً يحق لي أن اوقع على الصك فان جان بمثابة ابني .

ثم اخذ القلم وكتب تحت الصك بحروف كبيرة عظيمة اسم بيير لاروش .

وقد اخذت كتابة اسمه سطراً بجملته كي يستلفت إلى اسمه

نظر موريس كولمباي غير أن موريس عد عمله هذا من قبيل الشذوذ ولم يذكر شيئاً .

ولما رأى بيير انه لم ينتبه الى اسمه دنا منه وقال له أقرأت اسمي افدهش موريس وقال : نعم .

ـ اذن لندع المحل لسوانا وتعال معي .

ـ ماذا تريد مني ! ..

ـ تعال فانك لا تكون من النادمين .

فسار معه موريس وهو منذهل حتى ابتعد معه عن الناس فقال له : قل ماذا تريد أن تقول لي .

– لا اريد شيئاً سوى أن اذكرك باسم ارى انك نسيته وهو الاسم الذي قرأته في الصك . – اذكره

– انه اسم بيير لاروش من سوفاجير الا تذكر سوفاجير ؟

– انها احدى مزارعي .

– هو ذاك الا تذكر ايضاً عائلة لاروش التي كانت تضمن هذه المزرعة – الملك من هذه العائلة ؟

– اذكر .. لاروش ابن دومينيك لاروش ضامن مزرعتك سنة ١٨٦٠ ... أن العهد بعيد .

– نعم فالى اين تريد أن تصل : قل فاني مشغول .

– دع الشغل الآن فان لك كثير من الاصدقاء لم يفرغوا من تهانيهم بعد وأنا عدوك اريد أن اهنئك ايضاً .

– عدوي !

– هو ذاك فان ذاكرتك ضعيفة كما يظهر يا ميسيو موريس

فلا بد لي من تذكيرك فاسمع .

– أن الحادثة جرت سنة ١٨٦٣ وذلك أن ابي كان ضامناً مزرعتك وقد ضمنها قبله ابوه وتعاقب على خدمتها اعضاء عائلتنا خمسين عاماً .

وكان حق ابي أن يقتني منها مالا لولا انهماكه في القمار ولكنه لم يهضم لك حقاً وقد أتفقت سنة عجز فيها عن سداد قيمة الضمان وذلك لا يذكر بالقياس إلى خدمة خمسين سنة غير انك لم تصبر عليه فحجزت كل مقتنياته وتركته شريداً لا مأوى له .

وكنت يومئذ في المدرسة فلما عدت في زمن الاجازات ورأيت ذلك الخراب اتيت إلى باريس على رجاء أن احنن قلبك على اهلي فتشفق عليهم وتمهلهم عاماً فأن تأخير سداد الضمان عاماً واحداً لا تؤثر على ثروتك العظيمة .

فقطب موريس حاجبيه وقال له : افرغت ؟

– كلا يا سيدي فانك في ذلك اليوم كنت تصغي الي بنفاذ صبر كما تصغي الآن وقد اقمت على بابك اربعة أيام حتى تمكنت من الوصول اليك فلما تشرفت بلقائك وعرضت عليك امري هزئت بي هزءاً لا يزال مطبوعاً على قلبي .

– وماذا تهمني هذه الحكايات ؟

– وقد توسلت اليك في ذلك اليوم توسل الفقير الملتمس ولا اذكر ما بدر مني فأمرت خدمك بطردي فطردوني طرد المجرمين .

ولكني قلت الك ساعتئذ : اننا سنلتقي يا موريس كولمباي وقد التقينا ووفيت بوعدي .. أنظر الي يا سيدي فقد كنت صغيراً فقيراً فهزأت بي وبوعدي أنت القوي القادر ولكن الصدفة اعانتني على تنفيذ هذا الوعيد .. لا تجزع فهي دقيقة تمضي واصغي إلى حديثي فانى تركتك يومئذ قانطاً وعدت إلى اهلي فاخبرتهم بما حدث فقتل الحزن امي ولم يلبث ابي أن تبعها إلى ظلمات الابدية وجعلت ارتزق من تعليم الاحداث في احدى القرى وهنا تبتدىء حكايتي معك فاني لقيت هناك امرأة عجوز عهد اليها بتربيه طفل تخلى عنه ابوه وهو يشبه الملائكة بجمال وجهه كما يشبه بفساد نفسه الشياطين .

أن هذا الغلام كان ابنك يا مسيو موريس وقد غرست فيه مبادىء الكبرياء والنفاق وحب الذات وقد اخبرتني العجوز بسر مولده حين وفاتها وعهدت الي بتربيته واعطتني ذلك المال الذي اعطيته لامه حين طردتها اقبح طرد .

– أن هذه الام ياسيدي كانت خليلتك روز برتون وهذا الغلام ولدك موريس – اسكت .

– ارأيت الآن كيف تصغي إلى حديثي ولا وتبالي بهذا الموكب الفخيم الذي يحف بابنتك .. اني اقسمت على أن انتقم لنفسي من احتقارك وكبريائك وفظاعتك وقد اعددت للانتقام طريقة لا تخطر على بال فانك طردتنا من المزرعة وبعنا حتى الفراش الذي ننام عليه فلم استطع أن انتقم منك بمثل قسوتك لان ملايينك كانت تدافع عنك فربيت ذلك الغلام المهجور

وغرست في طباعه كل بذور الفساد والشر حتى نمت تلك البذور وشب على ما اريد فبات محتاجاً إلى المال ودفعته هذه الحاجة إلى ارتكاب الجرائم .

وليس هذا كل شيء فاني لم اكن اعلم إذا كان لك قلب فأحببت أن ابحث في اعماق ذلك القلب لأمزق كل ما اجده فيه .

إلى أن جاء فتى غني بالظاهر فجاورك ورأى ابنتك وهو لا يحبها اذ يحب سواها ولكنه خدعها بظواهر أدبه وظرفه فأحبته حباً صادقاً حملها على أن ترضى به زوجاً واني اشفق على الاثنين معاً اما هي فلانها فتاة طاهرة نقية شريفة مما يدعو إلى الظن بانها ليست منك واما هو فلأني احبه على كثرة عيوبه حب الاباء للابناء وقد ربيته منذ الحداثه بحيث بات ابني اكثر مما هو ابنك .

انظر اليه يا سيدي تجد يده في يد ابنتك فان الاخ يتزوج الاخت ويصبغ بيت الاب بصباغ الخجل والعار .

فذعر موريس ذعراً عظيما وقال : خسئت فانك من الكاذبين

— كنت واثقاً بان قلبك الصخري لا بد أن يضطرب، والآن فقد فرغت من حديثي فان موريس ابنك وزوج ابنتك يجهل انك اباه ولكنه لا يلبث أن يعلم فقد عهدت إلى احد اصدقائك باخباره ولك أن تتفق واياه على ما تريدان . اما قولك أني كاذب فمثل هذه الامور لا يكذب فيها وقد بقي لي سر آخر اريد أن اطلعك عليه ولكن وقتك ثمين كما يظهر وأنت من

القضاة. فلبث موريس واقفاً وقد استند إلى الجدار وتبين الرعب في وجهه .

فقال له بيير بلهجة المتهكم :

— اضبط نفسك يا سيدي واملك رشادك فانك محتاج اليه لحماية ولدك . انك لن تراني بعد الآن ولكني ارجو أن تذكر في خلواتك اسم بيير لاروش فلا تنساه كما نسيته من قبل والآن استودعك الله .

ثم تركه وانصرف ولم يكن باقياً في الكنيسة غير اعضاء العائلة وقليل من الاصدقاء فمسح موريس العرق البارد الذي كان ينصب من جبينه وذهب إلى حيث كان العروسان فذعرت امرأته لاضطرابه وقالت له ، مـــاذا حدث واين كنت ؟

فتلعثم لسانه وقال لها . سأخبرك فيما بعد .

وكان العروسان قد خرجا من باب الكنيسة وفي ذلك الوقت كان الاميرال دي فيتراي قد اقبل وتأبط ذراع امرأته فخرج بها يتبع الموكب .

وكانت ماري متوكأة على ذراع جان ووجهها يشرق بنور البشر فقد بات الذي تحبه زوجاً لها امام الله والناس وقد شعرت فجأة أن يده تضطرب في يدها وذلك أن خادماً دنا منه وناوله ورقة كان مكتوباً فيها هذه الكلمات .

« انك ابيت أن تعمل بنصحي حتى خدعتك النساء فاحذر فمزق لفوره هـــذه الورقة وعلم انها من خط بيير لاروش ولكنه اضطرب وجعل يحدق بنظره إلى جهة خاصة فنظرت

زوجته إلى الجهة التي كان ينظر اليها ورأت فتاة لابسة ملابس السواد تدل رجلاً كان معها على الزوجين .

اما الرجل فانه كشف وشاحه فظهرت من تحته ملابس رجال البوليس .

وكان هذا الرجل القومسيير الذي جاء مع جانيت فاعترض الموكب ودنا من العروسين فنظر إلى جان وقال له :

— هل أنت من يدعونه جان رودريكوس ؟

فأظهر جان من الجرأة ما دل على انه تلميذ استاذه ونظر إلى القومسيير نظرة ملؤها العظمة والاستكبار فقال له :

— نعم انا هو فماذا تريد مني ؟

فاجتمع الناس حولهما ورأت الكونتس بلانش تلك الفتاة بملابس السواد فصاحت قائلة : انها هي .. جانيت .. ابنتي .

فبذل الاميرال جهداً عنيفاً حتى تمكن من تسكين اضطرابها وبلغ الرعب من موريس كولمباي مبلغاً عظيماً ولكنه بذل آخر مجهوده من التجلد ودنا من القومسيير فقال له : أن عملك هـذا فضيحة تعود تبعتها عليك .

— أني اعمل واجباتي .

ثم التفت إلى جنديين كانا وراءه وقال لهما مشيراً إلى جان : اقبضا على هذا الرجل .

فصاحت ماري قائلة : اتقبضون عليه وبماذا تتهمونه ؟

— ستعلمين ذلك يا سيدتي فيما بعد .

فنظرت إلى زوجها نظرة يأس وقالت له :

— اجب . قل لهم انك لست من المجرمين وانهم مخطئون .

وكان الجنديان قد تهيبا عظمة جان وجلال الموكب فلم يجسرا على تنفيذ الامر .

وذكر موريس كولمباي ما توعده بيير لاروش حين قال له

— « بقي لي سر سيخبرك به القضاء لانك متهم » .

فهلع قلبه وقال في نفسه ، ترى ما هذا السر الهائل وقد هاج الناس لهذه الحادثة وانتصر اكثرهم للزوج ولا سيما وقد رأوه غير مكترث للقومسيير لا ينظر الا لجانيت التي لم يكن يشغله سواها في تلك الساعة الرهيبة .

وقد خاف القومسيير أن يضطر إلى العنف لهياج الناس فأراد الاسراع وامر الجنديان أيضاً أن يقبضا عليه .

وعند ذلك صاح اقارب العروس صيحة دهش وقالوا : هو ذا فرنند كولمباي فمن اين اتى ؟ .

وذلك انهم رأوا فرنند ابن عم ماري الذي كان مسافراً قد اخترق جماهير الناس واسرع إلى القومسيير فهمس في اذنه ببضع كلمات واراه امراً مكتوباً بيده . ثم قال لعمه موريس كولمباي اسرع بالذهاب بابنتك إلى المنزل والتفت إلى جان فقال :

— تعال معنا ولا تحاول الفرار فان بفرارك هلاكك .

فهز جان كتفيه ولم يجب .

وبعد ربع ساعة كان جميع الموكب في منزل موريس كولمباي غير أن هذا الموكب زاد ثلاثة اشخاص وهم القومسيير وفرنند وجانيت التي جعل الحاضرين ينظرون اليها نظرات

الاندهاش فان ثورة هياجها كانت قد خمدت واطرقت اطراق الحزين وجعلت الدموع تتناثر من عينيها فتمر بخديها وتسقط نقطاً على الارض فقد رأت امها وهي شبه مغمى عليها بين ذراعي الاميرال .

اما الناس فقد تفرقوا معجبين لهذه الحادثة دون أن يعلموا شيئاً منها ، ورأوا قومسيير البوليس تداخل في الامر بصحبة فتاة حسناء ورأوه يخاطب الزوج ولكنهم لم يسمعوا ما قاله له وكان الجميع ايضاً يجهلون الحقيقة ما خلا والد العروس فقد عرف شيئاً منها وكان ما عرفه هائلا :

الموت أو الحياة

لقد فاز بيير لاروش إلى الآن فوزاً تاماً فقد ترك اهل منزل كولمباي قائمين قاعدين لهذه الحادثة فقد كانوا مضطربين اضطراباً لا تصفه الاقلام ولا سيما موريس وماري المنكودة فانها كانت تعجب كيف أن زوجها يسكت هذا السكوت ولا يدافع بكلمة عن نفسه .

اما الاميرال فانه حين وصولهم إلى المنزل نظر إلى ساعته ورأى أن الوقت الذي عينه بيير لفتح الغلاف قد حان ففضه وجعل يقرأ ما وجده فيه فكان كل ما قرأ سطراً يضطرب وتظهر على وجهه علائم الرعب الشديد .

وكان بيير قد اضاف إلى الكتابة التي كتبها إلى تلميذه سطرين للاميرال كتب فيها ما يلي :

« هذا هو سر هذه الحادثة فهو منحصر في كلمتين وهما اني اكره كولمباي فان صديقك هذا سحقنا سحقاً فماتت امي من الحزن ومات ابي من الشقاء وانا انتقم لهم »

فلما اتم الاميرال تلاوة هذه الاوراق اضطرب اضطراباً عظيماً وخاف أن يوصلها إلى جان كما تعهد ولكنه قال في نفسه لقد تعهدت واقسمت ولا بد من ايصالها اليه .

واما جان فان رسالة بيير اليه في الكنيسة اوقفته على جلية الامر وهو لو لم ترد اليه هذه الرسالة لكان منظر جانيت وحده كافياً لأن يعلم منه أن الوشاية كانت من خليلته ..

ولكنه لم يعلم كيف اتصل بها خبر زواجه وكيف خطر بباله أن استاذه قد خانه هذه الخيانة لاتمام مقاصده .

وفي كل حال قد اتضح له جلياً أن امره قد افتضح ولكنه كان قد تعلم الجرأة في مدرسة استاذه فلم يضطرب وعدل عن الدفاع في هذا المعترك فانه كان مستعداً للمخاطرة بكل امر ما خلا تلك التي القته إلى هذه الهاوية فانه لبث يهواها بالرغم عن هذه الخيانة لاعتقاده انه لو قرأ في عيني فرنند كولمباي لعلم أن هذا هو عدوه اللدود ولكنه عدو لا يريد الضرر به بل يريد وقاية ابنة عمه منه وانقاذها من مخالبه .

وكان فرنند قد خلا بالقومسيير وحمي بينهما الجدال فاغتنم جان هـذه الفرصة ودنا من جانيت وهي جالسة على كرسيها لا تعي فقال لها برفق :

— جانيت . فلم تجبه .

فقال لها بصوت منخفض : اني اعلم سبب اضطرابك ولكن الظواهر قد خدعتك لو تعلمين :

فقالت له : لا تكلمني فلا اريد أن اعلم شيئاً واجتهد أن تنقذ نفسك .

— انا احبك يا جانيت — اما انا فاني اكرهك !.

— اني سأوضح لك الحقيقة — لا اريد أن اعلم شيئاً ..

— سوف ترين أني لست مذنباً كما تتوهمين ولا سيما بازائك .

— بل انك سافل اثيم — لا تتسرعي بالقضاء علي .

— كذاب خائن — ارجوك أن تصغي إلي

— دعني فلا اريد أن اسمعك .

وكان فرنند قد انتهى من محادثة القومسيير فدنا من جانيت وقال لها .

— تمعني جيداً فان تهمتك يتعلق عليها موت أو حياة فهل لا تزالين مصرة على هذه التهمة ؟

فوضعت يدها على جبينها وأجابت وهي ضائعة الرشد .

— لا اعلم إذا كنت في يقظة ام انا حالمة وإذا كنت عاقلة ام فقدت الصواب فلا تسألني شيئاً ودع الاسئلة الى وقت آخر غير هذا .

ففتح فرنند باب الغرفة وقال لها : تفضلي بالدخول الى هذه الغرفة فاستريحي فيها وانتظري .

فامتثلت وهي لا تعلم ماذا تصنع فأقفل الباب وعاد الى جان فقال له بصوت منخفض : تنبه فاني اريد انقاذك .

فهز جان كتفيه اشارة الى عدم الاكتراث وعاد فرنند الى محادثته فقال له :

— انك متهم بتهمة هائلة فاجتهد أن تبرىء نفسك ثم ارجوك أن تجيبني على بعض الاسئلة .

— أنت تريد أن تسألني .

— نعم — بأي حق ؟

— بحق رجل يستطيع اهلاكك حين يريد فاني قادم من اميركا .

— لقد خطر لي ذلك فان كرهك اياي عظيم يدفعك الى الاقدام على اكثر من هذا .

— انك منخدع — بماذا .

— بقولك أن كرهي اياك دفعني الى الجهد في كشف امرك

— اذن ما الذي دفعك ؟

— حبي لابنة عمي مبنياً على الاخلاص والاحترام ولا اكتمك أن عزمك على الزواج بها قد أثار بي المخاوف فما استطعت التقلب على عمي وعلى من يحيط به من الذين خدعتهم باقوالك المنمقة .

— اذن كنت تعتقد ان المعلومات التي نالها عمك عني كانت غير كافية فتوليت الاستعلام بنفسك ؟

— هو ذاك وقد سافرت الى نيويورك ومنها الى نيواورليان فاصفر وجه جان ولكنه اخفى اضطرابه بسرعة وقال له

— لا بد أن يكون المسيو كولباي ممتناً لك .

– لا ارجو امتنان احد مني فيما فعلت غير ما يقضي علي به الواجب .

– أتسمح لي أن اسألك ماذا فعلت في اورليان الجديدة .

– دون شك حين أخلو بك بعد أن يسألك القومسيير ما يريد أن يسألك اياه .

وكان القومسيير قد حضر هذه الحادثة وهو معجب لما يسمع وقد نظر فرنند الى جان نظرة مفادها .

« دافع عن نفسك في التهمة التي اتهمت بها ولا تهتم بالمسألة الاميركية فسنبحث عنها فيما بعد فانقذ نفسك »

فالتفت عند ذلك جان الى القومسيير وقال له بأدب :

– لقد جاء دورك الآن يا سيدي فما هي التهمة التي تتهمني بها وماذا عولت أن تصنع بي ؟

– انك متهم بالسرقة والقتل وسأصنع واجباتي .

– ما هي واجباتك .

– أن امرأة قد اتهمتك وسأقبض عليك وعليها .

– اذن انك تعتقد اني من المجرمين .

– لا دخل لمعتقدي ولكن التهمة جلية

– اتتهمني وتدنس سمعتي في عيون الناس وتنغص علي يوم عرسي وكل ذلك لأنه خطر لامرأة غيري أن تخلق جرائم تتهمني بها .

– العل ذلك ذنبي .

– احذر فانك لا تنهج مناهج الحكمة والآن فاني اريد النهاية

– كيف ذلك ؟

– ذلك اني اريد جلاء هذه الحقيقة في القريب العاجل وأنت تريد القبض علي فافعل فاني اتبعك .

– الا تقاوم ؟ – كلا :

– ولا تحاول الفرار ؟

– على الاطلاق فاني احترم القانون ولكني سأسأله انصافي ولك الآن أن تذهب الى منزلي فتبحث فيه على اثر هذه التهمة الوهمية فاذا كنت لصاً فلا بد من ظهور ذلك .

– هل زارك روزن – نعم

– لماذا البيبمك بجوهراته ؟ – هذه مهنته .

– الملك اشتريت شئياً منه – كلا

– ومع ذلك فقد كان لك خليلة ؟ – هذا ممكن

– الم تهدها شيئاً من الحلى ؟ – كلا .

– كيف يكون ذلك وأنت غني .

– هذا الذي حدث .

– مهما يكن من الامر فأن هذه الخليلة تتهمك

فابتسم وقال : اتتهمني انا ؟

– نعم – بأي ذنب .

– بأنك قتلت روزن أو دفعت احدى اتباعك الى قتله .

– لماذا ؟ – لسرقة جوهراته

– أن الغيرة دفعت هذه المرأة الى اختلاق هذه التهمة الشائنة .

– ذلك ما سنبحث فيه وهي تقول أن لك شركاء .
– اين هم ؟
– لقد غادروا منزلك بعد ارتكاب الجريمة .
– ابحثوا عنهم .
– ذلك شأن القضاة الذين سيتولون التحقيق .

ولم يكن هذا القومسيير من الذين تمكن خديعتهم غير أن ظواهر هذا الفتى واتصاله بالمستشار وبسانت كلير ، وهما من اشهر رجال باريس ، كل ذلك دفعه إلى التردد في تصديق التهمة المنسوبة اليه .

اما جان فأردف قائلاً : اسمح لي يا سيدي أن اقول لك باني لا اشبه اللصوص في شيء فان لي قصراً في باريس وآخر في الشانز ليزيه ولي ثروة قدرها ثلاثة ملايين في المصارف فكيف تريد أن اتدانى إلى سرقة بائع مجوهرات على اني سادافع امام المحاكم بما ينبغي .

فقام القومسيير إلى الغرفة التي كانت فيها جانيت ففتحها وناداها

في العائلة

دخل موريس كولمباي إلى غرفته فحبس نفسه فيها وهو يرى الدنيا ضيقة في عينيه ليأسه فقد تمثلت له تلك الحوادث القديمة وذكر بيير لاروش وكل كلمة دارت بينهما حين طرده منذ خمسة وعشرين عاماً كأنما تلك الحادثة قد جرت امس وقد ندم

الندم الشديد وعلم انه كان ظالماً بطرد خليلته وبالقضاء على عائلة لاروش ولكن ماذا ينفع الندم وقد بلغ بيير بانتقامه ما اراد وزفت الاخت إلى اخيها . وفيما هو على ذلك يفكر فيما يفعل ولا يهتدي دخلت اليه زوجته متيلد وابوها الشيخ سانت كلير فلما رأى موريس امرأته عادت اليه سكينته قال لها :

– اين ماري ؟
– إنها مريضة في غرفتها وقد استدعيت لها الطبيب
– من يقيم عندها
– برتا خادمة غرفتها .

فقال له سانت كلير : ابسط لنا الأمر بجلاء يا موريس اذ لا بد ان تكون عارفاً بما حدث ..

– نعم نعم وهي أمور هائلة
– ابسط لنا
– لا استطيع شرحها
– لماذا ؟
– خير لكما أن لا تسألاني
– هل الأمر هائل إلى هذا الحد ؟
– انه فوق ما تتصور

فسقطت امرأته على كرسي واهية القوى وعاد سانت كلير إلى الالحاح فقال :

– لكل داء دواء ولكن الداء لا يعالج إلا بعد تشخيصه
– ولكن هذا الداء لا داء له .
– انك واهم ومع ذلك فان من حقنا أن نعلم وإذا لم نعلم الآن علمنا فيما بعد .

– لقد أصبت فاعلم اذن اننا سقطنا إلى اعماق هاوية الخبل

– بسبب رودريكوس – نعم

– من هو هذا الرجل ؟

– لا أجسر على اخبارك

– وهذه الفتاة بماذا اتهمته ؟

– لا اعلم – اتعرفها – كلا

– أنا أعرفها فأين هي الآن ؟

– لقد رأيت فرننند ادخلها إلى غرفة البليياردو

– هل استطيع ان اكلمها

فأجابه بلهجة المتهكم الغضوب قائلا :

– سل ابن اخي فقد بات الحاكم المطلق في منزلي وهو يمثل القضاء فيه .

– لو عرفت من اخلاق ابن اخيك ما عرفناه لاحببته كما احببناه ولما وصلنا إلى هذا الموقف .

– ربما ولكننا الآن في موقف لا يفيد فيه التأنيب

– مهما كانت المصيبة عظيمة فلا أرى بأساً من الاعتراف بها الي الا اذا كنت غير واثق مني .

وقالت له امرأته : انك لم تكن في كل مـــدة زواجنا راضياً يا موريس وقد تألمت منك اكثر من مرة ، ولكني كنت احتمل بالسر ، ولبثنا متحدين وعسى أن يكون اتحادنا هذه المرة مفيداً لنا في التغلب على هذه النكبة الجديدة التي لا اعلمها فاعترف فقد تكون اخطأت خطأ يعزيك عنه

هـذا الاعتراف .

ـ انه اعتراف يتعبك جداً يا متيلد

ـ لا ابالي بعناء بعدما لقيته من شقاء ابنتي .

فاعتمد موريس على هذا الكلام ونظر الى الشيخ فقال له :

ـ هل كان لك اعداء في ما مضى من حياتك !

ـ كلا فقد كنت اجتنب ان يكون لي عدو كل الاجتناب

ـ اما انا فقد كان لي عدو ولكنه كان صغيراً حقيراً وهو ابن مزارع عندي كنت حجزت مقتنياته من عهد بعيد وهو خطأ لم يتبين لي الا اليوم ، فإن عائلة هـذا المزارع خدمت عائلتنا خمسين عاماً ، فقضيت عليها بالخراب التام فماتت الام بعد هذا الخراب ومات الاب في اثرها وبقي الابن وكان شاباً فجاءني متوسلا مستعطفاً ولكني طردته فخرج حانقاً مغضباً متوعداً وكان ذلك منذ خمسة وعشرين عاماً .

– اتحجز مقتنيات مزارع قديم عندك . أن قلبك كان دون شفقة فامض في حديثك .

– أن هذا الفتى اصبح رجلا شديداً ووفى بوعده .

– ألعله انتقم ؟ -- افظع انتقام – اين هو ؟

– لا اعلم الآن اين هو ولكنه كان منذ ساعة في الكنيسة وقد كتب اسمه في ذيل صك الزواج بملء العظمة والكبرياء .

– اهو استاذ رودريكوس – هو بعينه .

– لقد كنت اتبين الذكاء في عينيه .

– بل هو نابغة الشر كما سترى فاني هفوت هفوة في ايام

(٢٠)

صباي لا يزال ضميري يؤنبني عليها وذلك اني كنت متخذاً
خليلة قبل زواجي فلما أوشكت أن تصير اماً اعطيتها شيئاً من
المال وسرحتها .

— أتريد أن تقول طردتها — هو ذاك .

— ماذا كان شأن هذه الفتاة .

— كانت فتاة طاهرة نقية احبتني اصدق حب بعد أن
اغويتها واخرجتها من المنزل التي كانت فيه .

فقالت امرأته وقد انفت لما سمعت ، أيكون لك فتاة تحبك
وتهبك نفسها ثم تطردها حين تصير اماً إن ذلك فظيع .

— لا انكر فظاعتي في تلك الحادثة التي لا يزال تذكارها
يؤلمني إلى الآن .

فقال سانت كلير : وماذا حدث بعد ذلك .

علمت من كتاب ارسلته الي انها ولدت غلاماً دعته باسمي
أي جان موريس فما اجبتها على كتابها وبعد خمسة أعوام
اردت أن اعلم ما جرى فذهبت الى القرية التي كانت فيها وهناك
علمت انها انتحرت من يأسها ولم يستطع أحد أن ينبئني بما جرى
للغلام إلى أن جاءني اليوم هذه الرجل الجهنمي فانبأني باخباره .

— هو هذا الاستاذ .

— أهو بعينه فانه لقي اتفاقاً المرأة العجوز التي عهد اليها
بتربية الغلام وعند موتها عهدت اليه به .

فوضع سانت كلير رأسه بين يديه كأنه خاف أن يفهم
ومضى موريس في حديثه فقال : أن هذا الشقي بدأ منذ ذلك

العهد بوضع الخطة التي كان يريد تنفيذها فربى الغلام على
مبادىء الشر والفساد وغرس في نفسه كل مبادئه فاهلكه
واهلكنا واياه .

— اذن أن رودريكوس ... — أنه هو

فصاحت امرأته قائلة : أهو ولدك .

اما سانت كلير فانه اطرق هنيهة مفكراً ثم سأله قائلا :
هل أنت واثق مما تقول — كل الثقة

— وهو هل يعرف انك ابوه .

— كلا ولكن بيير لاورش : أي الاستاذ الجهنمي ، سيخبره

— ولكنه ابنك فمن اين جاءه اسم رودريكوس .

— لقد اغتصبه وثروته اختلسها .

— انه ابنك في كل حال ولا بد لك من انقاذه ولو ارتكبت
جميع جرائم الارض — كيف انقذه .

— أما هي تلك الفتاة التي اتهمته .

— نعم — باية جريمة .

— لا اجسر أن افتكر .

— اتظن انها لا تزال في غرفة البلياردو .

— نعم فاني لم ارها خرجت منها .

— كيف السبيل إلى أن اراها دون أن يراني القومسير .

— أن لهذه الغرفة بابين فادخل اليها من الباب المتصل
بدائرة المطبخ .

— اذن انتظرني هنا ولا تذهب قبل أن اعود .

وقد ذهب سانت كلير وكانت جانيت لا تزال وحدها في الغرفة فلما رأته احمر وجهها وقالت له : أهذا أنت .

– نعم انا هو الذي كان لا يفتأ يفتكر بك ولكن المجال ضيق فلنتحدث بسرعة – وماذا تريد مني .

– خدمة جليلة – ابوسعي قضاؤها .

– نعم – اذن مر امتثل .

– أن ما اكله اليك منوط بشرف عائلة وبهناء فتاة احبها فوق ما احب نفسي وهي حفيدتي ماري فماذا تتهمين جان رودريكوس .

– لقد اجريت شوطاً بعيداً في شكواه .

– ولكن اخبريني بحقيقة الامر فهل كنت متصلة به ؟

فاحمر وجهها خجلا وقالت أنه عشيقي وقد سلمت نفسي له بعد أن لقيتك ببضعة ايام .

– كنت تعرفينه من قبل ؟

– نعم حين كنت في شربورغ فقد كان يدعي جان موريس

– ألم يكن له غير هذا الاسم .

– كلا فقد كان مثلي لا يعرف اباه .

– اذن لقد كان فقيراً – نعم

– اين وجدته ؟

– انه لقيني بعدخروجي من قهوة الفردوس وكان اللصوص .

يحاولون سلبي فانقذني منهم وكنت في اشد حالات الشقاء كما تعلم ففي اليوم التالي ذهبت إلى منزلك فقيل لي انك خرجت منه فذهبت إلى منزله في شارع باسانو وهناك اقنعني انه يحبني اصدق حب وانه سيتزوجني وكان يجب أن اقاوم ولكني لم استطع الدفاع فغلبني .

– ربما كنت تحبينه – هو ذاك .

– اذن اخبريني يا ابنتي بكل امره وبكل ما تتهمينه به

فاخبرته بكل ما عرفه القراء من امره حتى اذا فرغت من حديثها سألها العجوز قائلا : هل اخبرت القومسيير بكل هذا

– نعم .

يا للشقاء فقد قضيت عليه القضاء المبرم – واأسفاه

– وقد وصمنا بوصمة عار لا تمحي – انتم

– نعم فان لمولده سراً خفياً كمولدك لا استطيع الاباحة به فهل تعملين بنصحي ؟

.. هذا لا ريب فيه فاني مدينة لك بجميل لا انساه

– انى اريد انقاذ جان حذراً من افتضاحنا – نعم

– أن القومسيير سيسألـــك ايضاً نفس الاسئلة التي سألك اياها .

– ماذا يجب ان اقول ؟

فعلمها سانت كلير ما يجب ان تقوله بسرعة حتى اذا اتم القاء تعاليمه قال لها : أفهمتِ ؟ قالت : نعم

– اتعملين بما اوصيتك – دون شك

وعند ذلك سمع صرير المفتاح في القفل فاسرع الى الاختفاء ودخل القومسيير وفرنند الى الغرفة فقال لها القومسيير : ارجو ان تكوني قد تمعنت في هذا الأمر الدقيق .

قالت : نعم يا سيدي

قال : اذن فاعلمي انك قد اتهمت هذا الرجل تهمة عظيمة تقضي عليه بالهلاك اذا ثبتت غير انه يدفع هذه التهمة بقوله ان الغيرة قد حملتك على اختلاقها لانها أضلت صوابك ، فاذا كنت لا تزالين مصرة عليها كان من واجبي ان اقبض عليه في الحال ؛ وفي ذلك شين عظيم لعائلة يحترمها جميع الناس وانما أقول لك هذه الأقوال كي تعلمي حرج الموقف فلا تقولين غير الحقيقة .

فاطرقت برأسها كأنما ضميرها يؤنبها وسألها فرنند قائلا:

– ألا تزالين مصرة على شكواه   – كلا

وقد ذرفت الدموع من عينيها فقال لها القومسيير :

– اذن تعترفين انك كنت كاذبة ؟

فأجابته بصوت خافت قائلة : نعم .

– اهي الغيرة التي دفعتك إلى هذا الاختلاق   – نعم

فعض شفتيه ولم يعلم السبب في هذا الانقلاب ولكنه قال في نفسه : اما أن تكون كاذبة أو هي مجنونة .

وقد يرجح جنونها إذا ذكر ما كانت عليه من الهياج حين لقيته اول مرة ولكنه كان لا يزال مشككاً في الامر .

وفي كل حال فقد سر من هذه النتيجة اذ لم يكن من

مصلحته أن يعادي مثل موريس كولمباي فالتفت إلى فرنند وقال له :

لم يبق علي يا سيدي غير التنحي وقد سررت لهذا الانقلاب الذي ساعدني على اجتناب احداث امور مزعجة في منزل احترم اصحابه كل الاحترام .

ثم قال بصوت منخفض ، ولكن الشك لا يزال يخامرني ولديك بضع ساعات فاغتنم هذه الفرصة وأعمل ما يوحيه اليك ذكاؤك فاني قد اضطر بعد هذه المهلة إلى العمل .

فشكره فرنند بالنظر وقد فهم قصده والتفت القومسيير إلى جانيت فقال لها :

– اننا قد نحتاج اليك في التحقيق فهل تعدينني انك لا تبرحين باريس .

– نعم .

– اني اعرف اسمك وعنوانك فانت تقيمين في فوكرسور اليس كذلك   – نعم .

وعند ذلك دخل رجل ومشى تواً إلى القومسيير فقال له : انا اضمن هذه الفتاة اترضى بضمانتي ؟

فانحنى القومسيير امامه بملء الاحترام وقال له : كيف لا ارضى يا سيدي ضمانة الاميرال دي فيتراي .

– اشكرك فاذا احتجتم إلى هذه الفتاة فيما بعد فاطلبوها مني .

– لماذا   – لانها ابنتي .

— ابنتك أنت يا سيد الاميرال !

— نعم لقد اختطفت مني في حادثة لا متسع لذكرها إلى ان لقيتها فهي لا تفارقني بعد الان .

ثم اخذ بيد جانيت وقال لها تعالي يا ابنتي ولا تخشي امراً فان بيرين بوديت قد ماتت وهي تحدثني عنك وعن ابنتها تعالي وقد خرج من تلك الغرفة وخرج القومسير في اثرهما وبقي جان رودريكوس وفرننند فقال له جان :

— هل رويت ظمأ حقدك يا سيدي .

— كلا لم اروه بعد . — ماذا تريد ايضاً ؟

— سأخبرك بنتائج سفري إلى نيو اورليان فاعلم اني ذهبت اليها وعلمت هناك أن عائلة رودريكوس كبيرة ولكنها منقسمة إلى اربعة فروع اما الفرع الذي كان منه جان رودريكوس فقد انقرض .

— تريد انه سينقرض بعد موتي الذي لم يتقرر بعد !

— لقد كنت مصيباً لو كنت من هذه العائلة وقد كان يوجد في الحقيقة رجل يدعى جان رودريكوس وله عمرك ولكنه اختفى فقد سافر إلى أوروبا يحمل معه كل ثروته اذ عول على الاستيطان فيها وكان ذلك منذ اربعة أعوام ولكن اخباره قد انقطعت وقد سألوا عنه في لندرا فوردت اخبار لا شك انها مزورة . — ذلك ما تقوله على سبيل الظنون ؟

— بل على سبيل اليقين وهذه هي صورة جان رودريكوس الحقيقي فانظر فان الشبه بعيد بينكما كما ترى .

ثم اخرج من جيبه الصورة الاصلية فنظر اليها جان نظرة سريعة وقال : يمكن أن يكونوا خدعوك .

— كلا فقد اخذت هذه الصورة من اهله وهم يشهدون عند الاقتضاء .

— ماذا تريد أن تعني من كل ذلك ؟

— اعني انك لست جان رودريكوس وانك اختلست هذا الاسم وأن حقدي قد افادك الان بانقاذك من القومسير ولولاي لكنت الآن في السجن وإذا كنت اردت انقاذك فلاني اردت تسهيل فرارك وليس ذلك لاعتقادي ببراءتك فانه إذا كان سواي يشكك بجرائمك فاني منها على اليقين .

— ما هي براهينك ؟

— أن براهيني في جيبي وكلها تقضي عليك ولكن اتفق لحسن حظك اني مخلص لابنة عمي ماري فاردت أن انقذها من ذلك العار واليأس حين يعلم الناس أن التي احبته حكم عليه بالاعدام ولقد تأخرت يوماً واحداً ولولا هذا التأخير لما عقد هذا الزواج .

— وماذا تريد الآن .

— اريد أن اقترح عليك اقتراح .

— ما هو ؟

— هو اني اساعدك جهد امكاني واعينك على الفرار بشرط أن تعطيني الضمانة اللازمة .

— ما هي الضمانة !

– اجلس عند هذه المكتبة واكتب ما امليه عليك .

– وإذا ابيت !

– اعود إلى فندق كائن بين مدينتي جاكسون وتنج في اسبانيا وصاحب هذا الفندق يدعى باولو مورينا وقد ارشدني إلى الحفرة التي دفن فيها جان رودريكوس في طريق قرية وضع اهلها صليباً فوق الحفرة وكتبوا فوقه حكاية مقتل هذا الرجل

– ولكنه قتل بمبارزة !

– بل قتل غدراً ثم سلب وعندي البراهين .

فتمعن جان في حرج موقفه وافتكر بجانيت ورأى انه يعرض عليه الفرار ، أي النجاة والحرية ، بحيث يستطيع أن يرى جانيت بعد ذلك فقبل باقتراح فرنند وقال له امل علي ما تشاء .

فاملى عليه فرنند ما يأتي :

« انا جان موريس الموقع على هذا الصك اعترف باني اختلست اسم جان رودريكوس اختلاسا وأن صاحب هذا الاسم اميركي مات في البلاد الاسبانية حين قدومه إلى باريس في فندق رجل يدعى باولو مورينا على اثر حوادث لا سبيل إلى ذكرها »

« وبالتالي فاني اعترف أن زواجي الذي عقد اليوم زواج ملغى واني ارجع عنه لانه عقد باسم رودريكوس وانا ادعى جان موريس »

ثم قال له : ضع اسمك الآن .

فتردد جان عن التوقيع وحاول أن يمزق الورقة فاوقفه فرنند باشارة واخرج امراً مكتوباً من جيبه وقال له :

اقرأ فهذا الامر يقضي بالقبض عليك اينما وجدت .

فعض جان على شفته حتى كاد يدميها وقال له :

– اية ضمانة لي مقابل هذا الصك الذي امليته علي .

– حريتك في مدة اربع وعشرين ساعة فاذا كنت عاقلا بلغت الهافر في هذه الليلة وسافرت منها إلى حيث تشاء .

فتنهد جان تنهداً طويلا ثم اخذ القلم وكتب في ذيل الصك اسمه الحقيقي .

فقال له فرنند : انك ارتكبت جريمة افظع من هذا الاختلاس والآن فاعلم أن زواجك قد بات في حكم الملغى فارجع عنه من تلقاء نفسك ذلك خير لك لو تعلم .

وبعد أن اخذ فرنند الصك ووضعه في جيبه قال له :

– أني سأفي بتعهدي فلا اذيع شيئاً من امرك ولم يبق عليك الا أن تسرع بالسفر .

وكان جان قد سمع الاميرال يقول لجانيت ، أن ارملة بوديت قد ماتت فقال في نفسه : انها لا بد أن تسهر عليها هذه الليلة وساراها وهي ستأذن لي أن اراها لأنها تحبني دون شك والا فما حملها على الرجوع عن وشايتها غير الحب ؟

ولا ابالي بالقضاء ولا بالحكم فاني اعرف أن ادافع عن نفسي فما مرجع امري الا اليها . وعند ما انتهى من مناجاة نفسه نظر إلى ما حواليه فوجد نفسه وحيداً فذهب إلى تلك

الغرفة التي كانت فيها جانيت على رجاء أن يجدها هناك ولكنه حين وصل إلى الباب اعترضه رجل فقال له :

— اني كنت انتظر أن يخلو بك المكان لاحدثك في شأن خطير .

وكان هذا الرجل الاميرال فيتراي .

كان الاميرال دي فيتراي من المدققين في امور الشرف ولكنه على تدقيقه لم يسمه الا الاشفاق على هذا المجرم الكبير إذ تمثل له انه ربي من غير أهل يعتنون بتربيته ودون مرشد يقوم اوده ويهديه سواء السبيل فاندفع في مجال الغي والضلال بذنب اهمال ابيه فكان مجرماً وهو ليس من المجرمين .

فعندما لقيه قال له : لدي يا سيدي مهمة صعبة لا بد لي من قضائها إذا تعهدت بها فانك تجهل اسم ابيك اليس كذلك ؟

— اهذا الذي تريد اخباري به ؟ — ربما

— خير لك ألا تخبرني — لماذا ؟

— لأن اسمه جورج جوارحي .

— العلك تكرهه ؟ — كره الموت .

فلم يجبه الاميرال على ذلك فانه منذ ذلك الحين الذي اطلع فيه على تلك الاوراق التي اعطاه اياها بيير لاروش وعرف حكاية جان موريس وقرأ رسائل امه المؤثرة إلى ابيه انكر فظاعة ذلك الاب فلم يعجب لمجاهرته ببغضه وقال له بعد سكوت قصير .

— هذه هي الاوراق التي عهد الي أن اطلعك عليها .

— من الذي اعطاك اياها ؟

— لقد وعدت أن اكتم اسمه وأن هذه الاوراق تنبئك باسم ابيك وفيها صك ولادتك ورسائل امك .

— اشكرك يا سيدي .

— وقد انتهت مهمتي من هذه الوجهة وبقي لدي مهمة اخرى تعهدت بقضائها ايضاً فاقرأ الآن هذه الاوراق .

فاخذ جان الاوراق وجعل يقرأها مسرعاً إلى أن انتهى إلى تلك الرسالة التي طالما قرأها بيير لاروش وهي رسالة الام إلى ولدها يوم انتحارها فظهرت عليه علائم التأثر الشديد وانهالت الدموع من عينيه .

وكان يعلم أن امه ماتت منتحرة وأن اباه طردها اقبح طرد ولذلك تولد كره ذلك الاب الذي لم يكن يود أن يعرفه وهو الان سيعرفه فمن عساه يكون ؟!

وقد مضى في قراءة تلك الرسالة حتى انتهى إلى موضع منها وصاح صيحة منكرة وقال : هو ... رباه اذلك ممكن !

ولكن امه التي كانت تكتب اليه فكيف يشكك باقوال امه وقد عرف الان أن هذا العشيق الذي اساء إلى امه واهانها ودعاها إلى الانتحار انما كان موريس كولباي . وقد كتبت اليه امه في آخر هذه الرسالة ما يأتي :

— انك متى كبرت وصرت تمر بالشانزليزه بين تلك المناظر الفخيمة تجد أباك هناك دون شك .

على اني لا اريد أن تجهل اسمه ولكني التمس منك يا ولدي

الحبيب أن تغفر له كما غفرت انا من قبلك .

فاجتهد أن تكون من افاضل الرجال ولا تسر الا في طريق الحق ولا تعش الا من كسب يدك فانه مهما كان قليلا يكفيك لاجتياز هذه الطريق الكئيبة التي يدعونها الحياة .. وإذا رأيت هذه الحياة ثقيلة عليك فتعال الي فاني انتظرك .

ولما اتم جان تلاوة هذه الرسالة قال يخاطب امه .

— انك امرأة ضعيفة يا اماه لا تستطيعين الانتقام ولكني سأنتقم لك ولا اصفح صفحك . وعند ذلك رأى الاميرال وكان قد نسيه فقال : العل كولباي من اصدقائك يا سيدي ؟

— نعم

— الحق انه كان يجب أن تمزق هذه الاوراق وتلقيها في النار ثم تذر رمادها في الهواء .

— ولكني تعهدت بايصالها اليك .

— الملك قرأتها — نعم

— لا شك أن بيير لاروش اعطاك اياه .

فلم يجب الاميرال ومضى جان في حديثه فقال :

— أن بيير لارش كان يكره موريس كولباي كرهاً عجيباً وهو لم يقل لي كلمة عن هذا الكره ولكني الان ذكرت ما كنت اراه من تهكمه حين يذكر امامه هذا الاسم فقد انكشف لي سر الماضي وأن لموريس كولباي كثيراً من الاعداء ولكنه لن يجد الدمن عدائي ولقد كنت عازماً على الفرار ومبارحة فرنسا اما الآن فقد رجعت عن هذا العزم لاني اريد

أن ادنسه واوصمه بوصمة عار لا تمحى فقد قتل امي يأساً وهي تحبه اصدق حب .

حتى انها اوصتني به خيراً ساعة انتحارها وأمرتني انا الشقي اللص اللقيط أن اعفو عنه .

نعم ايها الاميرال اني لا اكتم امرى فاني اريد أن يحاكوني ويحكم علي بالاعدام واشنق امام هذا القصر واصيح بلء صوتي مخاطباً هـذا الاب العاتي فاقول : انظر ايها الشقي مـا صنعت بابنك .

نعم لقد وضح النور لعيني الان وعلمت مراد بيير لاروش من تربيتي .

فقد اراد الانتقام من ابي ولا بد أن يكون حقده عليه عظيما حتى انه ضحاني في سبيل انتقامه وانا رفيقه وتلميذه وشريكه بل اني بمثابة ولده .

وأني غير حاقد عليه اذ يظهر أن الانتقام اعظم ملذات النفس وأي انتقام اشد من أن يزوج ابن عدوه بأبنته فيقترن الاخ باخته والآن فلنعد اليك ايها الاميرال فقد قلت أن لديك مهمة اخرى

قال هو ذاك — ما هي .

— أن اساعدك وأن انقذك إذا كان ذلك بامكاني .

— ارأيت أن بيير لاروش نفسه هو الذي عهد اليك بايصال هذه الاوراق الي فان هذا المسكين قد اضطر إلى تضحيتي في سبيل انتقامه ولكنه سعى إلى انقاذي فلجأ اليك ؟

— وانا مستعد إلى مساعدتك في كل ما تريده وخزائني رهن امرك .

اشكرك ايها الاميرال — اتقبل ؟

— اية فائدة من ذلك ؟

— انك تذهب إلى انكلترا أو إلى اميركا وإذا احتجت إلى مائة او مائتي الف فرنك اعطيتك اياها .

— اليس لي اب وهو من كرام الاغنياء وفوق ذلك فانت تعلم اني غني ايضاً

— ولكن اموالك كسبت من مصادر غير مشروعة ؟

— بل كسبت بسفك الدماء .

— اذن كيف تستطيع الانفاق من هذه الاموال دون أن يقرعك ضميرك فتكون حياتك حياة عذاب ؟

— بل انفق منها كما ينفق كثيرون سواي فان معارك الحياة تشبه معارك الحروب والسعيد فيها من يكون من الفائزين وقد فزت وهل تحسب اني انا المجرم الحقيقي ؟ كلا فقد نشأت يتيما لقيطاً شريداً فكان مثلي مثل السفينة التي تكون في البحر العجاج دون دفة ودون شراع فتتقاذفها اللجج إلى حيث تشاء العواصف وانما استخدمت هذا التعبير لأنك من رجال البحار فماذا تريد أن اكون وكيف تريد أن اكون وكيف تريد أن انشأ لا سيا وقد رباني هذا الرجل الغني الذي كان بوسعه أن يستخدم امواله للخير ولكنه لم يستخدمها الا في سبيل الاساءة إلى الناس فنشأت كما يريد واصبحت من اهل الجرائم .

انه اراد الانتقام فاحسن عملا اذ انتقم لنفسه ولأمي المنكودة اما جرائمي فقد بت افتخر بها الان لازيد في عار ابي وسأرويها لجميع الناس .

نعم اني لص بل أن جرائمي فوق ما تظن فان ابنة ابي فتاة طاهرة شريفة كأمها ولكني خدعتها وتظاهرت بحبها دون أن احبها فاني احب سواها وهي فتاة يجب أن تعبد لا أن تحب فاطمئن يا سيدي فما هي شريكتي وقد كتمت عنها ماضي حياتي لأني احب أن تحترمني اما ماري فاني لم اكن اطمع بها لأني لم اكن احبها بل كنت اطمع بمهرها وهو ثلاثة ملايين ، واهرب به بعد اقناع جانيت التي احبها على الذهاب معي دون أن تعلم مصدره .

هذه هي خطتي اما خطة بيير لاروش فقد كانت مزدوجة اذ كان يريد أن يطعن عدوه بثروته ويقلبه فيسلبه ماله ويشقيه بشقاء ابنته غير أن الصدفة قد اتت بغير ما يريد أو أن له مأرباً آخر بما فعل فانه اوقف خليلتي على حقيقة حالي فضل صوابها ووشت بي في ساعة يأس بحيث لم يبق لي غير الانتحار أو الفرار

— ولكن إذا قبضوا عليك ؟

— اكون من الشاكرين اذ يتم انتقامي بافتضاح امر ابي على اني استطيع الدفاع عن نفسي اذ لا يوجد براهين تثبت جرائمي ولم يكن غرض جانيت من اتهامي الا منع زواجي وقد منعته وتم قصدها فلا تتعرض بعد ذلك لشكواي .

— اذن أنت لا تخاف شيئاً .

— دون شك فانهم يستطيعون اتهامي ولكنهم لا يستطيعون الحكم علي وستكون الفضيحة عظيمة ولكنها لا ترهبني فان تبعتها ستسقط على رأس سواي .

— ولكن امك قدنصحتك نصيحة يجب أن تعدها بمثابة امر

— ما هي — هي أن تصفح .

فبرقت عيناه ببارق من الحقد وقال : معاذ الله أن اعفو وقد اورثت هذا البيت الخجل والعار وما انا بنادم بل اني لا اقف عند هذا الحد .

وفي كل حال فاني اشكرك ايها الاميرال لما تبرعت به علي ولكني لا احتاج اليه فلي من المال ومن الحقد ما يكفيني لاتمام قصدي فاذا لم انجح به بقي لي وسيلة اخرى .

— ولكنك مهما كنت مجرماً يا بني فانك لا تزال في مقتبل الشباب فاذا نهجت النهج القويم فلا تمر بك بضعة اعوام حتى تنسى ماضيك ولا تذكره الا كما تذكر الاحلام .

وفوق ذلك فانك ستندم إذا لم تتبع نصح امك وهي من اهل الرشاد كما علمت من رسائلها فثق بما اقول لك يا بني فان الانتقام لا يورث غير الندم وقد ندمت قبلك .

— أنت ؟

— نعم فقد انتقمت منذ عشرين عاماً ولا ازال معذباً من ذلك العهد فكأني قد انتقمت من نفسي .

وقد حاول جان أن يجيبه ولكنه شغل عن ذلك بدخول

موريس كولماي فانه دخل اليها فقال للاميرال بصوت منخفض : دعناوحدنا فتركها وبقي الابن مع ابيه .

* *

وقد جعل كل منهما ينظر إلى رفيقه هنيهة دون أن يتكلم إلى أن بدأ موريس الحديث فقال :

— انك شديد القسوة علي كما يظهر .

— العلك كنت تسمع حديثي ؟

— لقد سمعت بعضه .

— اذن لا حاجة لان اظهر لك عواطفي .

— كلا فقد عرفتها .

— إذا كان فأية فائدة من هذه المقابلة ؟

— لدينا علائق يجب أن تنظر فيها فانك مهما كانت افكارك بشأني فاني أعد نفسي من اهل الشرف واني ما خرجت لحظة عن تلك الخطة المثلى التي يجري عليها المتمدنون ويسمونها بالشريعة .

— اية شريعة تعني ؟

— تلك الشريعة المكتوبة التي لا اعترف بسلطة غير سلطتها والخلاصة اني لا ابحث في ما إذا كنت ولدي أو لم تكنه وإذا كان يجب الاعتراف بك او انكارك فانذلك يتعلق بضميري على اني اعترف أن علائقي بامك قيدتني بواجبات لم اقضها حق قضائها ومع ذلك فقد اعطيتها الف دينار حين تركتها .

– انه مبلغ جسيم !

– كلا ولكنه كان يضمن لها الحياة عدة اعوام تربي في خلالها ولدها ولو اتفق لها ذلك مع سواي لاعطاها اقل من هذا المبلغ فاني حين عرفت أن امك كانت تكسب ثمانمائة فرنك في العام ولم يكن لها رجاء من مستقبل التعلم وهي تفاصيل دنيئة لا أحب البحث فيها ولكني نهجت كما ينهج كل رجل سواي فانها لم تكن الا خليلة لي .

– اني اعرف ذلك فلا حاجة إلى اعادته .

– وقد ذكرتها بعد زواجي وكانت كتبت إلي عن ولادتك فذهبت إلى القرية التي كانت فيها فعلمت انها ماتت غرقاً وبحثت عن طفلها فلم يستطع احد أن ينبئني بشيء من اخباره .

– ولو وجدتني فماذا كنت تصنع ؟

– كنت اربيك تربية صالحة واضمن مستقبلك .

– مستقبل لقيط .

– كنت اجتهد أن اجعلك في سلك الضباط .

– أو تجعلني مستخدماً في احد المخازن .

– على المرء أن يسعى ما فيه خيره وأن يقضي واجباته نحو نفسه ولولا بيير لاروش لكانت تلك العجوز التي ربتك اخبرتك باسم ابيك فأتيت إلى مساعدتك بالسر خير مساعدة .

– أكنت تسميني باسمك ؟

– أتحسب ذلك واجباً ؟

– وإذا اعترفت بي ألا تكون قد قمت بواجباتك ؟

– أن الآراء مختلفة في هذه الواجبات ولكل رأيه .

– إذن كنت ترفض الاعتراف بي لو لقيتني ؟

– ذلك ممكن .

– وعلى ذلك فأية فائدة لي من الاتيان اليك .

فوضع موريس يده على جبينه وقد هاجت العواطف في قلبه ليس من حبه لولده بل لخوفه من هـذا العدو الجديد الذي فاجأته به الاقدار .

اما جان فانه قال له : لست في حاجة إلى نصحك وتعاليمك فاوجز في المقال وقل ماذا تريد مني .

– اريد انقاذك من موقفك الحرج .

– لست في حاجة اليك فاني اعرف أن انقذ نفسي .

– جان اني اعلم بانك لا تحبني ولا تحترمني ولكنك لا تستطيع أن تمنعني عن التعويض عما اسأت به اليك .

– لقد فات الاوان وربما اكون اصبحت من الهالكين ولكن لست أنت الذي تستطيع انقاذي .

– من الذي يستطيع ؟ —امرأة .

– كيف ذلك ؟

– ذلك لا يهمك أن تعرفه .

– حقدك عظيم كما ارى .

– لا حد له فقل ما الذي تريد أن تقترحه علي ؟

– اريد أن اضمن فرارك وامنع البوليس عن مطاردتك واعطيك ثروة .

– انك لا تكون بذلك من المحسنين بل تكون قد وفيت ديناً عليك .

– انك من غير اشفاق .

– الملك اشفقت علي وعلى امي والآن احسب أن قلبك هو الذي يدفعك إلى الرحمة ؟ بل هي كبرياؤك فانك وقعت في الفخ الذي نصبه لك بيير لاروش فانت لا تريد انقاذ حريتي بل تريد انقاذ شرفك لحرصك عليه حرصك على هذه الاموال التي تجمعها اكداساً في خزائنك اذ تخشى أن يعلم الناس بان ابنك هو هذا الفتى الذي اكتسب امواله بالسرقة وسرق اسم رودريكوس بعد أن قتله وانتظم في سلك عصابة لندرا واشترك في قتل صمويل روزن .

– اخفض صوتك .

– لماذا ؟

ومما اخاف ؟ الملك تفضح سري أنت احرص مني على كتمانه اقول انهم لو عرفوا أن هذا الشقي هو ابن ذلك الوجيه المتشرع موريس كولمباي المشهور وانه ذلك الغلام الطريد الذي القى حبله على غاربه منذ ولدوانه ابن تلك المرأة المنكودة التي اهانها من ادعى حبها وقضى عليها أن تنتحر يأساً وانه ابن ذلك الرجل الذي قتل امرأة ضعيفة حنونة بكبريائه كما يقتل اللصوص بالخنجر وانه ذلك الشقي الذي اقفل بابه في وجه ولده وهو من لحمه ودمه ونبذه نبذ النواة والقاه في مهاوي الفقر والشقاء وعرضه لارتكاب الذنوب .. اقول انهم لو عرفوا ذلك لما

حكموا على ذلك الابن التعس المنكود بل حكموا على ذلك الاب الشقي السفاك فكيف تريد بعد ذلك أن اكون من المشفقين ؟

نعم اني اكرهك كرهاً لا ينتهي الابالموت لتلك الاهانة التي قضت على امي بالموت واني اكرهك لانك كنت السبب فيما وصلت اليه ... واني اكرهك لأن دمك قد صب في عروقي والله لا اعلم ما يمنعني عن الانتقام منك لي ولامي وأن انوب عن الله في قتلك فان الناس لا يعاقبونك .

وقد استل خنجر فهزه بيده وبرقت عيناه كبريقه وهم بقتله

اما موريس فقد اصفر وجهه من الرعب ولكنه لبث واقفاً في مكانه فكتف يديه وقال له :

– اضرب يا قاتل ابيه .

فالقى جان الخنجر إلى الارض ونظر اليه نظر المحتقر فقال :

– كلا لا اقتلك فان الموت يريحك من تقريع الضمير ولو قتلتك لما كنت آثماً فان ذنب الابن بقتل اباه اخف من ذنب الاب الذي يتخلى عن ابنه ويقتدي بوحوش القفار وأن القضاة امثالك يحكمون على الابن ولكن القاضي الاعظم يحكم على الاب وهذا القاضي هو الله ... الوداع فقد عرفت كثيراً هـذا المنزل ولا تخف فاني لن اعود اليه ولكن تذكاري يحل فيه واعلم اني لا اغفر لك واني اكرهك لقتلك امي ولانك جعلتني من اللصوص فاذا لم تحذر انتقامي فاحذر غضب الله .

ثم مشى إلى باب الغرفة فاستوقفه عند العتبة انين سمعه

فنظر فرأى في الغرفة المجاورة فتاة لابسة ملابس بيضاء وهي ملقاة على مقعد صفراء الوجه مغمضة العينين وبقربها امرأة راكعة وميشيل سانت كلير يمسك بيد الفتاة .

فوقف جان وقد راعه هذا المنظر فقال سانت كلير . انظر ماذا صنعت ؟

فمد جان يده مشيراً إلى ابيه وقال له : لست انا المذنب بل هذا .

وعند ذلك اقبل الطبيب فاسرعت ام ماري اليه وقالت له بربك انقذها .

ودفعت الشفقة جان إلى البقاء ليعلم مصير ضحيته

اما الطبيب فانه فحص ماري وسأل أمها قائلا هل تلقت خبراً مفجعاً ؟ — نعم .

فعاد إلى فحصها ثم قال : لا استطيع أن احكم الآن ولكن يجب الحذر — مما تخاف ؟

— من حمى في الدماغ — ايكون ذلك خطراً ؟

— ربما ولكني ارجو لها الشفاء .

وكان ابوها قد سمع قول الطبيب فوقف ينظر اليها نظرة الحزين وقالت له امرأته بصوت اجش :

— انها سمعت كل الحديث .

وتبودلت بين الاب والابن نظرتان دلتا على الحقد العظيم فقال جان لابيه

— لقد بدأت ساعة العذاب واني اشفق عليها وعلى امها

واما عليك فلا .

ثم خرج من ذلك المنزل وسار تواً إلى منزله في شارع باسانو فطرق بابه ووالى القرع مراراً فلم يجبه احد ففتحه بمفتاح كان معه فلم يجد فيه احداً من الخدم فدخل إلى غرفته فوجد كل امتعته لا تزال في موضعها وعلى نظامها فذهب إلى غرفة استاذه فلم يجد شيئاً من امتعته وايقن انه سافر .

وعند ذلك اخذ يفكر بحوادث ذلك اليوم الهائل التي كانت كلها مصائب ونكبات ثم انصرف إلى التفكير بأمره فتراءى له انه لا يستطيع انقاذه غير جانيت فاذا صدته واحتقرته فأية فائدة من الحياة .

غير انه كان لا يزال طامعاً بحنوها وحبها وقد علم أن مربيتها ماتت وانها لا بد أن تسهر بجانبها هذه الليلة فعول على الذهاب اليها في الليل .

وكانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر فأخذ مسدساً من خزانته ففحصه ووضعه في جيبه ثم خرج من المنزل فركب مركبة وسار بها يتنزه في الشانزليزه دون أن ينتبه لمركبة كانت تسير في اثره اينما سار .

وفي الساعة السابعة أطلق سراح مركبته ودخل إلى مطعم مشهور فوقفت المركبة التي كانت تقفو اثره قرب الباب .

الأم والأبنة

عندما اخذ الاميرال دي فيتراي بيد جانيت قال لها تعالي ولا تخشي امراً وسار بها تواً إلى امها وقال لها :

— هذه هي ابنتك فاذهبي بها واهربي من هذا المنزل .

فاسرعت الكونتس فضمتها إلى صدرها وخرجت بها مسرعة إلى المركبة دون أن تكترث لتلك الحادثة التي جرت في منزل كولماي ودون أن تسمع كلام زوجها أو تحتاج إلى أن يعرفها بابنتها فان خفوق قلبها كان خير دليل .

وقد لقيت اخيراً تلك الابنة التي طالما بكتها فأسرعت بها كأنها خشيت أن تفقدها ايضاً حتى إذا وصلت بها إلى المنزل دخلت واياها إلى غرفتها وكانت فيها وصيفتها لويز فقالت لها وهي تكاد تطير سروراً .

— هذه هي يا لويز .. هذه هي ابنتي فدعينا وحدنا الآن ثم القت بقبعتها على الارض وفعلت مثل ذلك بقبعة ابنتها وجعلت تعانقها وتقبلها وقد غسلت الدموع وجنتيها ثم اجلستها بجانبها على مقعد وجعلت تنظر اليها وتقول :

— يا الله ما اجملك فقد كنت تتمثلين لي بهذا الشكل .

فاطرقت الفتاة بعينيها وقالت لها : ماما .

— اواه كم تكونين قد بغضتني .

— اماه ؟

— لا تنكري فقد كنت تحسبينني من غير قلب لاني تخليت عنك .

— نعم لقد خطر لي ذلك فقد كنت شقية والشقاء يدعو إلى الظلم .

— هو ذاك يا ابنتي وكيف تستطيع ام أن تتخلى عن مولود اقام بين احشائها فاني لم تكن تمر ساعة دون أن افتكر بك فيها وقد كنت ضعيفة حين اختطفت مني فلم استطع الدفاع .

— من الذي اختطفني منك .

— رجل كنت اكرهه والعنه اما اليوم فاني احبه واباركه لانه ردك إلي .

— اهو الاميرال ؟

— نعم يا ابنتي وهو سيحضر وسأخبرك بكل امري كي تصفحي عني وتثقي بي .

— انا المحتاجة الى صفحك واخاف الا تغفري لي .

— انك عدت الي فلا تفارقينني بعد الآن مهما كنت وإذا كنت قد اخطأت فان تبعة هذا الخطأ يجب أن تعود على سواك واما انا فلن تجدي مني غير حنو الامهات . والآن فاسمعي قصتي

وهنا حكت لها جميع ما عرفه القراء من امرها دون أن تكتم عنها امراً حتى إذا اتمت حكايتها قالت لها : افهمت الآن كل شيء ؟

— نعم يا سيدتي .

– لا تناديني بهذا اللقب فانا امك .

– ولكنني غير خليقة بالانتساب اليك ولو علمت امري ..

فقاطعتها قائلة : اسكتي فاني احبك مهما كان ماضيك وانما اعترفت لك بامري لوثوقي من انك كنت تلعنيني ايام شقائك والان فاخبريني عن تلك المرأة التي ربتك .

– انها كانت من خير النساء .

– اتحبينها .

– كيف لا احبها وقد كنت عندها بمثابة ابنتها وقد ماتت اليوم وانا بعيدة عنها فزاد ذلك مصيبة على مصائبي .. دعيني اذهب اليها فقد سهرت عليها كل ليلة امس وكنت معها في الصباح قبل أن تموت .

– لماذا تركتيها ؟

– ستعذرينني متى عرفت السبب فقد تركتها لان عشيقي كان يقترن بمدموازيل كولمباي .

– عشيقك !

– نعم وهو فتى لا اسم له ولا عائلة مثلي عرفته في شربورغ وكان نشيطاً شريفاً ثم لقيته في باريس منذ شهرين وكنت مع مربيتي وبنتها في اشد حالات الشقاء والجوع .

ثم سترت وجهها بيديها وقد خجلت من تتمة الحديث فضمتها امها إلى صدرها وقالت لها :

– اتمي حديثك يا ابنتي فان الجوع خير شفيع :

– اني اردت انقاذ مربيتي وبنتها .

– كيف انقذتها ؟

– رباه اني لا اجسر على القول فستكرهينني دون شك .

– كيف اكرهك يا ابنتي لزلة انا التي جلبتها عليك ؟

– اني خرجت في ليلة هائمة على وجهي من اليأس وقد قطع قلبي انين العجوز وبكاء ابنتها فدخلت إلى قهوة عمومية لالتماس المال ... افهمت ؟

– مسكينة يا ابنتي

– وهناك لقيت رجلا منحني بضعة دنانير منحة المشفق الكريم وهو ميشيل سانت كلير .

– هو !

– وقد كاد ينقذني لو شاءت الاقـــدار ولكنها ابت الا أن تلقيني في وهدة – الشقاء فقد خرجت من تلك القهوة عائدة إلى المنزل فاعترضني اللصوص وانقذني منهم رجل كان يتبعني وهو ذلك الرجل الذي عرفته في شربورغ فذهبت في اليوم التالي لشكره في منزله وهناك عاد الينا تذكار حبنا القديم فماذا تريدين أن اقول ؟

– لقد فهمت يا ابنتي فهل كان يحبك ؟

– هذا الذي كان يقوله لي إلى أن علمت اليوم خبر زواجه بحفيدة سانت كلير فأسرعت إلى الكنيسة وليست الغيرة التي دفعتني فاني أنفت أن أغير من هـــذا الرجل ولكني اردت انقاذ حفيدة المحسن علي .

– انقاذها !

– نعم فانها تتزوج فتى غير اهل لها .

– ماذا تقولين ؟

– انه من اسفل الاشقياء يا اماه فهو من اللصوص

– عشقيك !

– بل هو سفاك ولم اكن اعلم شيئاً من امره ولكن الصدفة التي جمعتنا كشفت لي اسراره فعرفت حقيقة امره بعد فوات الاوان وبعد أن احببته اصدق حب .

– لا تخشي يا ابنتي فان حبي سيكون لك خير عزاء وستنسين وننسى :

– ايمكن نسيان مثل هذه الامور فانك لا تغفرين لي اليوم الا من باب المروءة .

– بل من قبيل الحب .

– وانك بعد أن تتمعني تعلمي اني شقية اثيمة ما دخلت منزلك الا لالقي فيه الخجل والعار واني موقنة بانك لا تستطيعين محو الماضي ولا استطيع أن انساه .

– انك مخطئة وسوف ترين فلا ابالي بشيء في الوجود وأنت معي وقد لقيتك فوجدتك طيبة كريمة شريفة لم تخطئي الا بعد أن أذلك الفقر وصرعك الحب . اني بكيتك كثيراً يا جانيت ولكني ارى المستقبل يضحك لي وقد رأيتك فانسى كل ما مضى من احزاني ... انظري الي يا ابنتي وقولي الجبيني بجلاء عما أسألك عنه !

– نعم يا اماه .

– اتحبين هذا الرجل ؟

– لقد احببته من قبل .

– ألا تزالين تحبينه ؟

– أني اريد أن يكون سعيداً وأن ينجو ويرجع عن ضلاله القديم .

– ولكنك ما اجبتني جواباً صريحاً فهل لا تزالين تحبينه ؟

– كلا .

– لماذا ؟

– لأني لا استطيع أن احب الا من كان صادقاً مخلصاً شريفاً .

– أتقولين الحق ؟

– نعم يا اماه :

– اذن لقد نجونا وربما استطعنا انقاذه .

– اني اهب عشرة اعوام من حياتي على ان اراه آمناً بعيداً

وعند ذلك وقفت مركبة عند باب المنزل فقالت امها :

– هذا هو الاميرال .

وبعد هنيهة دخل الاميرال فقال لجانيت :

– اني ادعوك يا ابنتي لاتمام واجب محزن :

– اني مستعدة .

– اذن تعالي معي إلى تلك المسكينة التي احبتك كابنتها فقد كان اسمك آخر ما لفظته .

فاعترضته امرأته قائلة : اتفارقني وانا لم اكد اراها ؟

— ذلك واجب مقدس لا بد من قضائه ايتها العزيزة .
ثم التفت إلى جانيت ففتح ذراعيه وقال لها :

— اتريدين يا ابنتي أن اكون اباك ؟

— ولكني غير جديرة بك .

— بل انك خير الفتيات وانا المسيء اليك فقد تركت في مهامه قفراء فهل تلامين إذا ضللت السبيل .. انا المخطىء وانا المسيء وانا الذي التمس الغفران .

ثم ضمها إلى صدره بحنو الاب الشفوق وقد سالت الدموع من عينيه وبعد هنيهة كان واياها وامها في مركبة تسير بهما إلى فوكرسون لوداع الارملة الفقيدة .

آخر مقابلة

وقامت جانيت مدة طويلة بجانب الارملة تبكيها بالدموع الغزيرة إلى أن ادخلتها امها إلى الغرفة التي كانت تبيت فيها وتركتها تستريح بالرقاد وذهبت إلى غرفة الميتة :

وكان الليل قد انتصف وفيما هي جالسة تفكر سمعت وقع خطوات على السلم فايقنت أن القادم جان وقالت في نفسها : ماذا يريد مني وفي أي شأن اتى ؟

اما جان فانه اتى تواً إلى تلك الغرفة فلما رأى جانيت تنهد في ارتياح وقال لها كنت اخاف أن لا اجدك ثم جلس على كرسي

وبقيت هي واقفة وقد ظهرت عليها علائم الاضطراب فقال لها: انك لم تكوني منتظرة قدومي .

— أأنت وحدك هنا ؟

— كلا فاخفض صوتك فان اختي نائمة وقد ماتت امها والكونتس دي فيتراي ساهرة عليها .

— الكونتس دي فيتراي !

— نعم وهي امي .

— نعم نعم لقد وجدتها اخيراً واني اهنئك فقد آمنت الآن الشقاء ، أعرفت أمك حكايتك؟

— لقد اعترفت الآن لها بكل امري .

— انها جرأة عظيمة فقد اذهلتها دون شك ولكنها غلطتها وفوق ذلك فانك طيبة كريمة الاخلاق لا يمكن لاحد أن يحقد عليك حتى انا فاني اسامحك .

فسكتت ولم تجبه وقد ذكرت سؤال امها اياها إذا كانت تحبه فعلمت انها كانت تحب جان موريس الذي عرفته في شربورغ لا جان رودوبكوس .

اما جان فقد قال بعد سكوت قصير ، اذن لقد ماتت تلك الجنونة المسكينة ؟

— في هذا الصباح

— اكنت عندها ساعة موتها ؟

— كلا .

— وعلى ذلك فقد اصبحت حرة بعد موتها .

– نعم فلماذا تقول لي هذا القول ؟

– لا لشيء ولكنني تمنت في امري منذ بضع ساعات فعلمت بعدما بدر منك في هذا الصباح اني لااستطيع البقاء في باريس اما انت فانك قد لا تريدين فراقها .

– لماذا ؟

– بسبب عائلتك الجديدة فاذا سافرت فاذكري اتفاقنا وهو ان تسافري معي .

– اسافر معك ؟

– نعم ألعلك نسيت ؟

– كلا ولكني لا اظنك تسالني تنفيذ هذا الوعد .

– ماذا يمنعني .

– يمنعك انك أنت لم تف بوعدك .

– ارى انه لم يبق لك بي ثقة .

– هو ذاك .

– وأن زواجي قد اساءك .

– لا اخفي عنك استيائي .

– كيف عرفت بأمره .

– من الجرائد ثم من رسالة وردتني .

– ممن ! – لا اعلم .

– انها من استاذي دون شك .

– العله كان يكرهك فيخونك .

فهز رأسه وقال : كلا ولماذا يكرهني ولكنه كان يكره ابي

– ابوك ! ماذا تعني بذلك .

– نعم ابي وهو موريس كولماي المستشار صهر ميشيل سانت كلير الفني الشهير .

– ايمكن ذلك أن يكون ؟

– كما أن تكوني ابنة الكونتس دي فيتراي .

فلبثت جامدة مبهوتة واستأنف جان الحديث فقال : أن بيير لاروش كان يكره ابي كرهاً شديداً وهو من اهل التصور والاختراع فولدت له قريحته خاطر تزويجي باختي وانما اراد بذلك الانتقام من موريس كولماي وانا لا اعلم .

– موريس كولماي أبوك .

– نعم هو بعينه فاسمعي حكايتي : وهنا روى لها كل ما عرفه من امر امه وابيه وكيف كان اتصاله ببيــير لاروش إلى أن قال بعد فراغه من الحديث ، اني علمت اخــيراً أن بيير لاروش ما تولى تربيتي الا ليستمد مني آلة لتنفيذ انتقامه فأقام كل ذلك المهد الطويل يزرع في نفسي بذور الفساد إلى أن عرفني بهذه العائلة وادخلني اليوم إلى الكنيسة وقال لابي بعد عقد القران .

« هو ذاك ولدك » وعلى ذلك فاكون قد تزوجت اختي .

وقد انتفض انتفاض العصفور بللته المياه وقال : اني لا افكر بذلك حتى تهتز عظامي فاني لما خرجت من منزل كولماي كان الطبيب مشككا بسلامتها من العلة التي فاجأتها فكان مثل تلك العائلة المنكودة مثل عش تعبث به ايدي الغلمان فينقلب

إلى الارض ويكسر البيض والأب والام حول ذلك العش وهما يصيحان الصيحات الاليمة

— ألديك ادلة تثبت أن موريس كولماي ابوك ؟

— لقد ارسل لي بيير لاروش هذه الادلة .

— كيف ؟

— بواسطة الاميرال دي فيتراي .

— اذن أنت غير مشكك بهذه القرابة ؟

— على الاطلاق .

— ولماذا لم يخبرك بها استاذك من قبل .

— لتنفيذ اغراضه لاني لو علمت أن ماري اخـــتي لما اقدمت على زواجها .

وكانت جانيت تتكلم بصوت منخفض خلافاً لجان فانه كان غير مكترث لشيء، وقد تجهم وجهه وارتج صوته فكان يشبه تلك الغيوم المتلبدة المنذرة بالعاصفة .

وعادت جانيت إلى الحديث فقالت : ماذا جرى لاستاذك

— لقد تركني في وسط هذه المعمعة .

— اين هو .

— لقد سافر دون شك إلى انكلترا كي لا تصل اليه يد القضاة .

— اذن لقد خاف .

— لانه من اهل الحكة .

— ايسافر دونك .

— لا حاجة لي به في شيء .

— ولكنه لم يتعلق بك هذا التعلق الا ليضحيك .

— انه كان يحب الانتقام فوق محبتي .

— وماذا قال لك ابوك .

— لقد اقترح علي أن يعطيني مالا فان المال عنده كل شيء .

— لماذا اقترح هذا الاقتراح ؟

— كي اسافر ولا ازعجه .

— اذن هو يريد أن تكون بعيداً عنه ؟

— لو امكنه أن يرسلني إلى القطب الشمالي لفعل .

— ماذا اجبته .

— لم اجبه بشيء .

— على ماذا عزمت ؟

— على أن استشير امرأة ثم ارى .

فلم تجسر جانيت على الالحاح لخوفها من أن تفهم ما يريد وبعد ان تبينت من لهجته عزمة هائلة كانت تخشى انفجارها فأرادت تغيير الحديث وسألته قائلة : ماذا جرى لماري .

— لقد تركتها مغمياً عليها على ما وصفته لك .

— انها كانت تحبك دون شك ؟

— ربما .

— بل هذا لا ريب فيه بدليل رضاها بزواجك .

— قد يكون ذلك ولكنها لم تكن تعلم اني اخوها

– أنت كنت تحبها ؟

– كلا .

– إذن لماذا خدعتها ؟

– بأمر استاذي .

– وماذا كان مرادك أن تصنع بعد الزواج ؟

– أن اهرب بالمهر .

– وحدك ؟

– كلا بل مع المرأة التي احبها والتي لا احب الحياة الا من اجلها .

– اذن لقد كان هذا الزواج جريـــة جديدة تضاف إلى جرائمك .

– لا انكر ولكنك عرفت مبادئي بشأن معارك الحياة .

– ووعودك ؟

– اية وعود ؟

– التي وعدتني بها ليلة اعترافك .

فادنى كرسيه من كرسيها ولكنها ابتعدت عنه فعض شفته وقال : ارى انه لا بد ان اقول لك كل شيء. فاسمعي . اني اردت اختطافك والسير بك إلى اقصى مكان فادفن جرائمي في باريس واعيش واياك سعيدين .

واني كنت ارضى بكل ما تفترحينه علي ما خلا الفقر وما وراءه من الشقاء ولا اطيق ان اراك شقية منكودة .

وما ضرني إذا اقترفت جريمة اضمن بها هناءك فاني اكون قد اقتديت بكثيرين سواي وهذا الاميرال دي فيتراي الذي يعده الناس من كبار اهل الشرف اتعدينه بريئاً وقد انتزعك من امك عشرين عاماً لينتقم وهذا ابي رجل القضاء الفني المشهور الا تحسبينه مجرماً وقد دفعه البخل والنذالة إلى طرد امي والتخلي عن ولده وهذا هو قضاء الله اتستطيعين تغيير قضاءه وكل ما حدث لم يكن الا بقضاء منه .

اما انا فقد اقترفت جريمة لا اريد بها غير الخير لسواي وقد خانني اؤلئك الذين لم ارد خيانتهم وتخلى عني ذلك الذي كنت أحبه كأبي فلم يبق لي غير ملجأ واحد وهو حبك . وانا اعلم انك تحتاجين إلى شجاعة عظيمة كي تستطيعي مساعدتي وأنا غير حاقد عليك لشكواي فقد هاجتك اكاذيبي وخيانتي فاني الا افتكر الا بك وبحبك وبهنائك وبمستقبلنا وقد جئت اليك لاسألك إذا كان هذا الحب قد مات في قلبك فاذا كان ذلك تلقيت مصيبتي بصبر الشجاع .

فنظرت اليه نظرة المشفق وقالت له : ماذا تفعل ؟

– ما يريده ابي .

– اتسافر .

– سفراً بعيداً لا رجوع فيه .

– إلى اين تسير .

– إلى مكان بعيد فأجيبي بجلاء أتسيرين معي

— انك لم تف بتعهدك فكيف تريد أن أفي بعهدي .

— هو ذاك ولكن دعيني احاول اقناعك وثقي بيميني فهي صادقة واعلمي اني لم اخنك فاني ما احببت سواك ولا تكون الخيانة الا بالميل إلى غير الحبيب .

فظهر الاضطراب على وجه جانيت وتبين في عينيها انها لا تميل إلى مشاركة رجل لا تحترمه ولكنها تشفق عليه فقالت له بلهجة دلت على الحنو :

— ومتى سافرت يا جان أتكون سعيداً على الاقل

— كل مكان تكونين فيه معي فهو جنان الخلود .

— وإذا لم اكن معك .

— لا ادري ما يكون مصيري وانا غني استطيع أن اعيش عيش الرخاء فاذا شئت أن لا اعيش من امـــوال الجريمة فان الاميرال عرض علي ما اشاء من ماله وابي عرض علي ثروة بشرط ان ابتعد عنه وأنا قادر على اصلاح الماضي والعيش عيش الاشراف ولكن ماذا يفيدني كل ذلك . اذن أنت لا تحبينني .

— لا اعلم ولكني لا ازال اسمع صوت ذلك اليهودي المنكود يرن في اذني .

— اسكتي .

— ولا ازال ارى دم ذلك الغني الاميركي يسيل امامي .

— اسكتي .

— لا استطيع نسيان هذه الامور فهي امنع حاجز بيننا

— اذن لقد قضيت علي القضاء المبرم ؟

— اني متذعرة من ماضيك ولكني لا أطيق أن اراك حزيناً قانطاً فقد احسنت الينا ايام شقائنا .

— لا تخشي عليَّ فلي من الشجاعة فوق ما تظنين .

— اصغ الي يا جان فاني لم ارتكب جرائم احاسب عليها ولكني ارتكبت زلة لم يكن يجب أن اقترفها فاعلم اني لا اتزوج مدى الحياة بل اشعر اني لست من اهل الحياة .

— أنت .

— نعم فقد اكبرت علي تلك الزلة وفكرت ملياً فلم اجد لنفسي عذرا وقد خيل لي اني اورثت تلك العـــائلة الخجل والعـــار وأنت في مقتبل الشباب فسافر واصلح شأنك فاذا بقيت حية بعد بضعة اعوام فانبئني باخبارك وعواطفك وما طرأ على نفسك من التغيير فاني لا انسى اني كنت لك واني احببتك .

— بضعة اعوام

— اتحسب ذلك كثيراً !

— لا اطيق الصبر على هـــذا الفراق فعذابه اشد من عذاب السعير .

— وأنا لا اصبر على صبرك !

— اذن لقد عزمت عزماً اكيداً على البقاء في فرنسا

— نعم وسأموت فيها فان قلبي مريض ولا شفاء له .

— وانا السبب في هذه العلة .

— لا انكر ذلك

— لقد اصبت يا جانيت وأنت تريدين برهانا على حبي وندمي فدعيني اكتب بضعة اسطر إلى التي سأرافقها فان القطار يسافر إلى الهافر بعد نصف ساعة وسأذهب فيه .

— اذن اكتب

وقد قامت إلى النافذة ففتحتها ووقفت فيها تلتمس الهواء لاضطراب انفاسها وهي تلك النافذة التي طالما انتظرته فيها من قبل .

وكان جان يكتب مسرعاً وهي تسمع صرير القلم على الورق في ذلك السكون .

وفيما هي واقفة سمعت دويا عظيما فالتفتت مذعورة فرأت رأس جان منقلبا على الكرسي وقد اخترقته رصاصة وسالت الدماء منه على الارض .

ولكنه تمكن قبل أن يغمض عينيه من أن ينظر نظرة اخيرة إلى تلك التي كان صادقاً في حبها كما قال دون أن يشير بيده إلى الورقة التي كتب عليها .

فاسرعت جانيت لنجدته علها ترد اليه الحياة ولكن ذلك محالا فانه مات وهو يبتسم واطبق عينيه وهذا ما كتب اليها .

« ايتها الحبيبة .

« لقد عرفت ما أوحت إليك جرائمي من الرعب على أني احبك بملء جوارحي وكان حبك وحده قادراً على انقاذي » .

« اني افارق هذه الحياة غير آسف عليها وكل ما اتمناه أن يعثر رجل شريف بهذا الكنز الثمين الذي فقدته وهو انت ويمتعك بما تستحقينه من الهناء .

« الوداع يا جانيت فاني اموت على حبك وأن عظامي ستهتز في القبر لهواك »

« جان موريس »

فصاحت جانيت صيحة منكرة وسقطت مغمياً عليها بجانب عشيقها وكانت المركبة التي تقفو جان واقفة عند باب المنزل فلما دوّى صوت المسدس خرج منها الرجلان اللذان كانا فيها وهما من رجال البوليس السري فدخلا إلى المنزل واسرعت الكونتس بلانش إلى ابنتها فضمتها إلى صدرها وركع الاميرال عند الجثة وفحص القلب فوجده لاحراك فيه فالتفت إلى الشرطيين وقال لهما .

اخبرا من ارسلكما بما رأيتماه فان هذا الفتى يدعى جان موريس ولا اعلم إذا كانت ذنوبه دعته إلى الانتحار ولكن لم يبق للقضاء شأن معه فقد سدد ما عليه من الدين .

النقاهة

كان ذلك الزمن الذي حدثت في خلاله حوادث هذه الرواية زمن المعرض العام في باريس وقد غصت شوارعها وفنادقها بالذين قدموا اليها من جميع الاقطار وشغل الناس عن هذه الحادثة بذلك المعرض الفخم ولم يبق غير الجرائد التي تستطيع اذاعة امر هذا الزواج الغريب ولكن فرنند كولباي ابن عم بلانش اسرع إلى ملافاة الامر واشترى سكوتها كما يقولون ما خلا القليل منها وانقطع الاهل والاصدقاء عن زيارة منزل كولباي فقد اقفل ابوابه ولكن الاهل كانوا يسألون البواب كل يوم عن صحة ماري فيجيبهم بهز رأسه وبالتنهد العميق . وقد مضى على ذلك شهر وماري بين الموت والحياة وامها مقيمة إلى جانبها الليل والنهار وقد خيم اليأس على هذا المنزل إلى أن تغلب صباها على العلة وزال الخطر وقد فتحت عينيها ورأت امها بجانبها فتنهدت وقالت لها ...

كفى يا امي فانك ستقتلين نفسك بهذا السهر الدائم فاستريحي. قالت اطمئني يا ابنتي فساستريح قريباً .

– كيف ذلك ؟

– لانك سوف لا تحتاجين إلى عنايتي .

– أهذا ما قاله الطبيب .

– نعم فقد زالت المخاوف ودخلت في دور النقاهة فاغمضي عينيك يا ماري واستريحي بالرقاد فان النوم يفيدك .

– اني لا استطيع الرقاد بل اني اخاف أن انام .

لماذا يا ابنتي !..

– لتلك الاحلام المخيفة التي تعذبني اشد عذاب .

– مسكينة يا ابنتي !

– بل أنت المسكينة يا امي فانك تلقين اشد ما تلقى

وقد خافت أن تؤثر عليها فابتسمت لها وغيرت الحديث فقالت :

– اين ابي ؟

– لا اعلم .

– اني لا اراه .

– نعم انه يأتي نادراً ولكنك تعلمين أن اشغاله كثيرة

ولم تقل امها هذا القول الا وهي حانقة على زوجها اشد الحنق فان موريس كولباي لم يكن يجيء إلى المنزل الا في القليل النادر وقد ضعضع اليأس رشاده فان بعض الجرائد التي لم يتمكن من اسكاتها نشرت خبر ذلك الزواج مقتضباً مضطرباً اذ لم تكن تستطيع الوقوف على حقيقة السر ولكنها كانت تنشر كل ما يتصل بها مما لا علاقة له بهذا الزواج فنشرت خبر انتحار جان وكان الشرطيان قد اطلعا على الرسالة التي كتبها قبيل

انتحاره فنشرت ايضاً تلك الرسالة وكان بيير لاروش يرسل اليها ايضاً من حين إلى حين رسائل تمس موريس اشد المساس ولكن بيير لم يفضح السر وانما كان يكتب رسائل توهم القراء بقرب افتضاحه فكان موريس ينام لخوفه على احر من الجمر .

وبعد فان ضميره كاد يقتله ألم يكن هو علة كل هذه المصائب

وقد نامت ماري وحاولت امها أن تغفو قليلا على كرسيها ولكنها سمعت وقع خطوات فانتبهت فرأت اباها سانت كلير داخلا يمشي على رؤوس اصابعه ووراءه فرنند وقد وقف عند الباب .

فقامت اليهما والدتها وقالت لهما انها نائمة فلنجلس بعيداً عن سريرها ونتحدث بصوت منخفض . فقال لها ابوها وقد راعه اصفرارها :

— انك لقيت عناءاً شديداً يا ابنتي .

— نعم يا ابي ولكن هذا العناء قد زال اليوم

— هل جاء الطبيب اليوم ؟

— كان هنا منذ ساعة .

— ماذا قال ؟

— الخطر قد زال ولو سلبني اياها الموت لمت معها

وقال فرنند : أن مدام دي سانت بيران ارسلتني للوقوف على اخبارها فان الطبيب يخبرها كل ليلة بحالها ولكنها لا تكتفي بها .

فقال له الشيخ ممازحاً وقد اطمأن على حفيدته :

— اذن أنت قادم لحسابها ؟

— ولحسابي ايضاً .

— أن مودتك ظاهرة لا ريب فيها والاميرال .

— انه مسافر غداً إلى بريتانيا .

— وابنته ؟

— لقد شفيت تقريباً فتغلب صباها .

— ما اعجب حادثة هذه الفتاة لقد جاءت لزيارتي في صباح يوم وكنت قد خرجت منذ خمس دقائق فلو لقيتني لما حدث شيء من هذه النكبات والان فلننصرف فاني اخاف أن تستيقظ ماري لحديثنا .

ولكن ماري استيقظت عند ذلك ونادت جدها قائلة :

— أهذا أنت ؟!

— نعم

— ولكنك لست وحدك .

— كلا بل معي صديق .

اهو فرنند .

— هو بعينه ألا تريدين أن تريه .

— كيف لا اريد أن اراه وهو لم يفارقنا لحظة .

ثم نادت فرنند فدنا منها وهو مضطرب فمدت له يدها وقالت له :

— اني اعلم بانك تأتي كل يوم وذلك يدل على انك غير حاقد علي .

— لماذا احقد عليك ابنتها العزيزة وأنا لا اريد غير هنائك بل اني اضحي حياتي في سبيل هذا الهناء .

— اذن انك تستطيع أن تخدمني خدمة جليلة .

— انا !

— نعم أنت .

— ما هي .

فنظرت إلى امها وجـدها نظرة المتوسلة اليها أن يعذراها مقدماً .

ثم قالت لفرنند :

— يوجد امر يبالغون بالحرص على كتمانه عني وأنا أحب أن اعرفه .

— سلي مـا تشائين يا مـاري وإذا كنت قـادراً على اجابتك اجيبك .

— أني تزوجت منذ شهر في كنيسة السيدة وكان زوجي يدعى جان رودريكوس واني اريد أن اعلم أولا لماذا اتت تلك الفتاة اللابسة ملابس السواد يصحبها قومسير البوليس وماذا كانت تريد ثم اريد أن أعلم ايضاً من اين اتيت أنت ايضاً يوم العرس .

— سأخبرك عن ذلك فيما بعد .

— كلا بل اريد أن اعلم الآن فلا تكتم عني هذه الانباء يا فرنند فان راحتي منوطة بها ولا تخدعني فقد سمعت قسماً من الحقيقة من فم حين كان مختليا مع ابي فان ما ستخبرني به لا

يمكن أن يحزنني اكثر مما حزنت بل اني ارتاح لهذه الانباء .

فاستشار فرنند امها وجدها بالنظر ثم قال لها :

— هل لك قوة تعينك على سماعها .

— نعم .

— إذن فاعلمي أن جـان رودريكوس كان غلاماً انكره ابوه .

— وهذا الاب هو ابي أليس كذلك .

— نعم فان هذا الفتى يدعى جان موريس لا رودريكوس وقد ترك وشأنه في هذا الوجود فضل سواء السبيل وجمع ثروته بالحرام وهذه الفتاة ذات الملابس السوداء كانت مثله في مولدها فجمعت الصدفة بينهما وتآلف قلب هذا الاثيم مع قلب هذه الفتاة التي تستحق الشفقة .

— كيف هو اثيم :

— أولا بزواجه فانه لم يكن يريد منك غير مهرك .

— سمعته قال هذا القول .

— ثم باختلاسه الاسم الذي كان يتسمى به .

— ممن اختلسه .

— من فتى اميركي غريب .

— ماذا جرى لهذا الفتى .

— لقد قتل فلا تسأليني عنه المزيد .

— حسناً واين هو جان الآن ؟

— لا اجسر على اخبارك .

– لقد قلت لك أني اريد أن اعلم كل شيء .

– اذن فاعلمي انه كان يستطيع الفرار فقد مهدنا له اسبابه ولكنه ابى ودفعه اليأس إلى الانتحار ! .

فأطبقت عينيها وقالت :

– مات اخي .

– ولبثت على ذلك هنيهة والجميع يراقبونها خائفين ثم جعلت الدموع تسيل من عينيها ومدت يدها إلى ابن عمها وهي تقول

– اشكرك .

فلثم فرنند تلك اليد الصفراء ثم انصرف مع جدها فقالت

– مسكين جان ليغفر الله له كما غفرنا وسنصلي من اجله أليس كذلك يا اماه !

* * *

مضى على هذه الحوادث شهران شفيت فيها ماري بلانش اتم الشفاء ففتحت ابواب منزل كولمباي لزواره وعاد اليه ذلك الصفاء القديم بفضل فرنند وسانت كلير فانهما كانا لا يفارقان ماري حتى ذهب ما بها وعاد التورد إلى خديها وسادت السكينة على أهل المنزل ما خلا موريس فان الهم انهكه فلم يكن يلقى غير مطرق حزين فكان بيير لاروش يزور باريس متنكراً من حين إلى حين ، لا لغرض الا ليمتع نظره بوجه موريس

المضطرب ويرى تأثير انتقامه فيه .

ولكنه كان اشد اولئك الضحايا حزنا على تلميذه فقد كان يحبه حقيقة كولده .

ولم يخطر له في بال انه سيقدم على الانتحار اذ لو خامره في ذلك اقل ريب لضحى انتقامه دون شك ولذلك صرف كل قوى عقله الجهنمي إلى الانتقام من موريس فكان كل ما لاحت له فرصة صدمة جديدة ابتكر له عذاباً جديداً كاد يذهب بفؤاده فكان ذلك عزاؤه عن فقد جان .

واما جانيت فانها شفيت من علتها شفاء تاماً ولكنها كانت تلقى من الحزن واليأس اشد ما يكون ولم يشفع حب الاميرال وحنو امها بنكبتها فكانت إذا رأت امها تحاول اخفاء يأسها فتبتسم ابتسام حزن يزيد ذلك اليأس ظهوراً فلا يخفى عن تلك الام المسكينة ولا عن ذلك الاميرال الشريف .

وكان قد تبناها اصلاحاً لخطأه القديم فباتت من اهل النسب وصارت تدعى جانيت دي فيتراي فكان ذلك خير عامل للتوفيق بين الزوجين .

فعاد الي قلبيهما ذلك الحب القديم وعاشا اهنأ عيش لو لم ينغض هناءهما حزن جانيت الدائم فانها كانت لا تزال تعتقد انها غير جديره بالانتساب إلى هذه العائلة وأن الاميرال لم يتبناها الا ارضاء لامها أو من باب الاحسان .

ولكن الاميرال كان يعتقد غير اعتقادها ويحسب أن هذا الحزن لم يتمكن من قلبها الا لانها فجعت بجان فاتفق مع

زوجته على السياحة بها والابتعاد عن باريس على رجاء أن يساعدها هذا البعد على السلوى فأعد معدات السفر وسافر في اليوم التالي مع زوجته وجانيت وماري ابنة ارين ارملة بوديت

وقد جعل الاميرال هذه الرحلة قاصرة على التجول في الريف لجمال مناظره الطبيعية واتفق أن المركيز دي كروجر : وهو فتى من اعيال الريف : كان عائداً من باريس إلى موطنه في بريتانيا قرب صخرة مورجابت فتعرف بالاميرال واسرته وكان رفيقهم في هذه الرحلة يسير وايام في طريق واحدة ويقيم وايام في فندق واحد وهو اهل السلامة والذوق فكان لهم مؤانساً في الطريق .

وما زالوا يتجولون حتى دخلوا إلى ولاية بريتانيا وتجولوا في بعض قراها فسأل المركيز كروجر جانيت يوماً قائلا :

— كيف رأيت بلادنا يا سيدتي ؟

قالت : اني لم اجد بها شيئاً مفرحاً إلى الآن .

— دون شك فانها لا تعادل باريس والفرق بينهما بعيد

— بلى انها تفضل عن باريس مراراً في كل شيء .

— اذن أنت لا تحبين العاصمة يا سيدتي .

— على الاطلاق ..

— أيمكن ذلك يا سيدتي أن يكون ؟!

— بل اني اؤثر أن اقيم في احقر القرى التي اجتزناها على أن اقيم في باريس .

— ماذا تقولين ياسيدتي ؟

— اقول حقيقة ما اعتقد به .

— إذا كان ذلك فخير لك أن تقيمي بيننا .

وقد نظر اليها نظرة ارتعشت لها فان عينيه اشبهتا بهذه النظرة عيني جان شبهاً عجيباً اختلج له قلبها فاطبقت عينيها كأنها لم تستطع مقابلة حدة النظرة .

ورأت امها تأثير هذه النظرة فاشتركت في الحديث كي تعين ابنتها على اخفاء اضطرابها .

وكان المركيز يحمل كيساً صغيراً فسأله الاميرال قائلا

— ما هذا الكيس ايها المركيز ؟

— انه يحتوي على بعض حبوب من القمح اريد تجربة زراعتها فاني في ايام الحرب كنت قائداً في الجيش الاحتياطي واما في زمن السلم فاني من المزارعين اليست هاتان المهنتان خير المهن ؟

— هذا لا ريب فيه فانك ستواصل السفر معنا اليس كذلك

— نعم إذا اذنت فلم يبق لدي غير اربع مراحل وكذلك انتم فستصلون اليوم فاننا شبه جيران .

— الا تزال عازباً ايها المركيز ؟

— نعم ايها الاميرال ...

— العل ذلك لعدم رغبتك في الزواج .

— كلا ولكني لم اجـــد إلى الآن فتاة تروق لها عيشتي الريفية فان فتيات اليوم لا يحلمن الا بباريس واظن اني سأموت عازباً .

واختلف الحديث بينهم إلى أن دنت ساعة السفر فركب المركيز مركبته ووعد الاميرال أن يزوره وسار الاميرال باسرته فوصل عند الظهر إلى قصره المسمى بقصر فيتراي فدخلوا اليه وقال الاميرال لجانيت بصوت يرتجف من الحنو .

– انك الآن في منزلك يا ابنتي ورجائي أن تعينك هذه المناظر الطبيعية على النسيان وأن تذكري أن هناءنا موقوف على هنائك .

●

كان قصر فيتراي من اجمل القصور الريفية تكتنفه الاشجار والغابات من جهاته الاربع وقد افرغت عليه الطبيعة جمالها فكان الاميرال والكونتس يرجوان الشفاء لجانيت في وسط هذا الخلاء الهادي من علة نفسها كما شفيت من اعتلال جسمها .

وكان فصل ربيع فكانت الكونتس تذهب كل يوم بابنتها إلى الحقول والبساتين والغابات والاميرال يقضي اكثر اوقاته بزيارة مجاوريه واخصهم المركيز كروجر غير انه كان يلاحظ جانيت بطرف خفي فيرى أن حزنها لا يزال بادياً وانها تبذل جهداً عنيفاً كي تتمكن من اخفاء تلك الاحزان ومع ذلك فان جميع الناس في تلك الجهات النائية عن باريس لم يكن احد منهم يشكك بولدها وكانوا يعلمون انها ابنة الاميرال حقيقة – وانها الوريثة الوحيدة لتلك الثروة العظيمة والمجد الرفيع فيحترمونها

اجل احترام ثم أن جمال الطبيعة وتلك العزلة وذلك البعد عن العاصمة وما كانت تلقاه من الحنو في المنزل ومن الاحترام في خارجه كل ذلك كان يجب أن يعينها على نسيان حادثة الكنيسة وحادثة الانتحار ولكن الاميرال كان يرعب رعباً شديداً حين يباغتها في خلواتها ويجدها مسترسلة إلى الحزن والتفكير .

وقد اتفق يوماً أن المركيز كروجر وكاهن القرية كانا مدعوين عند الاميرال للطعام وبعد انصرافهما طلبت جانيت إلى امها أن تأذن لها بزيارة قبر ارملة بوديت فقد كانوا نقلوا جثتها إلى هذه القرية التي ولدت فيها ودفنت في تربتها .

فارادت امها أن ترافقها في هذه الزيارة فألحت عليها أن تأذن لها بالذهاب وحدها فلم تجد بداً من الامتثال لها بعد الالحاح ولكنها لم تستطع أن تتخلص من اختها ماري فأنها تعلقت بثوبها واصرت على مرافقتها .

وكان الاميرال حاضراً وقد تنبه لالحاح جانيت في أن تكون وحدها وخامره الشك فلما خرجت مع اختها ماري وهي تركض إلى يمينها ويسارها كما تركض المهرة وراء الفرس خرج في أثرها تستره الاشجار الكثيفة حتى وصلت إلى التربة فوضعت الازهار على ضريح مربيتها وركعت فصلت صلاة قصيرة ثم نهضت فقبلت بلاط الضريح ونظرت إلى السماء فتنهدت تنهداً طويلا كأنها تودع هذا الضريح الوداع الاخير .

كل ذلك والاميرال مختبيء وراء السنديانة يراقبها وهي لا تراه .

وبعد أن فرغت من قضاء هـذا الواجب عادت مع اختها فأقتفاها الاميرال وهو موجس خيفة لما رآه من اضطرابها حتى دخلت باختها إلى حديقة القصر وهناك امرت اختها أن تصعد إلى المنزل فامتثلت وصبرت إلى أن رأتهـا دخلت وتنهدت تنهد ارتياح اذ باتت وحدها .

هناك خرجت مسرعة من الحـديقة فوضعت اناملها على فمها وارسلت قبلة إلى جهة الضريح ثم سارت في طريق بين الاشجار يؤدي إلى النهر .

ولم يكن للنهر طريق غير هذا الطريق فوجف قلب الاميرال من الرعب واسرع الخطى حتى ادركها عند الشاطىء وناداها فالتفتت الفتاة مذعورة واطرقت برأسها كي تخفي احمرار وجهها فتظاهر الاميرال بالاطمئنان وقال لها :

— لقد رأيتك تسيرين في هذا الطريق الجميل فتبعتك يا جانيت لان لي ما أقوله لك على انفراد فتوكأي يا ابنتي على ذراعي ولنتنزه في هذه الغابة .

فاذعنت جانيت له وشعر الاميرال باضطراب ذراعها تحت ذراعه فقال لها .

— انك تعذبت كثيراً يا ابنتي وانا كنت السبب في كل هذا العذاب ولذلك لا أزال خائفاً من حقدك علي .

— أنا احقد عليك ..

— لا تنكري يا ابنتي فان حقدك طبيعي معقول ولكني أرجو مع الايام أن استميلك إلي فأنسيك هذا الحقد وأدعك

تحبينني حب الاب الشفوق فاني لا يهنأ لي عيش الا متى ايقنت من صفحك .

— ولكني ما حقدت عليك لحظة بعد أن عرفتك .

— ذلك يدل على طهارة قلبك الذي عرفته حق العرفان فكلميني يا ابنتي بملء الجلاء .

— ماذا تريد أن اقول لك .

— انك الآن بعيدة عن باريس ، اي بعيدة عن تلك الاماكن التي تثير احزانك وستمحوها الايام .

— وا أسفاه .

— بل انه لا يمضي الزمن القليل حتى تصبح تلك الحوادث شبه احلام وهذا شأن الناس فقد فطروا على النسيان وستنسين ما عوملت به من الشر ولا تذكرين إلا الخير الذي طبعت عليه نفسك الكريمة لا سيما وأنت الآن وافرة الغنى تستطيعين الاحسان قدر ما تشائين على المساكين وفي ذلك شيء من العزاء بل هو العزاء كله فلا يعزي عن اساءة الناس غير الاحسان إلى الناس .

ولا بد أن تعلمي يا ابنتي أن كل ما صنعته لك لم يكن غير تكفير اساءتي الماضية فاني انا ايضاً كنت من المجرمين باختطافك ولكني ارجعت اليك ما سلبتك اياه وأنت الآن ابنة الاميرال فيلراي لدى القانون ولدى الناس بل انت ابنتي حقيقة فانك تحلين خير مكان في قلبي ولا هم لي ولأمك غير هنائك فسلي ما تشائين فانت الحاكمة المطلقة علينا وعلى قلبينا .

فلم تستطع جانيت أن تجيبه بكلمة ولكنها ركعت على العشب أمامه فانهضها وقبل جبينها وعاد إلى المسير معها بين الغابات وهو يعزيها أجمل عزاء ويبسط لها آمال المستقبل ويشرح لها ملذات الاحسان وقد كلمها عن المركيز كروجر فأبدع في وصف اخلاقه الكريمة وذكر لها أنه لا يطيب له عيش إلا بين الفلاحين الذين يكادون يعبدونه لحسن بره بهم .

فأطبقت جانيت عينيها وهي لم تكن تفتكر بالحب بل انها علمت أن هناءها لا يكون الا بمثل هذا العيش مع مثل هذا الرجل .

ولكن هذا الرجاء كان بعيداً عنها واين لها أن تحققه على ما فيها فانها كانت تدعى حقيقة جانيت دي فيتراي ولكن هذا الاسم لم يرد شرفها المفقود مهما بلغت ثروتها فهل يمحو اصفرار الذهب سواد هفوتها وإذا كان جميع المحيطين بها قد نسوا زلتها فهل تنساها هي وأن هذا الاميرال الذي لم يتبناها الا للتكفير عن ذنبه بانتقامه الهائل هل يمكن أن ينسى حقيقة اصلها؟

وقد مرت بمخيلتها هذه الافكار كلها بسرعة التصور فاهتزت لها وتنهدت تنهداً طويلا ثم ارادت تغيير الحديث فسألت الاميرال قائلة .

ماذا جرى للمدموازيل ماري .

قال ، انك تستطيعين الوقوف على اخبارها من المركيزة سانت بيران صديقة أمك .

— أهي هنا !

كلا ولكنها ربما حضرت غداً .

— عجباً اتطيق الاسفار وهي قد بلغت حد الهرم ؟

— انها من هذه البلاد وهي تريد أن تراها لآخر مرة .

— وهي بلاد جميلة وحسبها جمالا انها بعيدة عن هناك ..

ثم ابتسمت وقالت له لي رجاء التمسه منك ولكني لا أجسر على التماسه .

— سلي يا ابنتي ما تشائين فان رجاءك امر .

— اريد أن ارى صخرة مورجابت .

فارتعد الاميرال وقال :

— اتذهبين إلى هذا المكان الذي لا فائدة منه غير إثارة التذكارات القديمة .

— ولكنها تذكارات قديمة كما تقول فلماذا ترفض ملتمسي

— لا أرفض لك طلبا يا ابنتي فلا رجاء لي ولأمك غير تحقيق امانيك ولكن هذا المكان لا يصلح للنزهة وكل ما فيه يدعو إلى الانقباض .

— لا سبيل إلى الانقباض فيه لاننا نكون هناك .

فعجب الاميرال لرغبتها بزيارة هذا القصر الموحش ولكنه لم يسعه مخالفتها وقد بات يحبها كما تحبها أمها فاجابها قائلا :

— ليكن ما تريدين يا ابنتي .

— متى نذهب اليه ؟

— بعد اسبوع إلى أن ارسل من ينظم المنزل فقد هجرناه عشرين عاماً .

فشكرته وعادت إلى المنزل وهو يقول في نفسه .

لا بد أن يكون لها مأرب خفي من ذهابها إلى مورجابت كنفس ماربها اليوم من ذهابها إلى النهر ولكن سأراقبها هناك كما راقبتها هنا .

وقد خاف الاميرال عليها خوفاً شديداً وايقن انه لا يشفيها من هذا اليأس الذي ملأ فراغ قلبها غير دوائين احدهما الزمن والآخر الحب .

وكان المركيز كروجر قد مال اليها كل الميل فان الشاب يحن إلى الشباب حنين الشراع إلى الرياح فلم يكن يدع فرصة تقربه منها الا اغتنمها فيفرغ مجهوده في مباسطتها وتسليتها من احزانها التي لم يكن يعلم شيئاً من اسبابها ولا يزال يورد لها من النكات والنوادر المضحكة حتى يظفر بابتسامة .

ولكن بين الميل والحب مسافة قصيرة وقد اجتازها المركيز فلم يخف حبه عن عين الاميرال الساهرة .

وقد عرف القراء شدة تعلق الامـــيرال باهداب الشرف وتمسكه بالواجبات .

فلما وثق من حب المركيز تمثل له واجب لم يجد بداً من قضائه فذهب اليه في منزله وهو يقيم في قرية تجاور القرية التي يقيم فيها الاميرال وقال له :

— اني قادم اليك لأذهب واياك إلى بوانتيفي .

قال : لماذا ؟..

— لنستقبل المركيزة سانت بيران فقــد جاءت لزيارتنا

فهل تصحبني .

— دون شك .

— وفوق ذلك فاني اريد محادثتك في شان خطير .

فذهل المركيز وقال له :

— اني رهين امرك يا سيدي الاميرال فتفضل وقل ما تريد

— سأخبرك بما اريده في الطريق فهلم بنا .

وقام الاثنان فركبا مركبة سارت بهما في طريق بوانتيفي وبدأ الاميرال الحديث فقال :

— اتحسبني من رجال الشرف ايها المركيز .

— إذا شككت في ذلك اكون وحدي بين جميع الناس

— إذن فاعلم أن لدي واجباً يقضي علي الشرف أن اقوم به لديك فانك صديقي وأنت واثق من عطفي عليك فيما اظن

— هذا لا ريب فيه .

— ولقد كان ابوك من اخلص اصدقائي وكانت صداقتنا تمتد من ايام المدرسة .

— اعرف ذلك حق العرفان .

— وعلى ذلك فلا شك عنـــدك باني اسر سروراً عظيماً بزيارتك لي ولكن زيارتك-هذه قد يتولد منها خطر لا اريده .

— اي خطر هذا ؟

— ستعرف قصدي ولكني لا استطيع وقايتك من هذا الخطر الا بعد أن اعترف لك بامري فقد لاحظت ايها الصديق

انك في زيارتك كنت كثير الميل إلى الاجتماع بابنتي .

فتجهم وجه المركيز وانقبض صدره وحاول أن يحتج ولكن الاميرال قاطعه فقال :

— لا تحاول الدفاع يا بني فاني اعد نفسي سعيداً بهذا الميل وافتخر بمصاهرتك لاني احترمك كل الاحترام غير اني ما كنت احذرك من الاسترسال إلى هذا الحب لو لم اعرف بان فراقكما محال فاصفر وجه المركيز ومضى الاميرال في حديثه فقال :

— أن جانيت آية من آيات الجمال وأنت زين الشباب فاذا مال كل منكما إلى الآخر فليس بعجب ولذلك احببت أن اروي لك حكاية هذه الفتاة فتعلم انه يوجـــد بينكما هوة عظيمة لا يمكن اجتيازها .

وكان المركيز يزور الاميرال في كل يوم ويجتمع بجانيت فاحبها حباً صادقاً ولذلك انقبض صدره لما سمعه واخذ يصغي إلى حديث الاميرال بملء الانتباه . اما الاميرال فانه قص عليه حكايته وحكايتها منذ حادثة صخرة مورحانت إلى آخر حكاية جانيت وقد بسط له كل تاريخها فذكر ما عانته من الشقاء وانه لا بد لها من العناية العظيمة لشفاء نفسها بحيث عرف المركيز كل امرها حتى علاقتها بجان رودريكوس وانتحاره في منزلها ، حتى إذا اتم حكايته كتف يديه والقى رأسه على وسادة المركبة إلى الوراء وتنهد تنهد ارتياح كأنه ارتاح من قضاء واجب كان يثقل عليه . وكذلك المركـــيز فانه اطرق مفكراً في ما سمعه فقال له الاميرال بعد سكوت قصير .

وخلاصة ما تقدم أن ابنتي جديرة بالاشفاق والاحترام لجهادها خير جهاد في معارك الحياة ولأخلاصها العجيب ولكنك لا تستطيع بعد عرفانك حقيقة امرها أن يخطر لك تحقق تلك الاماني التي قد تكون جالت في خاطرك وقد اعترف لك اعترافاً تاماً يمس كبريائي لاني انا المذنب الوحيد في كل ما حدث ولكني كنت مديناً لك بهذا الاعتراف فلم اجد بدأ من وفاء الدين .

وكانت المركبة قد وصلت إلى المحطة فخرجا منها اليها وجاء القطار وجاءت فيه المركيزة العجوز فعرفها الاميرال بالمركيز كروجر وعـاد الثلاثة إلى منزل المركـيز لتناول الغذاء فيه .

وكان الاميرال قد اغتنم فرصة واخبرها بالحالة وباعترافه بها للمركيز فلما فرغوا من الطعام دارت الحادثة بينها وبين المركيز فقالت له :

— لقد اخبرني الاميرال عن صداقتك واياه وذكر لي شيئاً من عاداتك فعلمت انك تحب بلادك .

— قال : بل اني مشغوف بها يا سيدتي .

— اتجد نفسك سعيداً فيها ؟

— كالارنب في وجاره .

— كيف تقضي الوقت هنا ؟

— بالزراعة والصيد .

— وهذا السبب في ما اراه من حسن صحتك خـلافاً

لفتيان باريس .

— أن هذه العاصمة لا تخطر لي في بال وفي اعتقادي انه يمكن الاستغناء عنها

— ولكن ماذا تصنع في الشتاء ؟

— لا انكر أن لياليـــه طويلة ولكن لدي كتبي يا سيدتي وهي خير انيس .

— انك من الفلاسفة ايها المركيز :

— أن الضرورة تدعو إلى التفلسف .

— وأنت حسن الحال كما اخبرني الاميرال .

— بحمد الله

— وإذا كنت على ما أنت فيه من الوحدة والصحة والغنى والشباب فلماذا لم تتزوج إلى الآن ؟

— لاني اجد بالزواج صعوبة لا تغلب فقد عرفت من عادتي اني رجل من اهل الغابات أكاد اكون وحشياً في عيون الفتيات فأين أجد فتاة تشاطرني هذا العيش وترضى بعاداتي وفتيات اليوم لا يحلمن الا بالبهرجة والزينة والمسارح والحفلات فاذا قيل لاحداهن انها ستقيم العمر في ارض كروجر تحسب نفسها سجينة وقد تؤثر الانتحار ولذلك لم اجسر على خطبة فتاة كي لا اعرض نفسي للفشل .

— ولكن قد يمكن الاقامة بعض العام في الريف وبعضه في المدن .

— لا استطيع أن اعد بذلك يا سيدتي اذ يعز علي أن

افارق بعض العام تلك العائلة العظيمة التي تعيش معي وهم اولئك الفلاحين الذين يحرثون أرضي فاني اعدهم عائلتي حتى اني احسن إلى المواشي التي استخدمها في ارضي ولو رويت لك يا سيدتي حكايات رفقائي الذين اغوتهم زخارف باريس لاخذك العجب ورثيت لحالهم فان بعضهم اصيبوا بالدمار التام وبعضهم خسروا شرفهم ايضاً في تلك العاصمة الجهنمية التي اكرهها كل الكره فلا تذكريها لي يا سيدتي اذ لا يمكن أن اقيم فيها .

فغيرت المركيزة الحديث فجأة وقد عرفت ما ارادت أن تعرفه فقالت له :

— اتذهب غالباً إلى فيتراي ؟

— بل اذهب كل يوم فنحن متجاوران .

— كيف رأيت الكونتس بلانش .

— من خيرة النساء .

— اني اعرف ذلك ولكن هل هي فرحة ام منقبضة بعد قدومها .

— هي بين الامرين ..

— انها اصيبت بحزن شديد من قبل .

— لقد عرفته يا سيدتي .

فسألته عند ذلك هذا السؤال الذي كانت تحاول أن تسأله اياه منذ بدء الحادثة وتبسط له المقدمات فقالت :

– وكيف وجدت ابنتها ! .

فارتعش المركيز وقال : المدموازيل جانيت ؟

– نعم جانيت فانها تحمل على الاشفاق

– هي يا سيدتي آية الجمال والدعة ومكارم الاخلاق .

– انها حزينة دون شك .

– فهز المركيز رأسه وقال :

– نعم فان حزنها شديد .

– انها لاقت في حداثتها وشبابها ما لم يلقه بشر اعرفت تاريخها .

– لقد رأى سيدي الاميرال أن الواجب يقضي عليه بأن يرويه لي .

– اليس تاريخها محزناً ايها المركيز ؟

– وقد نظرت اليه نظرة الفاحص فظهرت على وجهه علائم التأثر الشديد وقال :

– بل انه يقطع القلوب من الاشفاق ثم انك تشيرين علي يا سيدتي أن اسكن باريس بعد تلك النكبة ؟

– اذن أنت تشفق عليها ؟

– اشفق واجلها واعجب بها .

– وهنا غيرت المركيزة الحديث وقد عرفت كل ما ارادت أن تعرفه وبعد هنيهة ذهبوا كلهم إلى منزل الاميرال .

* *

مضى على ذلك اسبوع كان المركيز يزورهم في خلاله كل يوم فلا يعود الا بعد انقضاء السهرة وقد خطر للمركيزة يوماً أن تتنزه في البساتين وكانت الكونتس جالسة مع جانيت في غرفة مطلة على البحر وجانيت شاخصة إلى تلك الامواج التي دفن ابوها وامها تتلهى ببعض الاشغال اليدوية .

وفيما هما على ذلك دخلت خادمة وقالت للكونتس : أن المركيوة تقترح على سيدتي نزهة البساتين قبل العشاء .

قالت : حسناً فأني اذهب والتفتت إلى ابنتها فقالت لها :

– الا تذهبين معنا يا جانيت ؟

– قالت كلا يا اماه فاني اؤثر البقاء هنا .

فعانقتها بلهفة وخرجت إلى حيث كانت تنتظرها المركيزة فلبثت جانيت تنظر إلى امواج البحر نظرة الحزين المفكر فانها كانت لا تزال تعتقد انها لا حق لها بالاقامة في هذا المنزل بل قد تجسم عندها هذا الخاطر حتى باتت تحسب انها تجني على شرف الاميرال باقامتها في هذا المنزل فما هي الا فتاة شريدة طردت بملء القسوة والاحتقار حين ولادتها ثم ردها الاميرال إلى امها متصدقاً كما يتصدقون على ابناء السبيل المساكين بل انه لم يردها الا استرضاء لامها التي لا يزال يحبها وهي بنت الجريمة التي عذبته عشرين عاماً ويرضى أن تسكن في منزله ذلك المحل الذي كان يجب أن يسكنه اولاده لا اولاد سواه .

أن هذه العاطفة التي حملته على ردها إلى امها لا تلبث حتى تتلاشى فيعود إلى تذكر اصلها وهب أن المروءة والكرم

حملاه على النسيان فأين لها هي أن تنسى ماض اليم لا يزال قريب العهد منها ماثلا كل حين امام عينيها فاذا كان ابوها قد دفن في امواج صخرة مورجابت فلماذا لا تدفن هي ايضاً في المياه فيضمهما قبرا واحد .

هذه هي الافكار التي كانت تحدث نفسها بها بينما كانت امها والمركيزة قد خرجتا من المنزل وكانت الكونتس تخاف مفارقة بنتها بعد أن اخبرها الاميرال بحادثة النهر فلما وصلت إلى الطريق التفتت إلى النافذة التي كانت واقفة فيها جانيت ورأتها تبتسم لها فاطمأنت وسارت مع المركيزة ولكنها كانت مخطئة بهذا الاطمئنان اما جانيت فأنها دخلت إلى غرفتها وجلست عند منضدة تكتب بعد أن تنهدت تنهداً طويلاً فانها كانت تود الحضور إلى صخرة مورجابت لترى ذلك المنزل الذي ولدت فيه ذلك البحر الذي دفن فيه ابوها فتودعهما كما ودعت ضريح مربيتها ثم لانها عرفت من وصف ذلك المكان انه يسهل لها الغاية التي لم تكن تفتكر الا بها بعد نكبتها فكتبت بسرعة ما يأتي :

امي العزيزة .

« اسألك الصفح عني لما عزمت اجرائه فاني منذ رأيت هذا البحر الذي يبلغ الطرف مداه كنت اخال أن هدير امواجه يدعوني اليه ويشهد الله اني احببتك بملء جوارحي وبقدر

ما كنت اكرهك في ايام شقائي وانا اعلم ما ستلاقينه متى عرفت مصيري الذي لم ينقذني منه حنوك واعرف مروءة الاميرال ارجوك أن تظهري له صادق امتناني ولكن لا بد لي من أن اظهر لك حالة نفسي »

« أن هذه النفس قد اصيبت بعلة شديدة لا سبيل إلى شفائها بتقادم الايام بل انها كانت تزيد استفحالا كل ما مرت بها الايام .

« وقد فرحت في البدء حين لقيتك ورجوت ان ينسيني حنوك وعطف الاميرال ورخاء العيش ذلك الماضي وحوادثه الهائلة ولكن كل ذلك الرجاء كان باطلا فقد وجدت التباين عظيما بيننا وأن ارتفاع منزلة أمي في ذلك المجتمع الانساني وفخامة ذلك الوسط الذي اعيش فيه واحترام الناس لتلك الاسرة التي نسبتني اليها كل ذلك كان يحقرني في عيني نفسي فاجد أني غير جديرة بهذه الام الطيبة وتلك الأسرة الشريفة.

« أن الاميرال قد تفضل من كرمه بان يدعوني باسمه ولكنه حين اخبرني بذلك ارتعدت فرائصي ووطدت العزيمة على تنفيذ خطتي المحزنة اذ لا بد للاميرال أن يخجل قريباً لهذا التبني وهو يعرف من انا .

« اتحسبين اني استطيع نسيان تلك الحادثة الهائلة التي قادتني إلى ذلك الموقف الرهيب الذي وجدتني فيه ؟

« وبعد فما يقول الناس حين يرونني مع الاميرال فيقولون هذه هي ابنة الاميرال دي فيتراي التي كانت تجول في

« هذه هي ابنة الاميرال التي انتحر بسببها فلان وهي عشيقته هذه التي كانت تتلمس بيع نفسها حين كانت تجول في الشوارع أفتحسبين أن جميع الناس من أهل المروءة والكتمان

« ولنفرض أن انتسابي إلى الاميرال ومجده اللامع ومقامه الرفيع يخمد هذه الاشاعات فماذا تقولون لو جاءكم رجل وخطبني اليكم بل ما عساي أنا أن اقول ؟

« انه لم يبق لي يا امي العزيزة غير طريقين اسلكهما وهما طريق الدير وطريق القبر .

« اما الدير فهو لا ينيلني قصدي من تخفيف عذابي فاني احبك كثيراً فاذا رأيتك باكية لفراقي فقد لا استطيع مقاومة دموعك وفوق ذلك فان تلك التذكارات مطبوعة على قلبي فلا تمحوها سكنى الدير وابقى على ما انا فيه من العذاب .

« واما القبر فهو خير ضامن للراحة الابدية وهو قد يسرك ايضاً فانك تزرينه في كل يوم وتضعين عليه الازهار وتحبينه وقد طالما فضلت يا اماه خبر موتي على انقطاع اخباري حين كنت طائفة شريدة بل طالما خطر لك اني شقية تائهة جائعة فكنت تؤثرين موتي على هـــذا الشقاء فأنا الان ميتة ولكني خلفت لك تذكاري .

« استودعك الله يا اماه واوصيك خيراً بماري فهي بمثابة اختي بل هي بنتي فانا التي ربيتها وارجو أن تذكريني لديها

« الوداع يا اماه واصفحي عني فاني احبك كثيراً وكم كنا

سعيدتين لو لقيتيني قبل فوات الاوان ولكن ذلك الماضي قتلني فالوداع يا اماه إلى الابد »

جانيت

ولما فرغت من الكتابة كانت دموعها قد بللت الرسالة فعنونتها باسم امها ووضعتها على المنضدة بشكل ظاهر ووقفت وقفة المتردد إلى قصدها بعين الخيال فتخاف وتنظر إلى صباها بعين المستقبل فتتذعر مما هي قادمة عليه ولكنها كانت تسمع اقوال الفتيان الذين كانوا يغازلونها في قهوة الفردوس ويرن في اذنيها صوت ذلك اليهودي المنكود الذي قتل في منزل حبيبها جان ثم تسمع صوت المسدس وترى تلك الرصاصة التي اخترقت دماغه فتجن من اليأس وتحتقر كل ما تراه امامها من زهو الحياة وزخارفها .

وعند ذلك توطدت عزيمتها فقامت إلى المغسلة فغسلت وجهها اخفاء لاضطرابها وخرجت من المنزل فذهبت إلى صخرة عالية كانت تناطحها الامواج وهناك خلعت بعض ملابسها ونظرت إلى تلك الامواج الزاخرة دون أن تخافها فقد طالما تعودت حين كانت تعيش في جرساي وتمثل لها أن صوت هذه الأمواج انما هو صوت ابيها يدعوها اليه ليضمها إلى صدره فنظرت إلى الارض آخر نظرة ثم صاحت صيحة القانطين والقت نفسها إلى المياه .

وفي تلك اللحظة سمعت صيحة اخرى من احد مشارف

البحر ولكنها صيحة هائلة بل صيحة أم والهة ترى ولدها قد القى بنفسه إلى هوه الموت واليك ما حدث .

أن امها حين ذهبت مع المركيزة للنزهة في البساتين كما تقدم لم تكادا تتوغلان حتى ثارت الهواجس في قلب تلك الام المنكودة فأخبرت المركيزة بما خامرها من الخوف على ابنتها وروت لها حادثة النهر فاضطربت المركيزة لما سمعته ولامتهـا لمفارقتها اياها واسرعت بالعودة معها إلى المنزل .

وهناك دخلت الكونتس إلى غرفتها فلم تجد ابنتها حيث تركتها ولكن قلبها كان يحدثها بحدوث نكبة وقلوب الامهات تصدق في مثل هـذه الاحاديث كما تصدق الغيوم بالدلالة على العواصف .

فأسرعت الى غرفتها فلم تجدهـا ولكنها وجدت تلك الرسالة فقرأتها في لحظة وكادت عيناها تخرجان من وجهها لرعبها فوثبت والهة إلى المشرف المطل على البحر فما رأت شيئاً في البدء ثم نظرت إلى جهة الصخور فرأت جانيت قد ودعت الارض آخر وداع والقت بنفسها إلى البحر فصاحت تلك الصيحة الهائلة التي لا تستطيع وصفها الاقلام وكأنما جانيت خافت أن يعلموا بامرها ويحاولوا انقاذها فجعلت تسبح سائرة إلى عرض البحر ليس بقصد النجاة بل بقصد الهلاك فانها عولت على ان تتوغل بحيث لا يستطيعون ادراكها إلى أن تغلبها الامواج ويضعف قواها التعب فتغرق .

وكان الاميرال والمركيز دي كروجر يتنزهان تحت المنزل قرب تلك الصخور التي ذهبت اليها جانيت وقد مرت بالقرب منهما وهي لا تعلم انهما هنـاك فلم يرياهـا لتسللها وانشغالهما بالحديث .

فلما صاحت بلانش تلك الصيحة ذعر الرجلان ونظرا إلى مصدر الصوت فرأيا بلانش واقفة في المشرف ويداها ممدودتان إلى الجهة التي سقطت فيها بنتها .

فادرك الاميرال سر النكبة وقال للمركيز . اسرع إلى القارب ولكن المركيز لم يسمعه فقد كان ابتعد عنه راكضاً اذ علم من موقف بلانش نفس ما علمه الاميرال .

اما الاميرال فانه ركض ايضاً إلى تلك الصخور ونظر نظرات رجل بحري يمرن إلى البحر فرأى جانيت تسبح على سطح المياه فأسرع إلى خلع ردائه والقى نفسه إلى البحر .

وقد التفتت جانيت حين سمعت صوت سقوطه وادركت قصده فامعنت بالسباحة وكانت المسافة قد بعدت بينهما غير أن جانيت مهما كانت بارعة في السباحة لا تعادل فيها اميرالا قوياً ربي في البحار .

فلم تكن غير هنيهة حتى ادركها وقد انتهكت قواها كل ذلك والكونتس واقفه في المشرف تنظر إلى ما يجري ونفسها طائرة شعاعاً .

اما جانيت فانها لما رأت انه لم يبق بينها وبين الاميرال غير بضعة امتار وهي موقنة انه لا بد أن يتغلب عليها ادركت أنه

يمكنه أن ينقذها فغطست تحت المياه كي تغرق نفسها فغطس الاميرال في اثرها واقترب المركيز كروجر بقاربه وصعد الاميرال إلى سطح المياه وحده وصاحت بلانش من المشرف مثل صيحتها الاولى وهمت أن تلقي بنفسها من ذلك العلو الشاهق لو لم تمنعها المركيزة .

ولكنها لم تكن غير لحظة حتى صاحت المركيزة صيحة فرح وقالت : هذه هي وتلاشت قوى الكونتس، فسقطت مغمياً عليها ذلك أن الاميرال صعد إلى سطح المياه وهو يعض باسنانة على ثياب جانيت وقد حملها ايضاً بيديه وهي شبه جثة وكاد يغرق واياها لو لم يسرع المركيز إلى انتشالهما واصعدهما إلى القارب .

وقد صحت جانيت من اغمائها ووجدت نفسها بين يدي الاميرال منقذها وانها لا تزال في قيد الحياة فذعرت ولكن الاميرال همس في اذنها بملء الحنو قائلا :

— ارجو أن لا تشكي بحنوي بعد الآن ألستِ ابنتي وقد اصبحت مدينة لي بالحياة ؟

وبعد هنيهة كان الجميع في المنزل وقد استفاقت الكونتس من اغمائها فدفع اليها الاميرال ابنتها فنظرت اليها الكونتس نظرة حب صادق قرأ فيها آية الغفران الاكيد . وضمت الام بنتها إلى صدرها وقالت لها : والآن الا تزالين تريدين الموت ؟

فاطرقت بعينيها وقالت : اماه .

قالت : اتقسمين لي بالحرص على حياتك ؟

فعانقتها جانيت ثم عانقت الاميرال وقالت له : انك ما زلت تعتقد اني جديرة بالحياة فسأحيا من اجلك ومن اجل امي وكانت المركيزة ترى هذا المشهد فوضعت يدها على كتف الاميرال وقالت له :

— لقد كنت من البواسل أيها الاميرال ولكن لا بد لك أن تعلم أن الهناء في هذه الحياة لا يكون الا بامرين .

— ما هما ؟

— هما الحب والغرام هما السعادة المشتركة هما الحب والغفران .

•

مضى على ذلك عام حدث خلاله ما قد يتوقعه القراء فان موريس كولباي اصيب بسويداء تشبه الجنون تمكنت منه بعد انتحار ولده فلم يعد يهتم بشيء من امور منزله ولا يلقى غير هائم مفكر .

وانقطع لاروش عن مطاردته فاكتفى بما عاقبه به وانصرف إلى اعماله في تلك الشركة الانكليزية الهائلة فبات من مديريها واصبح من كبار الاغنياء .

وتزوجت ماري ابن عمها فرنند اذ لم يكن يعارضه في هذا الزواج غير عمه موريس لفقره وقد بات منشغلا بهواجسه عن هذا الاعتراض .

وتقلب الاميرال وزوجته على جانيت فمحى حنوهما تلك

الاثار المحزنة من قلبها وتمكن المركيز كروجر من استمالتها اليه بحبه الصادق فاحبته مثل حبه وكان هدا الحب خير معين على النسيان فتزوجت به واقامت معه في ارضه كما يريد وتريد على اهنأ حال .

وعاد الصفاء والهناء إلى منزل الاميرال فنسيا ذلك العذاب القديم ورزقها الله مولوداً ذكراً كان خير مكافأة عن اساءة الدهر في تلك الاعوام الطوال .

وعادت جانيت إلى زهـوة جمالها وفتحت قلبها إلى زوجهـا الحقيقي وقالت له إن قلبي لـك ، بل تـربع عـلى عرش قلبي فإن الحب والإخلاص هما اثمن ما لدى الإنسان .

تمت